التحليل النفسي والأدب

دراسة في تحليل المحتوى
لقصة يائيل ديان

طوبى للخائفين

دكتور / فرج أحمد

تمهيد

فى التحليل النفسى والادب

هذه دراسة فى التحليل النفسى للشخصية الاسرائيلية من خلال العمل الأدبى . بعبارة أخرى أطار هذه الدراسة هو التحليل النفسى نظرية ومنهجا وحرفيات ، أما الموضوع الذى نتصدى له فهو الشخصية الاسرائيلية ، أما المادة الخام - اذا أجزنا لنفسنا استخدام هذا التعبير - التى نستخدمها لتحقيق ذلك فهى الادب ، وبعبارة أدق القصة الاسرائيلية .

وعلى هذا فنحن بصدد دراسة فى علم النفس اطارها النظرى ، أو انتماءها النظرى هو التحليل النفسى ، وتتجه هذه الدراسة الى الموضوع المحورى فى علم النفس ، موضوع الشخصية أو كما يسرى قدرى حفنى (فى الشخصية الاسرائيلية) شخصية الجماعة مفضلا ذلك المصطلح على المصطلح الاقدم والاكثر شيوعا ، " الطابع القومى " .

---

١ - عن التحليل النفسى والادب

التحليل النفسى نظرية سيكولوجية ، استمدت أصولها تاريخيا على يدى مؤسسها سيجموند فرويد من خلال الخبرة

الاكلينكيةفي مجال علاج الامراض النفسية. مؤسس هذه النظرية طبيب ومصدرها المرضى ، وهدفها وهدف مؤسسها العملي المباشر العلاج وتحقيق الشفاء ، شأنه في ذلك شأن كل طبيب . ولكن فرويد الطبيب ، من خلال مرضاه بدأ يتبين بالتدريج ومن خلال معاناة قاسية وفريدة أن المرض ليس لعلة في الجسم — وكان مرضاه في الغالب من الهستيريين — وانما لعلة في النفس وأن علاجه لا يكون بالتصدى للجسم ، وانما بالتعرف على النفس ، بالانصات اليها والتحاور معها .

وهكذا وجد فرويد نفسه يتحول بالتدريج من طبيب يعالج الاجسام ، الى شيء مخالف الى "محلل نفسي" يقترب من النفس ويتعرف عليها ، وهكذا كان ميلاد العلم الجديد علم يتجاوز حدود الوجود الجسمي ، بما هو وجود بيولوجي — أو وجود حيواني ، (من حياة) ، الى وجود انساني ، (من أنس ومؤانسة) ، وكان ميلاد علم جديد للانسان بما هو كذلك أعني بما هو انسان ، يأنس الى الاخرين ويأنسون اليه . وهكذا أصبح المرض ، من حيث هو خلل وعطب" أصبح خلل وعطب في الوجود الانساني ، خلل في "الوجود في العالم" Being- in the world — وأن لم يكن فرويد بالطبع هو صاحب هذا المصطلح الفلسفي أي خلل في العلاقة الانسانية بالعالم بشريا ، وماديا ، وتتابعت كشوف التحليل النفسي لحياة الانسان النفسية

طفولتــه وعلاقاتــه الطفليــة بوالديــه ... الخ حياته النفسية الداخلية وعــالمــه الداخلي ، ولعلنا نشير هنا الى أخطــر أكتشافيــن في التحليــل النفسى " عقــدة أديــب " و " التخيل واللاشعــــــور ".

ولعله يجـد ربنا هنا أن نشير الى ما حققه التحليل النفسيمـــن تحــول ثــوري في مواقف ثلاث :ــ

١ ــ رفض الاختزالية البيولوجية ، أعني اختزال ما هو انسانـــــي الى ما هو بيولوجي ، ان الوجود البيولوجي هو الاســـاس المادى للوجود الانساني ، لكن الوجود الانساني يمثـــل الطفــرة بمثــل المستوى الاعلى ، يمثل الجديد الذى يولـد من رحم القديــم . وهذا هو معنى الانتقال الكيفى ، وهــو ما تعجــز عن ادراكه النظرة الميكانيكيــة غير الديالكتيكيـــه ان المستوى السيمانطيقــى (Semantics) ــ أى مستوى المعنى هو جوهر الوجود الانساني . ان علــــــم النفس لا يمكن استيلاده من علــم وظائف الاعضــــــــاء .

٢ ــ رفض " الانعزالية السلوكية " ونعني بها الى Islationism فالانســاني كما يذهب المشتغلون بالتحليل النفسى ليـــس one body psychology ، وانما هــــــــــو Twobady psychology بمعنى أنه علاقـــــة بآخــر ، أو حــوار مع آخر ، أو خطاب موجه الى آخـــــر

ومقولة التحليل النفسي : " الانا هو الاخر ، بعبارة أخرى أن كلب بافلوف في تجاربه الشهيرة ، أو فئران واطسون وجود حيواني مغلق و منعزل ، ومحكوم بمطالبه البيولوجية ، أما الانسان فمحكوم بالاخر ، والوعي لا يمكن الا أن يكون وعيا به .. أي أن يكون له موضوع خارج عنه . منطلق الدافع ، أو المنبه ، أو الاستجابه الشرطية ، أو الفعل المنعكس أو خفض التوتر ، تنطبق على الوجود البيولوجي ، أما الوجود الانساني - الانس والمؤانسة - فهو حتما و بالضرورة حوار و علاقة ، أن رغبة الانسان هي في حقيقة الامر " رغبة في رغبة " رغبة في أن تكون رغبته موضع رغبة الاخر . ولعله من الطريف أن يكون الفيلسوف الالماني الاكبر " هيجل " هو أول من فطن الى ذلك - وقبل ظهور علم النفس والتحليل النفسي والطب النفسي - اذ يقول أن رغبة الانسان هي في جوهرها أن يكون موضع " اعتراف " من جانب الاخر ، ان الرغبة الانسانية لا تولد الا في سياق اجتماعي . إن معطيات العالم المادية قد صارت انسانية تاريخية ، قطعة القماش ، التي هي العلم ، صارت رمزا للوطن يضحي ابناءه بحاياتهم من أجله .

٣ - رفض النزعة السوسيولوجية المغرقة ، أي رفض النظر الى الانسان من خارج ، أي رفض النظر اليه من حيث هو مجرد نتاج اجتماعي ، بمعنى أنه يتشكل فحسب وفق قوانين المجتمع . الانسان كائن اجتماعي لا شك في ذلك . لا وجود له خارج المجتمع

لا خلاف على ذلك ، لكن الواقع الاجتماعي من حيث هو واقع خارجي مادي ينعكس في " وعي " الانسان وفق قوانين انسانية نوعية لا يمكن لعلم الاجتماع أن يصل اليها . مهمة علم النفس هي دراسة تلك القوانين النوعية التي تحكم وعي الانسان بعالمه أن دراسة التخييل مثلا ، ودراسة قوانين العمليات الاولية ، ودراسة الرموز و سيكولوجية الحلم ، تبين لنا جميعها الاختلاف الكيفي بين قوانين علم الاجتماع وقوانين علم النفس ، أو علم الوعي ونعود الى مطلحينا ، عقدة أوديب ، والتخييل ، والعمليات الاولية يشير المصطلح الاول الى علاقة انسانية ثلاثية ، الطفل ، الام ، الاب أن الام هي موضوع الرغبة ، بكل معانيها الانسانية ، والطفل هو صاحب الرغبة لكنه لا يعي نفسه بما هو كذلك ، الابن خلال وسيط هو الاب ، الاب من حيث هو نقيض و منافس له ومن حيث هو قيد على رغبته ، هو الحد أو الشرط الضروري لميلاد وعي الطفل الانساني بوجوده ، من حيث هو " أنا " وعلى هذا " فعقدة أوديب ، أو الموقف الاوديبي ، هو موقف " الانسنة " Homminization أي هو الموقف الانساني الذي يرتقي من خلاله الطفل من مستوى الوجود البيولوجي الى مستوى الوجود الانساني ، حيث يتحقق ذلك التمايز الجدلي Separation Individuation أي الانفصال والتفرد . ونقف هنا وقفة تأمل ، لقد

توصل فرويد الى هذا الكشف من خلال خبرة علاجية متخصصة تعرف فيها على حقيقة الوجود الانسانى . ولكن هذا الكشف ذاته قد استعار فرويد اصطلاحا اسطوريا ليشير به اليه ، وهكذا فالاسطورة تتطابق مع الكشف الاكلينيكى مما يقيم الدليل على وحدة الوجود الانسانى فى الصحة والمرض وفى الحلم والاسطورة . وهكذا ساهم التحليل النفسى والاكلينيكى فى تفسير مختلف جوانب الوجود الانسانى ، كما أسهمت هذه الجوانب فى تعميق فهم التحليل النفسى للوجود الانسانى . لقد أصبحت الاسطورة مرآة من مرايا الوجود الانسانى .

أما عن المصطلح الثانى ، فيشير الى أمرين مرتبطين ، الى محتوى والى شكل ، قانون التخييل هو المثل الشعبى الدارج "الجعان يحلم بسوق العيش" وهو نفس قانون حلم اليقظة ، فالانسان يتخيل ، أى يتوهم وجود ، أو حضور ما يرغب فيه عندما لا يكون موجودا أو حاضرا . انه باصطلاح فرويد "يهلوس" أى يدرك ما ليس له وجود فعلى فى الواقع الخارجى وجود ما يرغب فيه وكأنه قائم . هذا أساس حلم الليل وحلم اليقظة بل أساس الوعى والوجود الانسانى ، هو وجود "خالق" أو خلاق" أو "واهم" أو حتى "كاذب" بمعنى ما . ان طبيعة التكوين العقلى ، طبيعة التطور

البيولوجى هو الذى أدى الى هذه الطفرة ، الى ميلاد العقل " الرمزى " فالانسان هو وحدة كما يذهب ارنست كاسيرر فى كتابه الموسوعى Philosophy of symbolic forms " فلسفة الاشكال الرمزية " صانع الرموز و خالقها ، ان النشاط العقلى الانسانى نشاط رمزى يقوم على تخيل الاشياء فى غيابها من خلال الرموز لغوية و اشارية ، و مرة أخرى هذه الميزة الخاصة بالانسان و القاصرة عليه وحده ، و التى لا وجود لها بادنى صورة من الصور لدى جميع ما دونه من الكائنات الحية ، هى صانعة الوجود الانسانى ، مصدر اللغة قولا و كتابة ، مصدر العلم و الفن و الدين و الجنون ، ذهانا و عصابا ، المهم أن الجانب الاول من التخييل هو جانب المحتوى ، فالانسان يتوهم ما يريده ، وكانه قد تحقق بالفعل ، و هذه هى وظيفة ظاهرات نفسية عديدة ابتداء من احلام الليل و اليقظة و الاعراض المرضية ، و النكتة و الهفوة و الفن ، لقد أوضح فرويد أن الفن يستمد جذوره من أحلام اليقظة وأن الابداع الفنى حلم يقظة طوع لبعض من مقتضيات الواقع .

على أن جانبا آخر بالغ الاهمية قد أسهم التحليل النفسى فى كشفه و هو شكل التعبير عن هذا المحتوى ، يكفى أن نشير الى المقدمة الباهرة لكتاب " تفسير الاحلام لفرويد " و التى كتبها مترجمة الاستاذ مصطفى صفوان لنتبين أن أخطر كشوف

فرويد أنه عرف فى الحلم والمرض ـ الانسان بلغته بما هو راغب مثلما عرفه ارسطو فى منطقه بلغته بما هو عارف، وهكذا فالانسان ينطوى على جانبين ، جانب راغب، وجانب عارف ، للجانب العارف لغته المنطقية وللجانب الراغب لغته " البدائية " أو الاولية . وما الرموز فى الحلم والاسطورة والقصة أيضا ـ الا بعضا من هذه اللغة .

وهكذا فالتحليل النفسى يتصدى لدراسة الانسان والتعرف عليه من حيث هو وجود واعى فى علاقة بآخر ، وأن هذا الوجود الواعى هو وجود فى الاخر وبالاخر ، هو اذن حوار أو خطاب أو علاقة ، هو بمعنى ما وجود لغوى ، فلا كان المحلل النفسى الفرنسى الشهير يرى أن اللاشعور بناء لغوى . لذلك كانت أسطورة أوديب تعبير عن هذا اللاشعور . وتقودنا اسطورة أوديب الى مسرحية هاملت لشكسبير ، ويكفى أن نشير الى أن ارنست جونز المحلل النفسى الشهير كان أول من استطاع حل لغز هاملت فى تردده فى الثأر لابيه . Ernest Jones : Hamlet' and Oedipus وهكذا فنتناول الاثار والاعمال الادبية والفنية والفلكلورية والاسطورية ، وكل ما يصدر عن الانسان من نتاج هو فى نهاية المطاف مرآه تعكس نفس مبدعها .

تناول فرويد أوديب و تناول الاخوة كرامازوف ، و تناول جونز هاملت ، و تناولت مارى بونابارت أعمال ادجار آلن بو ، و لعل فى دراسة أوتو رانك عن أسطورة مولد البطل ، و دراسة هانز ساكس عن " اللاشعور المبدع " بل و دراسة فرويد للهفوات ، و " النكتة و علاقتها باللاشعور " بل و أيضا كتابه الشهير عن " الطوطم و التابو " هذه جميعها ليست الا نماذج لسيل يتدفق بلا توقف عن اسهامات التحليل النفسى فى تفسير ما يصدر عن عقل الانسان من ضروب التعبير و النشاط الخلاق ، من حيث هى جميعها لغة أو صور من صور التعبير اللغوى عما فى أعماق الانسان .

٢ ـ التحليل النفسى و علم النفس الاكلينيكى

اذا كان التحليل النفسى نظرية نفسية شمولية تستهدف فهم الانسان و تفسيره من حيث هو معنى و علاقة ، فان من المنطقى الا يقتصر اسهامه على تناول النشاطات الابداعية للانسان ، و انما كان لابد أن يمتد الى مجال تطبيقى من مجالات علم النفس ، أو قل فرع من فروعه و هو علم النفس الاكلينيكى ، و خاصة مجال التعرف على الشخصية و البناء الانفعالى للانسان ، و من ثم كان ظهور الاختبارات

الاسقاطيـة على اختلاف أشكالها ولا يمكن يكـون مصادفة أن نجد مؤلفـي أشهر اختبـارين اسقاطيـين رورشاخ وتفهم الموضـوع محللين نفسـيين محترفيـن . بـل أن أول اختبار في هذا المضمار وهو اختبـار تداعي الكلمات كان من ابتكار أول وأشهر تلامـذه فرويـد ، كارل يونـج الشهير ويهمنا هنا اختبار تفهـم الموضوع .T.A.T فهو يتكون مـن مجموعة من البطاقـات المصـورة التي يطلب من " المفحـوص" أن يستجيب لها برواية قصة موجـزة ...... وعن طريق مجموع القصص يمكن استخـلاص الصـورة الكليـة لشخصيـة صاحبهـا . عن طريق القصـة اذن يمكـن دراسـة الشخصية . شخصية صاحب هذه القصـة .

وهكذا نجـد أن ما قـام بـه التحليل النفسي في مجـال دراسـة الاعمـال الادبية والفنيـة ومن بينها القصة ، يتـم في مجـال علـم النفـس الاكلينيكـي مهتديـا بدوره بالاطـار النظـري للتحليـل النفسـي ، وبخاصة مفهوماته الاساسيـة من لاشعـور وعمليـات دفاعيـة ودلالات رمزيـة .

والمقولـة الاساسية هنا أن مثـل هذه الاعمال نتاج سيكولوجي يعكـس بناء صاحبها السيكولوجي نحـن نتعرف على شخصيـة الكاتب من أعماله ، أو على شخصية المبـدع مما يبدعـه .

وهنا نواجه اعتراضا لابد من التصدى له. اذن العمل الفنى تعبير عن البناء النفسى لصاحبه فقط ، دون غيره من البشر. أن هذا القول ينطوى على ادعاء بتفرد كل شخص تفردا كاملا ، ينتفى معه التشابه أو الاشتراك ولكننا اذا انتقلنا الى علم النفس الاجتماعى ودراسات الطابع القومى أو شخصية الجماعة ، والى الفرويديين المحدثين مثل كاردنر واريكسون وجدناهم يتحدثون عن تشابه أو عن قدر من الاشتراك بين أفراد الجماعة ، أو المجتمع ، أو القومية .. الخ وهذا يرجع الى تشابه ظروف الحياة ، من حيث المستوى التكنولوجى ، والبناء الاجتماعى ، والنظام القانونى ، وينعكس هذا كله فى النهاية فى أسلوب عام للتنشئة الاجتماعية يؤدى الى تكوين ما يسميه ابراهام كاردنر " البناء الاساسى للشخصية " ان المجتمعات البدائية بتجانسها وبساطتها قد جعلت الحديث عن مثل هذه " الشخصية المنوالية " أمرا ممكنا.ان المجتمعات الرعوية البسيطة أو مجتمعات القنص والصيد البدائية أو المجتمعات الزراعية ، تتميز جميعها بقدر من التشابه أو الوحدة أو الاشتراك.

ولكن مع التسليم بذلك فان التعرف عليه يكون من خلال نماذج ممثلة ، من خلال دراسة جماعات أو عينات تمثل هذا المجتمع

ومن هنا قد استخدمت الادوات الاسقاطية وبخاصة رورشاخ وتفهم الموضوع في مثل هذه الدراسات .

وعلى ذلك فبالرغم من تفرد كل شخص ، فأن ثمة أشتراك غالبية أفراد المجتمع في سمات عامة منشأها تماثل ظروف الحياة والتاريخ المشترك والمستوى الاجتماعى الاقتصادى ، فالشخصية في نهاية الامر لايمكن الا أن تكون " انعكاسا " للبناء الاجتماعى الاقتصادى للمجتمع في حركته التاريخية ، والا كانت مزاجا فطريا بيولوجيا منعزل عن كل ما هو اجتماعى اقتصادى تاريخى ، وهنا يستحيل الحديث عن الانسان المصرى أو العربى أو الفرنسى أو الصينى . ومثل هذا الموقف لايمكن الا ان يكون نظرة اختزالية بيولوجية عنصرية تنكر دور الحضارة والتاريخ والتخطيط والديمقراطية والتعليم .. في تشكيل شخصية الجماعة . ثمة ما هو فردى مميز وما هو جماعى مشترك وتقوم بين الاثنين وحدة جدلية ، ولذلك يكون الحديث عن " شخصية الجماعة " التى نتعرف عليها عن طريق نماذج نرى انها في مجموعها معبرة عن هذه الجماعة . ومن هنا نفهم استخدام الادوات الاسقاطية في دراسة عينات مختارة تمثل هذه الجماعات .

ولكن الذى نزمع القيام به هو أننا نقوم بدراسة عمل واحد لكاتبة واحدة في هذا المجتمع نرى ماقيمة ذلك وما جدواه ، وما الذى نستطيع أن نستخلصه من مثل هذا العمل الواحد لكاتبة واحدة نعود الى مقال فرويد الشهير عن " الشاعر وحلم اليقظة " ان حلم

اليقظة حلم فردى يعبر عما فى داخل صاحبه والعمل الفنى والادبى فى أصولـة حلم يقظـة فردى ، لكن صاحبة لا يزال يهذبـه ويخضعه لمقتضيات الواقـع كى يكون مقبولا من الاخرين ، ويذهب فرويد الـى أن العمـل الفنى ، كمـا فى أوديب وهاملت والاخوة كرامـازوف والجريمـة والعقاب ... الخ ينطـوى على لب أو جوهر بشـرى عـام . ومع ذلك يتم تطويعه لظروف الواقـع الاجتماعى العينيـه ، ويرى فرويـد أن درجة الشيوع أو الانتشار للعمـل الادبى أو الفنى هى المقياس لقدرة هذا العمل عن التعبير عمـا هو مشـترك ، الكاتب الجماهـيرى والعمل الواسـع الانتشار ويصرف النظر عن — مستواه الحرفـى والفـنى يعبـر بشكل ما عما هـو مشترك بين كاتبه أو مبدعـه وجمهور المقبليـن عليه . لذلك تلقى قصص الحب — الرومانسيـة رواجا بين المراهقات والفتيـات ، بينما تلقى قصـص العنف والجريمـة رواجا بين الذكـور والمراهقيـن . هذا الرواج مقياس للدافـع النفسى المشترك ، أو الحاجة النفسية المشتركـة أو البناء النفسـى المشترك لذلك فالموقف العلمى ، هو اختيـار عينـة ممثلـة من الاعمال الادبيـة ، سواء لمؤلف تلقى أعمالـه من الرواج والانتشار ما يـبرر الاقتصار عليه أو — وهذا هو الاصـوب — لعديد من المؤلفيـن الذين يلقون رواجا بين مختلف فئات — وقطاعات وطبقـات المجتمـع المراد دراستـه .

ولعل الصورة تصبـح أكـثر اكتمالا اذا تضمنت عينـات مـن

الاعمال الادبية - قصة ، مسرح ، شعر، والبرامج الاعلامية ، والاذاعة ، بل والنكات والامثلة الشعبية ، ... الخ أن مثل هذا الامر يقتضي موءسسات وهيئات للبحوث ، ويحتاج السنوات الطوال والاعداد الكبيرة من الباحثين المتخصصين هذه هي الصورة المثالية . ولكن لما كان مالايدرك كله لايترك كله ، فأن من الضروري أن تكون هناك بداية ما .

ولقد كان مشجعا لي أن يتصدى زميلا رائد لهذا الأمر وهو د. قدري حفني في دراساته للشخصية الاسرائيلية (تجسيد الوهم) وللاشكناريم ، للصابرا ، معتمدا على منهج اعادة البناء ، وتناول الوثائق والدراسات والتاريخ في التعرف على جوانب من الشخصية الاسرائيلية وكان ايضا لجهود زملاء (د. ابراهيم البحراوي) من المتخصصين في الادب الاسرائيلي كان لهذه الجهود الرائدة ماحفزني الي الاسهام في دراسة هذا الموضوع. وكانت هذه الدراسات السابقة بمثابة الخلفية التي يمكن الانطلاق منها والاضافة اليها ولذلك كانت أول محاولاتي هي تلك الدراسة التي عرضت في ندوة أكتوبر (جامعة عين شمس ٢٢ - ٢٣ أكتوبر ١٩٧٧) " الحرب والموت" حيث تناولت بالتحليل رواية بايكل ديان " للموت ولدان " وكان للاستحسان الذي لقيته هذه الدراسة ماحفزني الى مواصلة هذا الاتجاه ، بصورة أكثر تعمقا وتفصيلا ولقد وضعت نصب

يعنى أن أقدم نموذجا لما يمكن لمنهج التحليل النفسى أن يسهم به فى تحليل مضمون عمل أدبى . ولقد اودت على وجه الدقة أن تكون الدراسة بمثابة النموذج أو البرهان على ما يمكن لدقائق وحرفيات هذا المنهج وهذه النظرية ان تكشف عنه فيما يتعلق بهذه الطريقة فى "تحليل المضمون "تحليلا نفسيا متخصصا . أننى أتناول فصول القصة فصلا إثر آخره ملخصا أحيانا نصوص كاملة منه بالتحليل والتفسير ، وهنا تبرز مشكلة " الصدق Validity صدق التفسير والصدق هنا كما يقال صدق المفسر ، أى مدى امتلاك المفسر لناصية النظرية والاحاطة بغتياتها ، أننا نعامل الرواية وفصولها ووقائعها وأحداثها معاملتنا لاستجابات قصص تفهم الموضوع مثلا حيث الفيصل فى الصدق اكتمال تدريب الباحث وحسن أعداده نظريا على عكس الاختبارات الموضوعية التى تعتمد فى تصحيحها على معايير معدة سلفا . نحن هنا بإزاء معايير ، لابد للباحث المدرب من اكتسابها وإ ستحال عليه تفسير الاستجابات . وغنى عن البيان أن الخبرة فى هذا المضمار يؤدى تراكمها الى تكوين ضرب من الحدس يمكن الباحث من الفطنة الى معنى خفى — معنى رمزى أو مقنع — يسعى الى التثبت منه عن طريق تكرار شواهد تؤكده عبر بقية أجزاء وعناصر العمل نفسه .

على أن الامر لا يقتصر على مجرد تقديم دليل أو برهان

على مايمكن أن يصل اليه منهج التحليل النفسى فى معالجة محتوى عمل أدبى يفيد منه المشتغلون بهذا المنهج فى تحليل أعمال مماثلة لادباء آخرين ، مصريين ، وعرب ، وغيرهم . بل أن قيمته أيضا تتمثل فى مجال هذا التطبيق ، الادب أو القصة الاسرائيلية بهدف القاء مزيد من الضوء على تكوينها ، خاصة بعد محاولتى د . قدرى حفنى ، و د . مصطفى زيور .

وتكاد تطابق هذه الدراسة فى كثير من جوانبها دراسات قدرى حفنى رغم أختلاف المنهج والنظرية والاسلوب والاداة . لذلك قد نغتفر لانفسنا الاقتصاد على عمل واحد — والحقيقة أن لنا دراسة سابقة لعمل آخر لنفس المؤلفة ، فلا أعتقد أنه مطلوب منا أن يكون قولنا فصل الخطاب والا يكون هناك مجال لاسهام يضيف أو يعدل أو يغير ما أدى اليه هذا الاسهام من تصور .

ولعل الضرورة الوطنية قد تبرر لنا تعجلنا فى نشر هذه الدراسة ، التى يجب أن نؤكد أنها مجرد خطوة استكشافية أستطلاعية ، على طريق التعرف على شخصية أفراد " جماعة أو تجمع " مجاور تتباين الاراء وتختلف أشد الاختلاف حوله أبتداء من التبذ والرفض والاعراض وصولا الى الترحيب والتهليل والدعوة الى التعاون وربما التحالف .

أن واجب العلماء الذين تسمح لهم تخصصاتهم بالتصدى لما يلقى الاضواء الا يتقاعسوا .

بقيت كلمة لابد من ذكرها فيما يتعلق باختيار هذا العمل وهذه المؤلفة . فيما يتعلق بهذا العمل ، فقد درسنا عملا آخر لهذه المؤلفة ونرجو أن نتمكن من دراسة بقية أعمالها وفيما يتعلق بهذه المؤلفة فنسوق الاعتبارات الاتية : أول هذه الاعتبارات صراحة أنها كانت أول المتاح ، وما أقل المتاح لنا من الاعمال الاسرائيلية ، وثانى الاعتبارات ، وهو أمر له دلالته أن المؤلفة تكتب بالانجليزية وتنشر فى لندن ومن ثمة تنتفى مشكلة اللغة ، فاذا كان مقبولا الاعتماد على الترجمة فى دراسات علمية وسياسية ، فأن الترجمة فى مجال الادب قد تفقد النص الاصلى العبرى — بعضا من حساسيته أو جمال تعبير ، أو نكهة خاصة ، فيضيع مغزى قد يكون له قيمته أن كون يائيل ديان تكتب بالانجليزية قد وفر علينا مشكلة النص المترجم عن الاصل . ولكن هاتين الميزتين يمثلان كذلك سمة مميزة للكاتبة . أنها لا تكتب بالعبرية لغة اسرائيل القومية ، ولا تنشر رواياتها داخل اسرائيل وانما فى انجلترا أن هذين الامرين لا يمكن أن يكونا عاطلين عن الدلالة . انهما يشيران عليهما مواطنيها يدفعونهم الى معاداتها واتهامها بعدم الولاء والانتماء بل وباتخاذ موقف ينطوى على التحدى

والازدراء ، انها تقف " خارج التجمع الاسرائيلي " أن هذه العلاقة الفريدة بين يائيل ولغتها وبينها وبين مواطنيها ، وبينها وبين بلادها ـ التي لاتنشر أعمالها داخلها ـ تدل على عدم تعيين يائيل ديان لذاتها تعيينا كاملا بما هو اسرائيلي ، وهذا ماتكشف عنه رواياتها أن رواياتها تنطوي على رفض لما هو اسرائيلي ، بالمعنى العدواني كما لدى الصقور وجيل الصابرا ، جيل ابيها نفسه محارب اسرائيل الاول .

لقد كان محتوى أعمال هذه المؤلفة هو الذي شكل قوة الجذب الكبرى ، و من ثمة كان من بين العوامل السابقة الذكر بمثابة حجر الزاوية في اختيار أعمالها ، الامر هنا ينطوي على انحياز شخصي كما قد يرى البعض ، أو اقتناع شخصي كما يرى من يحب ان يكون أكثر انصاف ، أو فطنة تحليلية بمحتوى هذه الاعمال وعمق تعبيره عن حقيقة مأزق الشخصية الاسرائيلية في النهاية لقد كان لافكار د . قدري حفني بالذات فكرة " تجسيد الوهم " وما تحركه مثل هذه الفكرة لدى خبير في التحليل النفسي ، لايخفى تأثره بالافكار الهيجلية وبخاصة مايتصل منها بالاغتراب ، دورا لايمكن انكاره في توجيه التساؤل والتفكير فيما يتعلق بجوهر الشخصية الاسرائيلية ، كما كان لتفسير د . مصطفى زيور للجانب العدواني ، والصخري أو الصقري منها تفسيرا يستند الى عملية تعيين ذاتي

بالمعتدى دورا مكملا فى توجيه التساؤل حول قضايا الاغتراب والدفاع . كان اذا هذا التراث السابق هو نقطة الاثارة فيما يتعلق بالتساؤل والاستشكال ، بالاضافة الى تاريخ العلاقة المصرية الاسرائيلية والعربية ـ الاسرائيلية وماثار من حروب وخلافات ... كان التساؤل يدور حول ثلاث أمور ...... العدوان ... الزيف .... الاغتراب وجاءت أعمال باثيل ، وحركت قرائها فى نفس الاحساس بقدرتها على النفاذ فى عمق ، ودون ـ شوفينية الى جوهر المأزق الاسرائيلى ... وبما كان للانثى والفنانة دور فى النفاذ فى حدس فائق الى جوهر المأزق الاسرائيلى دون انكاره أو الهروب منه أو الدفاع عنه ، أو الانهيار ازائه فمن المعروف أن العمل الابداعى يكون بمثابة الدفاع الوقائى العلاجى معا . لقد ابرزت باثيل فى حدس نفاذ مأزق الرجل الاسرائيلى ـ الغربى من ابناء جيل الصابرا حملة الايديولوجية الصهيونية العدوانية التوسعية . والذى يتمثل كما بين د . مصطفى زيور فى التعيين الذاتى بالمعتدى ، وبينت مايصحب ذلك ويترتب عليه من اغتراب متزايد وزيف متعاظم وانهيار لابد منه كما نكشف قصتها عن شتات يهودى خارج اسرائيل وشتات يهودى آخر داخل اسرائيل وكأن جوهر الهويه اليهودية يتمثل فى حصارها داخل جيتو أوربى خلال الشتات وحصارها داخل جيتو اسرائيلى ، ينكر هويتها اليهودية ويدمرها ويحاصرها ، داخل اسرائيل .

كذلك استطاعت الانثى والفنانة فى داخلها أن تصـور مأزق المرأة المنبوذة المحروسة من أمومتها المحاصرة بالعقم والزيف والموت داخل جيتو أسرائيل الجديد • وفى النهاية تقدم يائيل من خلال تعبير رمزى لا شعورى يتسم بطابـع دينى صوفى مسيحى حلا آخـر هو التوحـد بالاغيار • هربا من مأزق شعب الله المختـار المفضـل والمحاصر بشعوب دونه • لكنها أكثر منه عددا وأقـوى منه عدده • وانها تقـدم حلا مسيحيا أوربيا فى مقابل الحـل النازى العدوانى الذى تقدمه الصفوة الذكرية الصهيونية الحاكمـة الحل الانثـوى فى مقابـل الحل الذكرى •

يائيل ديان : طوبى للخائفيـــن

عنـوان هذه الرواية InvyThe Frightened ويمكن ترجمتهـا " طوبى للخائفيـن ، ويمكن ترجمتها كذلك : احسد الخائفيـــن " ، اغبط الخائفـين " . وعلى هذا فالخوف هو محورها ، ومصير مـن يسمح لنفسـه بمعاناته والاعـتراف به في مقابل مصـير من ينكـــره ويهـــرب منـه . انها تدور حول الانسان والخوف ، والانســان هنا هو الانسان الاسرائيلي وعلاقته بتاريخه ، أو بماضيه ، يهـــرب منـه ولكنه كامن في أعماقـه ، وأعني به الانسان اليهودي . ونعـرض بتفصيـل لفصول هذه الروايـة ولتفسيرنا لها من وجهة النظــــر التحليليـــة والنفسيـــة .

الفصل الاول

تبدأ الرواية بالجملة التالية : " عندمـا اكتشف أهل القريـة المكان السرى ... حيث كان الاطفال يمارسون في الخفاء لعبـــة " من القـوى " صار عليهم أن يبحثوا عن مكان آخر ولم يجدوا خــيرا من ساحة المقابــر القديمـــة مكانا للقائهـــم .

وكان المكان الاول وادى صغير أجرد هو الوادى الابيــض ، حيث تنعكس فيه أشعة الشمس من فـوق الصخور ، فلا تجد ما يعوقهـا

على الصخور المقابلة ، وبدا وكأن الصخور ترسل الرسائل جيئة وذهابا عبر الرؤوس العارية لجماعة جادة من الاطفال .

أما المكان الجديد فكان بقعة من الارض الرمادية المعشبة ما بين شواهد القبور والصخور الرمادية الخضراء على أعلى منحدر التل الذى تقع عليه المقابر .

تضعنا أول كلمات الرواية أمام عالمين ، عالم الراشدين من أهل قرية بيت ـ عون وعالم الاطفال السرى الحقى ، عالم القوة والتحدى والتفوق ، ولنا أن نتسائل عما يشير اليه هذا الازدواج أو التناقض والرأى عندنا أنه يشير الى جوانب متباينة ، ولكنها متكاملة ومتصارعة ومتناقضة فى نفس الوقت بأعمق مايعنيه الديالكتيك والوحدة الديالكتيكية .

تشير قرية بيت عون الى العالم بعامة ، وتشير جماعة الاطفال " السرية " الى الصورة المثالية لاسرائيل ، أيضا تشير القرية الى اليهود والشخصية اليهودية فى صورتها التقليدية قبل انشاء اسرائيل ، الى يهود الشتات بين مختلف شعوب العالم ، ويرمز الاطفال الى الحلم والامل ، الى الصورة الاسرائيلية الصهيونية التى تقوم على انقاض الصورة اليهودية فى الشتات .

نحن اذن عند هذا المستوى من التفسير أمام عالمين واقعيين لكل منهما وجوده القائم بذاته .

ولكن المستوى الاعمق من التفسير يقتضى منا أن ننظر الى الوحدة الداخلية بين هذين العالمين داخل بناء الشخصية ، أى أن التناقض على المستوى الاجتماعى بين عالمين وعلى المستوى السيكولوجى الاعمق بين جانبين من الوجود ، جانب يمثل الجوهر اليهودى التقليدى القديم وجانب يمثل " القناع " المصنوع ، الاسرائيلى الصهيونى وعلى هذا فنحن اذا بازاء تناقض داخلى فى صميم الوجود والهوية اليهودية الاسرائيلية .

وهذا التناقض حاد لايقبل التعايش، فالاطفال جماعة سرية لهم مكان سرى للقاءاتهم جوهر هذه الجماعة يقوم على نفى جوهر الجماعة الاخرى ، الجماعة اليهودية المستكينة فى مقابل الجماعة الاسرائيلية - الصهيونية " القوية " .

اننا هنا بازاء مايشبه جدل العبد والسيد كما طرحه لنا هيجل فى فنومنولوجيا الروح ، عندما بين لنا كيف لايصبح السيد سيد الا بفضل وجود العبد ، وكيف ينتهى المطاف بأن يصبح السيد بمعنى ما عبد العبد ، فهو عبد لرغبة ونضالة من أجل السيادة على العبد ، والامر هنا بالمثل فالهوية الاسرائيلية - الصهيونية هى النفى الجدلى للهوية اليهودية فى شتاتها بين " الاغيار " .

وكان مكان اللقاء الاول هو الوادي الابيض حيث أشعة الشمس وانعكاسها ونقلها للرسائل وحيث الجماعة الجادة من الاطفال ... ولكن هذا المكان بكل مايعبر عنه ويرمز اليه من حياة (الشمس رمز للحياة والقوة والسلطة الوالدية فى قسوة عطائها وحمايتها) وايجابية قد صار نهبا للاخرين ، وفقد الاطفال استئثارهم به ، وكان احباط الصغار على يدى الكبار ، والقلة على يدى الكثرة والصفوة على يدى العامة .

وكان مكان اللقاء الثانى ، بين القبور وشواهدها ، الرمادية ... وهكذا كان الانتقال من رموز الحياة والعطاء والوحدة الاستمرارية الى الموت والفناء والشيخوخة لقد كان الماضى اليهودى هو العقبة أمام استمرارية وتماسك البناء الجديد ، ولم يعد من سبيل الاعلى انقاض المضى . فاختيار القبور ، اشارة رمزية الى حتمية قيام البناء الجديد على انقاض البناء القديم .

وهكذا حدة الصراع والتناقض وبين الماضى اليهودى والمستقبل الاسرائيلى الصهيونى والازمة هنا أن الماضى هو الاساس الذى يفترض أنه يتضمن فى ثناياه مقومات التطور الهادئ والتلقائى ، بحث كما يقال يولد الجديد من رحم القديم ، ولكن الامر هنا يصل الى حد ضرورة ميلاد الجديد على اشلاء القديم . وان تكون القبور هى مهد الجديد ومن هنا نتبين عمق افتقاد التطور الجدلى ، فالجديد اسير يشيع الماضى الميت .

وتبدأ اللعبة : لعبة القوة .. حيث تصف ياثيل موقف التحفز والتحدى والتوفز بين مجموعة الصبية حتى لتكاد الطبيعية تشارك فى هذا التأهب المشحون بالتوتر .. فالاشجار وشواهد القبور وتلال الجليل من حول بحيرة طبرية قد تجمدت وانتظرت مع عودى ونمرود وايجال (الاطفال) وتشير ياثيل الى ضروب من اظهار القوة بين الاطفال ... ومخاطرها فقد كسرت ساق " موتى " MOTI وهو يقفز من فوق شجرة عالية ، وحدث نفس الشئ لبطل الرواية نمرود ، فقد كسرت ساقه وهو يقفز من أعلى شجرة .. ولذلك ايضا صار عودى UDI قائد المجموعة لانه قفز من فوق صخرة عالية دون أن يصاب بأذى .

ونشير هنا الى أمرين ، المجموعة فى مقابل الاخرين ، والمجموعة هنا مجموعة متفوقة قوامها التحدى واظهار القوة ، والمجموعة ايضا فى داخلها ، حيث الصراع والفردية والترتيب الهرمى من حيث اقامة الدليل على القوة ، أى أن المجموعة فى داخلها تحكمها علاقات التحدى والاضطهادية بالضرورة ، و من ثم يكون التساؤل حول مبلغ ماتتمتع به من تماسك عميق .

وننتقل الى العاب " القوة " التى تمارسها المجموعة انها تسلق الاشجار ، والقفز من فوق الصخور العالية والسباحة فى المناطق العميقة من البحيرة والسير فى الظلام الدامس وهى جميعها من نوع " مضاد الرهاب Counter-phobic فنحن نعرف من اشكال الرهاب الخوف

من السقوط من الاماكن العالية أو المرتفعات ونعرف الخوف من الظلام ودلالتة بين الاطفـــال ... الخ .

أن تسلق الاشجار وهبوطها ، والقفز من فوق صخرة عاليـــة بالاضافة الى معناها السيكولوجى العام من حيث هى تأكيد للقـــوة الذكريـــة تدفع الى الاذهان رموز الفعل الجنسى فى الاحلام ، الصعود والهبوط ، وهذا يحدث فى تسلق الاشجار صعودا وهبوطا ولا أحسب ان كســر ساق موتــى عندما تسلق الشجرة العاليـــة ، جاء مصادفـــة ، فهو خصاء رمزى ، عقاب على فعل من أفعال التحدى " الجنسى " لسلطة الاب ، والشجرة فى نهاية الامــر رمز للام .

وقائـــد المجموعة كان الوحيـــد الذى نجح فى تحدى الاب — دون عقـــاب ، أن مغالبة الخوف من الظلام ، هو فى نهاية الامـــــر مغالبة الخوف من الوحدة بعيدا عن مسانـــــدة الام وحمايتهــــا كمـــا أن السباحة فى أجزاء عميقـــة من البحيرة تعرب عن تحـــــدى الموت (غرقـــا) وتعـــرب ايضا رمزيا عن الميلاد الجديد ، فالخـروج من الماء رمز للميلاد ، الميلاد هنا ميلاد الهويـــة الاسرائيليـــة — الصهيونيـــة والماء والخروج منـــه له مكانـــة فى التاريخ اليهـــودى القديم ، فقـــد خرج موسى من اليم وليـــدا وخرج بقومـــه من مصـــر راشدا وشق البحـــر بعصاه ونجا وغـــرق فرعون وجيشـــه .

العاب القوة اذن هى ميلاد جديد ، يقوم على تحدى الاب وقهرة والتخلص من الاعتماد على الام . التخلص من الخوف من الظـــلام

ثم الاستئثار بهـا دون الاب ، ولكن ثمـن باهظ ـ أنـه الخصـاء .

فى هذا المناخ نتعرف على الشخصية المحورية فى هـذه القصـة وهى شخصية الصبى البالغ من العمر ثمانى سنوات والمسمى نمـرود ونتعرف عليه : فهو متين البنيان قويا أسمر لفحتـه الشمس ، ولكنه كان متموج الشعـر ، وكان ذلك يدفـع الاطفـال الى "اغاظتـه" واطلاق اسماء البنات عليه ، ولكنهم كفوا عن ذلـك عندمـا كسـر ساقه اثناء قيامه فى الربيع الماضى بعمل من أعمـال القـوة .

وقـد ظل يتمنى لو كان شعره قصـيرا ومستقيمـا مثـل " عـودى " .

صورة هذا الطفل جديرة بالتوقف : فرغم أنه فى الثامنـة الا انه متين البنيان ، وهو ايضا اسمر لفحته الشمس .. ان متانـة البنيان غالبا ماتميز الشباب والرجال ونادرا مايتصف بها الطفـل فى الثامنة من عمره ، اما ذكر السمرة وتأثير الشمس فخصوم بعـدة اسباب : محتوم بالرغبة العنصريـة فى تأكيد نقاء الجنس السامـى بسمرته النسبيـة فى مقابل الجنس الارى ببياضـة الشديد ، ومحتـوم ايضا برغبة تقوم على التكوين العكسى فى تأكيد تفوق الجنس السامـى بسمرته على الجنس الارى ببياضـة الشديـد ، ولعلنا نذكر محنـة اليهود مع النازيـة ، والعامل الثالث يعكس ظرفا يهوديا خاصـا

باليهود فى الشتات ، حيث كان كما فى القصة ذاتها اذ نجـــد جد نمرود صاحب دكان صغير) . اليهود يمارسون اعمالا تجاريـة وربويـة وماليه وسيطـة بعيـدية عن الصناعة والزراعة والحـرب ، وحيث كان احد اهداف الصهيونية بناء هوية جديدة مغايـرة للهوية السابقة تقوم على العمل اليدوى وتعتمد على القوة البدنيـه فسمـرة نمـرود ، وتاثيـر الشمس عليه تاكيد لاسرائيليتـه من حيـث تمايزها عن يهوديتـة السابقة ، هذا بالاضافه الى المعـنى الرمـزى للشمس والدفء والحرارة والسمرة والقوة البدنية رموز لتأكيد القـوة الذكريـة .

ومـع ذلك فللصورة جانب آخر ،الشعر المتموج الذى يدفع الصبية الى نعتـه باسماء البنات ،وتمنيه لو كان قصير الشعر مستقيمة مثـل " عـودى " الغطاء الذكرى البالغ فيـه يخفى وراءه سمة أنو ثتـة ، ولم يرجع الصبيه عن سخريتهم الا عندما كسر ساقة اظهـارا لرجولتـه، الانوثـة والذكورة والخصاء الثمن .

وبعد ذلك ياتى الوصف المستفيض لبرهان القـوة " تسلق الشجرة وهبوطها " رمز الفعل الجنسى ، ورمز امتلاك الام ، ورمز الرفعـة والقهر وبلـوغ القمة . ويقول نمرود فى وصف اللعبة " أن تـرى الآخرين انك تستطيع ان تفعل ذلك الذى حتى أنت لم تكن تصـدق أنك قادر على فعلة " ما معنى ذلك ؟ ماهذا الذى لم تكن تستطيـع ان تفعلة ؟ أو تستطيع ان تصـدق او يتصور انه قادر على فعله ؟

ما هذا الذى يتجاوز نطاق مقدرته وحدودها ،أن الذى يحدد للانسان حدود قدرته أحد أمرين ، او كلاهما معا ، أما طبيعة امكاناته وقدرته فلا يقدر الصغير ان يفعل مايفعلة الراشد ، بحكم حدود السن ، او طبيعة القانون او القاعدة الاجتماعية والرأى عندنا ان جوهر هذه اللعبة ان يفعل الصبى مالم يكن يصدق هو نفسه انه قادر على فعله بالمعنيين معا ، يفعل ما لا يسمح له به سنه ، ويفعل مالا يسمح له به القانون (قانون الأب) ويتجلى لنا ذلك فى العمل الرمزى صعود وهبوط الشجرة . انه يتجاوز ما لايمكن تجاوزه يتجاوز طفولته بحدودها البيولوجية ويتجاوز القانون ـ قانون المحارم .

ولذلك فرغم نجاحة الفعلى فانه لم يستطيع ان يخبر احدا على الاطلاق انه كاد يفشل ..... كانت يداه تتصببان عرقا ، وقدماه باردتين .. وتملكه احساس بانه لو توقف للحظة لما حملته قدماه .... .. الخ .

وصف مشاعر نمرود وهو يتسلق الشجرة يطابق مشاعر مرضى الرهاب عندما تفاجئهم النوبة .... " لوتوقف للحظة لما حملته قدماه" .

هذا الخوف البالغ من السقوط وفقدان القوة البدنية .. يعرب بصورة رمزية واضحة عن مخاوف الخصاء والعجز الجنسى ، فتهاوى القدمان وعجزهما عن حمل صاحبهما تعبير رمزى عن " الارتخاء والعجز عن مواصلة الفعل الجنسى " .

والطريف ان نمرود حاول الا يفكر على الاطلاق ، فقط يصعد ثم يهبط

ويترك الجماعة ليذهب الى منزله ، واول ما يفكر فيه هو هل يجب عليه ان يذهب الى " لا مسخ " ويخبرة انه كان خائفا ، ويتساءل ترى ماذا سيقوله هذا العجوز الطاعن فى السن ، والحكيم ... ولكنه لم يذهب الى " لامسخ " هذا وانما اتجه مباشرة الى منزله يفكر صامتا ... وكانت أمه تعد طعام العشاء واقترب منها وأحاط خصرها الممتلئ بيديه ، وضمته اليها بقوة للحظة ثم دفعته عنها قائلة " اذهب واغتسل ياولد فأبيك سيعود فى خلال لحظة "

وهكذا نجد الصبى بعد هذا الفعل يفكر أول مايفكر فى " لامسخ " الذى يرمز الى الأب المتسامح ، الى الحكمة والى التقبل الصادق دون زيف فهو وحده الذى يستطيع نسرود ان يعترف له بخوفه ... ولكنه لايذهب ، وانما يتجه الى منزله حيث الأم بكل دلالاتها الرمزية ،فهى تعد الطعام وهو يحيط خصرها الممتلئ بذارعية (رمز الى الاعتماد عليها والارتباط بها ، والنكوص الى نمط من العلاقة العميقة الاعتمادية بدلا من أحياء العلاقة الأوديبية بكل مخاطرها .) وهى تضمه اليها بقوة ولكنها تدفعه بعيدا عنها (ص ١١) مذكرة اياه بحضور الأب الوشيك وبضرورة الاغتسال — وهو فعل رمزى حوازى — وهكذا يتصرف عنها ويواجه بمفردة دموعة وكراهتيه للشجرة ولمكان الاجتماعات ، ولكنه يعرف انه لايجب ان يبكى ، ويغسل وجهه ليخفى دموعة ويعود الى المطبخ وتحاول أمه الاقتراب منه ، لكن ابيه لايسمح بذلك ،لايسمح لها بعد اجتمعه وتدليله قائلا " انه شاب كبير الآن " ... وهكذا يمسح دموعة ويفكر ثانية فى " لا مسخ " وكوخه الدافئ ويعرف انه لايجب

عليه ان يتحدث عن واقعة مابعد الظهر (التسلق والخوف) وهكـــذا يعلن أمام والديه انه تسلق شجرة ، اعلى شجرة ••• وتبدى الأم خوفها عليه ، فيسارع الأب قائلا " نمرود ولد قوى ، فلماذا اذن يـؤذى نفسه ؟ (ص ١٢) ويؤكد انه لم يكن خائفا ، مذكرا كيف بعثه برسالة الى جدعون ذات ليله مظلمه ولم يخف ويقول موجها الحديث للابـن " فى العام القادم ستتسلق شجرة أعلى " ولكن نمرود يسارع فيجيب " ليست هناك شجره أعلى " ••• ويدور داخل الصبى ديالوج داخلى فيحدث نفسه قائلا " لايمكن ان تكون هناك شجره أعلى ، واذا كانت هناك شجره اعلى فهو لايرغب فى تسلقها انه لايرغب فى ان يقفز فى العام القادم من فوق صخره اعلى ، ولا ان يسبح فى مياة اعمق •

وهكـذا نرى الانشطار فى وجود هذا الصبى ـ رمز الهويـة الاسرائيلية الناشئة ـ ففـى الظاهر شجاعة ومباهاه ، وفى الاعمـاق خوف ووجـل ورغبه فى البكاء والتماس السند والمعاونه والتقبل •

وجدير بالذكر تلك المقابلة بين صورتين للأب ، صورة متسامحـة متقبلة يحتلها لامسخ العجـوز الحكيم وهى حتى الآن صورة يتعامـل معها الصبى على المستوى الفكرى التاملى الداخلى ، وصورة الأب التى تمثل الواقع الخارجى الذى يعمد الى تزييف المشاعر الحقيقية للابـن وخلق مشاعـر زائفـة •

وهكذا نجد الأب يعمق لدى الابن مفهوم القوة وينكر مرارا وتكـرارا مشاعر الخـوف •

ويخرج الصبى مع ابيـه بعد العشاء ليسيرا معا ويدور بينهم الحديث

... يسأل نمرود ابـــاه " هل كنت تتسلق اشجارا عاليـــــة عندما كنت فى الثامنة ؟ فيجيب الاب قائلا " لا يانمرود ، ماكانـوا يسمحون لنا بذلك ، كانوا يعتقدون ان الصبيان اليهود يجـــب ان يبقوا فى حوانيت آبائهم والا يتسلقوا الاشجار " ولكن الابـــن يواصـل استفساره فيقول " هل كنت ستخاف تسلقها ؟ " ويجيب الاب قائـــلا : " لا ياولدى وانت لم تخف ، اليس كذلك ، عندما ارسلتك الى جدعون برسالة تلك الليلة لم تكـن خائفا اليس كذلك ؟ " ويجيب الابـن بقوله انه لم يكن خائفـــا .... وهكذا نجد علاقة الابن بالاب تقوم على انكار الواقـع .. واقع مشاعر الابن الحقيقية ومشاعر الاب التى كان لابد وان يستشعرها اذا ماتعرض لما تعرض له ابنه .

ويمر الابن والاب بجوار المعبـد الذى لم يدخله نمرود ابدا . ويتذكر أن لامـخ كان قد قال له أنه سيأخذه اليه ، ويسأل الابـــن والده ما اذا كان قد دخل معبدا فيجيبه بقوله " كنت اذهب الــى المعبـد عندما كنت صغيرا ، كان ابى يرغمنى على الذهاب " .... ويذكر له كيف كان الصبيه الروس آن ذلك يسخرون منهم ويختـــم حديثه بقوله " لاتخف لست ملزما بالذهاب ولكن الابـن على العكـــس لم يكن يخاف ان يرغم على دخول المعبد بل كان يريد الاستمتاع بدخوله ... ويتذكر الصبى لامـــخ ، ويقتربـا من منزله ويرى الضــــوء ينبعث منه ويسأل نمرود ابـاه قائلا " هل نستطيع الدخول لنـرى مايفعله لامـــخ ؟ ويرفض الاب ويقول له : " لا يمكنك ان تحب لامـــخ

انه عجوز أحمق .. مثل الرجال ـ اليهود ـ فى قريتى الروسية .. ان مايدهشنى انه لم يبقى هناك .. أنه لم يتغير على الاطلاق ... وجميع هذه القصص التى يرويها لك .. انى استطيع ان أروى لك القصص " ولكن الصبى لم يكن يحب قصص أبيه ... ومع ذلك فهى خير من لا شئ وعندما يطلب الصبى من ابيه أن يروى له هذه الليله بعض القصص يرفض لانشغاله فى اجتماع ويقول له " اذهب لتنام وفكر فى نفسك وقد تسلقت قمة شجرة عالية ، عند ذلك ستنام جيدا .

وينصرف الفتى الى النوم ، وعلى فراشة يحاول التفكير فيما شعر به وهو على قمة اعلى الاشجار ، التهاب راحتيه ، وما شعر به فيهما من الالام ، وخوفه من التوقف لحظه ، ومن النظر الى أعلى ، أو الى اسفل وهبوطه وانصرافه ، ويجول بخاطره بعد ذلك مباشرة ما اذا كان لامسخ سيصطحبه ليصلى ، ونوع تلك القصص التى سيرويها له أبوه يوما ما .

وهكذا نجد فى هذه الخواطر والافكار التى تجول بخاطر الصبى المحاور الثلاثه التى يدور حولها وجوده وتتشكل من خلال التفاعل والتناقض والصراع بينهما شخصيته .

نجد أولا فعل التحدى وما صحبة من خوف والآم وانكار لهذا الخوف ولهذه الآلام تحت تأثير الاقران والأب يلعب الدور الحاسم فى

تزييف هوية الابن ومشاعرة .

ونجد ثانيا النقيض لهذا ، الأب الثانى ، كما سيذكر نمرود نفسه فيما بعد لامسخ " الربانى " الحكيم داعية الحب والسلام الذى ينجذب له نمرود وينكر عليه أبوه هذه المحبه ، ويحرضه على كراهية لامخ والانصراف عنه .

ونجد ثالث : التدين ودار العبادة والحفاظ على اللب اليهودى والوجود اليهودى من حيث هو وجود دينى وانتماء روحى ينجذب الابن اليه ، ولكن الأب ينفره منه ويصوره له على انه شئ يعرضة للمهانة ، كما كان الشأن بالنسبة للاب فى قريته الروسية .

وفى السطور الاخيرة نجد انقابلة بين رموز العنف والقوة ، السيف القديم والبندقية والنموذج المصغر للمدفع . رموز للعدوان القضيبى كما هو معروف فى التحليل النفسى .... والطريف ان الصبى لم يستشعر الرغبه فى ان يقول لاى من هذه الاشياء مساء الخير ، بعبارة أخرى لم تكن بعد حتى هذه اللحظة قد استدمجت داخل بناء الانا قيمه .

ولذلك فآخر سطور هذا الفصل تحدثنا عن هذه الليلة ، فهى ليلة من ليالى الربيع ولذلك فقد سمع اصوات الطيور وابتسم لها فى الظلام ، فهى رموز الانطلاق الطفولة وتلقائيتها بلا قيود ، بلا خوف ، بلا عدوان ولا عنف . أنها رموز لنمرود الطفل فى نقائه

الأصلي ، وزهور البرتقال بروائحها القوية قد ملأت حجرته الصغيرة واسلمته في النهاية للنوم ٠٠٠٠ هذين السطرين الاخيرين يعبران بصورة رمزية موحية عن قلب نمرود ، قلب الطفل يطلب صدر الأم وينام على ثديها ـ البرتقال ورائحته ـ فيجد الراحة والأمن ٠

الفصل الثانى

ينطوى الفصل الثانى على موقفين اساسين ، اولهما بين الأب — افرى — والأم — ماريام والثانى بين نمرود ولامنع ، بالاضافة الى مشهد قصير بين الابن واخيرا انفراد الابن بنفسه وذهابه الى النوم .

ويدور الموقف الاول بين الاب والام ، ويكشف الاب للام عن حبه لابنه وقلقه عليه ، وضرورة ان " يحولوه الى رجل " فالاب لا يحب ان يصبح أبنه مثله عندما كان فى قريته ، وتجيب الام قائلة أنه لا يزال صبى ، كما تجيب قائلة أنه لن يكون مثلما كان الاب فى قريته ، فهم الان فى وطنهم .

وهكذا نرى منذ البداية موقف الاب من أبنه ، فهو لا يقبله كما هو فى حقيقته أنه ليس بالنسبة له كيان موضوعى مستقل قائم بذاته ، أنه يقيم علاقته به من خلال عملية تعيين ذاتى اسقاطى ، إنه يرى فيه صورته طفلا يهوديا روسيا مضطهدا ذليلا ورعديدا ، أنه يحارب اشباح ماضيه من خلال أبنه ومن هنا غرابة مايستخدمه من كلمات " يجب أن نحوله الى رجل " أنه يتجاهل حقيقتين ، أولهما أن نمرود مجرد صبى ، وثانيهما أنهم ليسوا فى روسيا ، وأنما فى وطنهم كذلك نجد الاب يقول عن أبنه " يجب الا يعرف الخوف ، يجب أن يكون قويا صدوقا ، مكتفيا بذاته ... " ويتحدث الاب عن نفسه فيقول

" عندما كنت طفلا كان كل شيء يفزعني ، كنت اخاف المدرس والأطفال الروس ، ورجال الشرطه ، بل حتى كنت أخاف من والداى واخاف من الله ومن " الربــى " ومن نظره الغرباء ، بل وحتى من الطبيعــة .... أما نمرود فلن يخاف شيئا " وهكذا نجد انفسنا بازاء وحدة جدلية بكل ما يعنيه الجدل من عمق وثراء ، فالأب والابن وجهان لشيء واحد ، لنفس الخوف ، ظاهرا مثبتا لدى الأب ، وخفيا منفيا لدى الابـن .

ويختار الأب نموذجا يصنع على غراره شخصية الابن وهو " جدعون " الملقب " بالصخرة " والبطل الذى تصفه الأم بقولها " هذا الأحمق " وهكذا تمثل الأم استبطارا يفتقده الأب ، فهى ترى ان نمرود لازال صبيا وترى انهم فى " وطنهم " وليسوا فى قريته الروسية وترى أن " جدعون " احمق وليس بطلا ، وترى ايضا انه لايمكن محو الماضى والغاء التاريخ كما ترى كذلك انه الشجاعة " لاتحقن " الأم اذن تمثل الاستبصار الذى تفقده الأب تحت تاثير ماضيه المؤلم الذى يواجهه اذا جاز لنا أن نسمى ذلك الأسلوب مواجهة - بميكانزم الانكار الهروبى .

واذا كان لنا ان تسلم بصحة المثل الشعبى الدارج الذى يقول " ان ذاك الشبل من هذا الأسد " وان " فاقد الشيء لايعطيه " فاننا نتبين ان الأب " الرعديد " الذى ينكر امام استفسار ابنه فى الفصل الاول خوفه ، ترى انه عاجز عن ان يلعب دور الصورة " Imago " بالمعنى التحليلى - التى يتعين بها الابن تعينيا ذاتيا صادقا واصيلا .

والجدير بالذكر ان الأب ما ان يشير الى جدعون بوضعه مثلا يريد لابنه ان تحتذيه فتنعته الأم بالحمق حتى يسارع قائلا " أنه خير من ذلك العجوز الأحمق لامخ " رد الفعل هذا السريع والمباشر من جانب الأب يذكر لامخ فور تسفيه جدعون دون ان تذكر الأم اسمه ، يبين لنا الوحدة الجدلية بين جدعون ولامخ فجدعون فى نهاية الأمر نفى للامخ ، وهو مايتضح لنا من خلال احداث الرواية " جدعون هو الصورة الكاريكاتورية المشوهة للامخ ، انه العاقبة المأسوية لهذا الرفض كما سنرى فيما بعد .

وبعد هذا الحوار بين الأب والام يقوم الأب ويذهب الى حجرة الأبن النائم ليسوى ملاءة السرير ويعدل من وضع " السيف القديم الصدى " الذى يرمز بوضوح للصورة التى يرد الأب ان يكون الأبن عليها ، صورة صدئة وعقيمة .

وبعد هذا الموقف ينتقل الفصل مباشرة الى الموقف الثانى : بين نمرود ولامخ ، ويبدأ بسؤال يطرحه الصبى على لامخ اذ يقول " لماذا لايحبك ابى يالامخ " وتأتى اجابه لامخ بعد فترة صمت تفيض بالحكمة اذ يقول " ايها الصبى الصغير ، ان اناسا كثيرون لايحبون الاخرين لالانهم حقيقة لايحبونهم وانما لانهم " يعتقدون " لانهم لايجب أن يحبونهم " لقد كنت اعرف جدك وكان يحبنى وربما كان ذلك هو السبب فى ان اباك لايحبنى " وهكذا نكشف لنا حكمه لامخ عن استبصار آخر فى مقابل مايعيشة الأب من زيف واغتراب فالأب لايكره لامخ

حقيقة ، فقد كانت روابط المحبة تربط لامسخ بالجد واذا كان الأب لذلك يكره لامسخ او يعتقد انه يكره لامسخ ان الأمر بالمثل ينطبق على الجد الذى يعتقد الأب ان عليه ان يكرهه . ولما كان الأب هو الايما جو Imago التى على غرارها تتكون شخصية الابن ، فكراهية الأب للامسخ هى كراهية لابيه هو نفسه وفى مستوى اعمق كراهية للذات نفسها ، وانها كراهية انكاية دفاعيه تخفى حبا يهدد الاعتراف به الهوية " المصنوعة " والتى يمثلها " جدعون البطل المشوه .

ويدور حوار بين الصبى ولامسخ يسأل فيه الصبى لامخا " والان حدثنى عن الله " وكان الوقت عصرا وكان نمرود قد قرر الا يذهب الى مكان الاجتماع السرى ، ولم يخبر الصبى لامخا عن تسلقة للشجرة لان لامخا ما كان سيحب القصة ، وهكذا فلامخ لا يقبل فعل " الانكار " أى انكار الخوف وادعاء القوة ، كما أن الصبى يفضل مجالسته لامخا على الذهاب الى المكان السرى وعلى لعبة استعراض القوة ، ويفضل أن يعرف المزيد منه عن الله . ويبرز لامخ للصبى مفهوم الحب ، والخير والاختيار والعقاب والثواب ومخافة الله ... ويركز حديثه حول الحب ويسأل الصبى لامخا فيقول : " هل أنا طيب يالامخ ؟ هل استطيع ان اكون طيبا " . وكما يخرج نمرود مع والده ، يخرج مع لامخ ، مما يؤكد لنا أن لامخ كما يقول نمرود نفسه بعد ذلك " أب ثانى له " ولكنه أب خال من الزيف وأب ينشر الحب والتسامح والصدق فى مقابل الاب الفعلى بكل عقده وزيفه واغترابه وفقدانه للوعى . ويتجلى موقف لامخ بوصفه أب متسامح

فى ثلاث مواقف ، فى موقفه من الموتى والقبور ، وصلاته الخاشعة عندما يعبر ساحة القبور اذ يقول عنهم " علكم تنامون فى سلام ايها الموتى " وعندما يحدث نمرود وهو يفرد ذراعيه مشيرا الى الكون والوجود بأسرة فيقول " انت ترى .. هذه الاشياء جميعها ، مشيرا الى البحيرة والجبال هى من صنع الله وأنا احبها واحب الله معها ، وعندئذ ارقص واغنى له وهذا عمل طيب " .

وأهم من ذلك كله وقبله عندما يحدثه عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة وعقاب الله للاثمين . والذى يتمثل فى سقوط لا يدركه الساقطون ، وأنه انحدار الى مدارك سفلى من الاخلاق ، والسعادة واحترام الذات ، وينتهى هذا الانحدار الى سقوط لا يقدر الاثمون على الارتداد عنه .

ونجد فى هذا الفصل بداية الاغتراب عن الاب " الطبيب " لامخ ، عندما يسأل لامخ نمرود السؤال التقليدى : " انت تحبنى أليس كذلك ؟ " ويجيب الصبى بالايجاب وقد أدهشه هذا السؤال ، لعل هذه الدهشة تعبر عن بداية اغتراب الصبى نمرود عن مشاعرة الطيبة نحو هذه الصورة الوالديه الصادقة والاصلية ، فرغم أنه يجيب دائما بالايجاب على هذا السؤال الا أنه لم يعد واثقا تماما ما اذا كان حقا يحب لامخ ، وهكذا نجد بداية اغتراب الصبى عن مشاعره الخفة ، وهى هنا حبه الحقيقى للامخ .

وتعبر الرواية عن " انكماش " لامخ واعتزاله وتمهد لاقواله

فى اشارتين رمزيتين موحيتين ، أولهما أنه نادرا مانخرج الى العالم الخارجى ويشارك فى الحياة اليومية وثانيهما قوله للصبى " اننى فى هذه القبور الى منتصفى " (ص ١٩) " .

وينصرف الصبى عن لامخ وآخر مايسأله عنه فى هذا الفصل اللعبة التى سيقدمها له فى عيد ميلاده ، بعبارة أخرى يحرص الصبى على التعرف على صورته لدى الاب الطيب، أو على الصورة التى يريد له هذا الاب الطيب أن يكون عليها .

ينصرف الصبى تاركا لامخ بين القبور ، وهذا تعبير آخر عن انفصال شخصية الصبى عن شخصية لامخ حتى أنه عندما يصل الى منزله ويغتسل يشعر بالسرور عندما يغسل عن ذراعيه آثار يدى لامخ عندما أمسك به ورفعه مداعبا ، أنه تعبير عن رفض اسندماخ لامخ ، أو رفض تعيينه لنفسه تعيينا ذاتيا اسندماجيا بلامخ .

وعندما يسأل ايفرى ولده نمرود أين كان لايذكر له الحقيقة بل تقول أمه أنه كان يتمشى . وهكذا يكذب ، أى ينفى هذه العلاقة وتبدأ خطوة أخرى فى طريق الاغتراب والرفض .

وتنكشف لنا قرب نهاية هذا الفصل مرة اخرى صورة الاب ـ الحقيقى (ايفرى) العدوانية اذ يقول لابنه " غدا سننظف البندقية مرة أخرى ... أنه السبت ونستطيع ان نفعل ذلك عند الغروب هل تحب أن تساعدنى ؟ ويجيب الصبى بالايجاب .

وكان ايفري يريد أن ينفض عن والده رامزا له بالبندقية ، ما الحق به من نجار الحكمة والحب والسلام والايمان بالله عن طريق لامخ ·

وعندما يذهب نمرود للنوم لا يعرف ما اذا كان عليه ان يتوجه بتحية المساء الى السيف المعلق على الحائط أو الى نماذج عربات الجيب ، أو تلك اللعبة الجلدية التى وعده بها لامخ ، وهكذا فحتى هذه اللحظة نجد نمرودا عنما يخلو الى نفسه موزعا بين الصورة العدوانية للذات والصورة الطفلية التلقائية المحبة · ويتعذر عليه النوم ويلازمه الارق وهو يفكر فى تلك الاعماق التى ينحدر اليها ولا تستطيع الخروج منها اذا اخطأ الاختيار كما قاله لامخ · ويفكر ايضا فى تلك الشجرة المرتفعة التى تسلقها فى اليوم السابق وما انتابه من خوف خشية الا يستطيع النزول من فوقها ، كذلك يفكر فى البندقية التى سينظفونها غدا ···
وهكذا نجد الطفل نهبا للصراع بين جميع الاتجاهات العدوانية والمسالمة ، والتحدى واظهار القوة ، والخوف من الفشل فى ذلك ·

وعند يخلد للنوم يرى حلما يلعب فيه لامخ لعبتهم المفضلة " من القوى " ويتسلق الشجرة ويسقط وهكذا نجد تحولا كاملا من جانب الصبى فى حلمه أى فى لا شعورة عن صورة لامخ وادانة لها وسخرية منها · ان سقوط لامخ ، هو سقوط للجانب الذى يرمز له فى نفس نمرود جانب الحب والايمان والفضيلة والتسامح ·

الفصل الثالـــــــث

يدور هذا الفصل حول واقعة واحدة ، الرحلة الى الجبـل ، أعلى جبل فى اسرائيل ، حيث يذهب نمرود الصبى بصحبة أبيــــه والبطل الصخرة " جدعون " فى الفصل الاول قام نمــرود بتسلـــق أعلى أشجار بيت عون وهبوطها ، وفى هذا الفصل يتسلق أعلى جبال اسرائيل أنها رحلة اشبه بطقوس التدشين عنــد القبائل البدائيـــة بحيث ينتقل المراهق وقــد صمد لاقصى صنوف الاختبارات القـــوة وتحمل الالم من صفوف الصبيــة الى صفوف المقاتليــن •

فى الفصل الاول يحظى نمــرود باعتراف أقرانه به قويــا ، وفــى هذا الفصل يحظى باعتراف الكبار به قويــا باعتراف الاب بالاضافــــة الى اعتراف " الصخرة " جدعـــون •

وفى الحافلة ، فى الطريق الى قرية عربية على المنحدر الجنوبى من السفح تجلس بجوار نمرود أمراة قرويــة تحاول مجاذبته أطـــــراف الحديث فيتعالى عليها كاشفا عما سيصير اليه من صلف وكبريـــــا• ، المرأة تحمل فى سلة دجاجا وإوزة ، يرفض أن يذكر لها اسمه ولكنـــه يذكر لها المكان الذى يتجهون اليه فيقول بكبريـــا•• نحن ذاهبون الى الجبل هذا ، أعلى جبال اسرائيل ، وتجيب المرآة قائلة ولكنـــك صغـــير جدا وما كان يجب على والدك ان يدعك تتسلقه ، ولكنــــه يسارع فـيرد عليها قائلا ، ان ابى سيأخذنى معه فانا لست صغيرا ••

أنني قوى جدا وقد تسلقت أعلى شجرة فى بيت عون وفى بداية الصعود نتعرف على مشاعر نمرود نحو " جدعون " فهو لا يعتقد أنه يحبه ، لانه قد اعتاد اغاظته ، وهو لا يحب ذلك ، ويشرع جدعون فعلا فى اغاظته فيقول له " هل سيغمى عليك فى الطريق ؟ فلا يجيب الصبى متظاهرا بعدم السمع ، كذلك يمعن جدعون فى استفزازه للصبى فيقول : لو كان لى ابن فى مثل عمرك لا ختلف عنك ، انني اعتقد أن اباك شديد الليونة معك ،ماكل هذه الخصلات لماذا لا تقصر شعرك. ويجيب الصبى قائلا امى تحبه على هذه الصورة ، فيكون رد جدعون ، انت اذن ابن امك ، هل تحب ان تصعد الجبل جريا وهكذا نجد علاقة جدعون بنمرود فى بداية الرحلة علاقة تحدى وتعريض بقوة الصبى وقدرته وصلابته ، ويشرع جدعون فى صعود الجبل جريا ويعجز الصبى عن مجاراته فيسخر منه جدعون ، فعلا يسبق جدعون وايفرى الاب — نمرود الذى يلحق بهما وقد جلسا للراحة ، والطريف ان نجد تلك المقارنة بين جدعون عندما تظهر اسنانه البيضاء وهو يحيى الصبى ، ولامخ الذى لا أسنان له ، فها هو الصبى ينجح ويهنئه جدعون وتختفى مشاعر الغيرة التى احسها نمرود نحو جدعون لسبقه له ولتفوقه عليه . ولكن عندما يصل الفتى بعد ابيه وجدعون اللذين سبقاه وتركاه خلفهما ليلحق بهما — عندما يصل الى القمة يتغير الموقف ويتلقى من جدعون التهنئة الحارة بل ان جدعون يداعبه ويقول له عندما يسأله نمرود بعد نجاحه بلهجة تحدى " هل أغمى على يا جدعون " لا ايها الشاب

الصغير ... لقد نجحت ، أنك قوى كالصخرة ... خذ حـــذرك فسوف أغار منك" .. سيدأون فى تسميتك بالصخرة فى القرية" ويمد جدعون يده للصبى ليشد عليها فيما يشبه الاحتفالات الطقوسية .

وطوال الفصل تتفتح امامنـا شخصية جدعون الصخرة ، الا نموذج والمثل الاعلى لنمرود فى قوته البدنية فى غياب العواطف و فى تجرده من كل ما هو انسانى رقيق ، فهو مثلا يفكر على نمرود ابدائــه الاعجاب بالزهور مطالبا اياه يعجب بدلا من ذلك بالصخور والجبـل والقوة ، وبما انجزه من عمل عظـيم .

أما افرى فكان فخورا بولده وهو جالس الى جواره ، رجـــلا " عبرانيا قويا " وتتدافع فى رأس افرى ذكريات طفولة فى قريته الروسيـة فعندما كان فى مثل سنى نمرود كان ضعيفا وابيضا وطريا (صـ ٢٤) ولم يكن يستطيع تسلق الجبال كما كان يخاف من جسمه ومن الطبيعـة.. ان تكرار الاشارات الى بياض البشرة فى مقابل سمرتها كما سبق القول يعبر بصورة رمزيـة عن دور الشمس والعمل الشاق فى الحقول فى الخلاء فى تكوين الشخصية الاسرائيلية القوية والايجابية والسامية بسمرتهـا ، فى مقابل الارية ببياضها ، كنقيض للشخصية اليهودية فى شتاتها الاوربى وفى تفرقها فى المعازل " الجيتـو " وانغلاقها داخل جدران المنـازل والحوانيت والمكاتب ..... الخ ويبدو أن الاسراف فى تأكيد السمـرة والشمس ربمـا كان اعرابا رمزيـا عن الحاجة الى الاب القوى فعنــد يونج الشمس رمز ذكـرى أبوى ، والقمر رمز انثـوى أمى .

أن افرى رغم أنه لم يعد بالفعل فى روسيا الا أنه اسير تلك الفترة أنه ماديا فى اسرائيل وسيكولوجيا فى روسيا طفلا ضعيفا مهانا يتلقى السخرية والتحقير الدائمين ٠

وهكذا باكتمال رحلة التدشين تكاد تكتمل حلقات الحصار حول نمرود الصبى وتكاد تكتمل مسيرة الترييف والانفصال عن الاب الاخر الاب الطيب المتفاهم لامخ فقبل ان يستسلم نمرود للنوم يطوف بخياله صورة لامخ العجوز بلا اسنان وهو يرقص بين شواهد القبور ٠٠ ثم يغوص الصبى فى نوم عميق بلا أحلام ٠

الفصل الرابـــــع

تدور احداث هذا الفصل حول زيارة نمرود للمعبد بصحبـــة لامخ فقـد اتخذ الصبى هذا القرار بمبادرة من جانبه رغم تعريض ابيه بلامخ وبالمعبد وبدخوله فى فصل سابق ، وعندما يدخل الصبى علـى لامخ يدرك العجوز رغبة الصبى الملحة فى الذهاب الى المعبـــــد ، ويرى الصبى ان ذلك ربما يفسر له الفرق بين لامخ من جانب وأبيـــه وجدعون من جانب آخر فهذين هما طرفى المغناطيس اللذيـــــــن يجذبانـــــه .

ونتعرف فى هذا الفصل على تجربة نمرود داخل المعبـــــد ، فالساعتين اللتين قضاهما بداخله كانتا بالنسبة له شئ غير حقيقـى ، أو غـير واقعى Unreal لا يستطيع بحال أن تجد صلة بينهما وبيـن بيت عون وهكذا فالجانب الدينى اليهودى شئ منفصل عن الوجـــود الاسرائيلـى الصهيونى كما نتبين فورا . داخل المعبد عدد قليـــل من الرجال المسنين يتحركون بصورة ايقاعية أثناء صلاتهم وتتمتم شفاههم بكلمات غـيرمسموعـــة ، وعندما يمسك بكتاب الصلوات ليقرأ منه لا يفهـم بعض كلماته ... وهو لا يعرف بالضبط ما يجب عليه عمله ، وعنـدمـــا يدفعه رجل عجوز قائلا له " صلى أيها الصبى " تطفر الدموع فى عينـــه ويترك جسمه يتحرك جيئة وذهابا رغم أنه لا يريـد ذلك فعلا ... كمـا أن غطاء الرأس " المضحك يزيـد من ضيقـــه .

وهكذا فهذه المغامرة التى اندفع اليها الصبى كضرب من ضروب حب الاستطلاع غير مريحة تماما . اما لامخ فلم يكن يراه الصبى مثل بقية الاخرين ، كان مشرق الوجه ، لم تكن الابتسامة على شفتيه " وانما ثمة " نور داخلى " وكان " وجهه اقل تجاعيدا وكان راضيا مرتاحا " .

وهكذا فلامخ كان راضيا مرتاح البال ، أما نمرود فكان ممزقا ، يحاول أن يفهم معنى ما فى كتاب الصلوات من كلمات ، ويفكر فى نفس الوقت فى انه ربما كان افضل له أن يذهب الى البحيرة ، ويفكر ايضا فيما سيقوله والده اذا رآه هنا ... ويتخيل والده صغيرا وقد ارتدى حلة وأمسك بكتاب للصلوات يقرأ فيه بسرعة فى مكان به ثلوج (قريته فى روسيا بالطبع) والاطفال يسخرون منه كما يعرف أن أطفال بيت عون سيفعلون نفس الشىء .

وهكذا نجد أن نفس ما كان يتعرض له اليهودى فى روسيا فى الشتات من سخرية كممارسته لشعائره الدينية ، يتعرض له مرة أخرى فى اسرائيل ، بعبارة أخرى تكشف لنا الرواية هنا عن تناقض عميق ، فبالرغم من أن اسرائيل دولة "ديموقراطية" ومع ذلك فمن يتمسك فيها من أهلها " بيهوديته " يتعرض لنفس السخرية فكان الاسرائيلى هنا يعيش انشطارا من نوع فريد يتمسك

بيهوديته ، لانها اساس الدولة ، ويتنكر لها معينا نفسه تعيينا ذاتيا الانيارفى " الشتات " ولا يستطيع نمرود أن يفكر فى محتويات المعبد من كراسى ومقاعد ودواليب وكتب ... الخ بوضعها أدوات للتحدى كما هو الشأن مع عناصر الطبيعة فى لعبة (من الاقوى) حيث يحس كأن الاشجار والجبال والاحجار تصبح بدورها " أرنى أنك قوى " بل أن محتويات المعبد تبدو بالنسبة له صماء لا انتماء لها ولا معنى .

وهكذا يفقد الدين معانيه ودلالاته الرمزية ممثلا فى رموزه المادية داخل جدران المعبد . ومع ذلك فالصبى يفيد من هذه التجربة ، فهو يعرف أنه يستطيع أن يجب كما أراد له لامخ ، ويعلم أيضا انه يستطيع أن يكون قويا كذلك .

وما أن يخرج الصبى من المعبد بصحبة لامخ حتى يجد جدعون أمامه (رمز القوة والالحاد فى مقابل لامخ رمز الحب والايمان) ويصبح به غاضبا وموئنبا والطريف أنه يعتقد أن الصبى دخل المعبد ليسخر من العجائز . أو ليلعب لعبة جديدة ، أو يقوم بخدعة ما . وعندما

يقول له الصبى أنه دخل ليصلى يندهش لذلك و يغضب. و يقول أنه كان بوسع مكانه أن يفعل شيئا أكثر فائدة كان يطعم الحيوانات .. والطريف أن الصبى يصمد له فى تحدى اصرار و لا يذهب معه الى منزله كما طلب منه جدعون بل يقول له " أليس المعبد جزء من بيت عون " و يجيب جدعون بالايجاب و يضيف " لكنه جزء لا يخصك " و يذهب الصبى الى التل ، الى مكان الاجتماع السرى فيقابل فتاتين تجمعان الزهور و تعرضان عليه بعضا منها فيرفض ، و يحدثهما عن الموت حديثا يدفع احداهن الى البكاء ، كما يحدثهما عن ذهابه الى المعبد و تسلقه الشجرة و الجبل ، و يظهر لهما عضلاته فى كبرياء و مباهاة.

و يكاد يكون هذا الموقف هو المقابل لموقف الذهاب الى المعبد و بكائه ، و شعوره بالدونية أمام الكبار و الموت و الله. لذلك نراه يذكر لاحدى الفتاتين انها عندما تموت " سيأكلك الدود ثم تذهبين بعد ذلك الى الجحيم " لقد اراد اخافتهما حتى يسهل عليه بعد ذلك مقابلة أبيه.

و هكذا ينكشف لنا كيف كان الذهاب الى المعبد ينطوى على تحدى للاب ، و كيف واجه نمرود الخوف من هذا التحدى

بمحاولة دفاعية تنطوى على نقل الخوف من نفسه الى البنات فى شكل الخوف من الموت والجحيم ، وان كان من الممكن ايضا أن تنظر الى محاولة تخويف الفتاتين بالموت والديدان والجحيم بوصفه عملية نقل لخوفه هو أو بعبارة أدق عملية تعيين ذاتى واسقاطى ، فذهابه الى المعبد وعلاقته بلامخ تحرك فيه الخوف من عقاب الله للجاحدين بالموت والجحيم .

وربما كان لنا أن ننظر الى ذهابه الى ساحة المقابر ومكان الاجتماعات وتخويفه للفتيات ومباهاته بقوته وجسارته ورفضه لزهورهما ، هذا كله كحركة مقابلة لذهابه الى المعبد ، بمعنى محو آثار هذا الذهاب فهو يتصرف عن اللقاء بالله وطاعته الى لقاء بالعالم المادى ، عالم القوة والبأس والسطوة ويؤكد لنا ذلك ابرازه العضلات وتأكيداه — كذبا — أنه لم يشعر اطلاقا بالخوف لا وهو يتسلق الشجرة ولا وهو يسير فى الظلام .

وقبل أن يصل نمرود الى منزله يجول بذهنه الخواطر ، خواطر وجود عدم الشعور بالخوف .

ويدور الجزء الاخير من الفصل حول لقائه بوالديه وحواره

معهما ، مع أمه التى تستنكر عليه ذهابه الى المعبد قائلة له " أنه أمر غريب فقط ، أننا لم نذهب اليه على الاطلاق أننا لا نعتقد اننا فى حاجة الى الذهاب اليه ، وهكذا فجأة ومن بين جميع أطفال القرية ، يذهب أبننا الى المعبد وهكذا نجد حتى الام ترتاع لدخول ولدها الى المعبد . دون بقية أطفال القرية جميعهم . ترتاع لان الصبى يذكرها بجراح قديمة ظنت انها التأمت ، جراح المهانة والضعف اليهودى ويسارع الاب ليشرح لابنه ويقول له " منذ سنوات مضت كان من الضرورى لنا ان نخضع للتنظيمات وان نحافظ على ديننا . أما الان فلدينا بدلا منه الارض . أنك الان اسرائيلى ، أما أنا فكنت مجرد يهودى فقط " .. لقد وجدت اليها جديدا انه فى زهور البرتقال .. فى احساسك بالارض .. هذا هو الهك (الارض) . " اذا أردت ان تصلى فلتصلى للسماء لتأتى بالمطر الى أرضنا لا بالفضيلة الى نفوسنا " .. وفى النهاية يقول له جملته الحاسمة " لا تذهب الى لامنغ " " اذا شعرت بالملل فاذهب الى جدعون ليعلمك كيف تحلب البقر .

وهكذا يكشف الاب عن الوجه الصهيونى السافر ، الارض بدلا من الله .. والمطر بدلا من الفضيلة والوجه الاخر من الايديولوجية الصهيونية اللا ـ دينية من حيث هى ايديولوجية استيطانية توسعية لا ـ دينية .

و ونتعرف ايضا بتفصيل أكثر على جانب من شخصية الام ، فهى تتقبل مستسلمة قيم الاب و ايد يولوجيته و تنصرف الى دور ثانوى تضع فيه كل حبها ، الطعام فالاب يرى أن يتولى بمفرده تربية الابن ، دون تدخل من الام ، رغم أن الانتماء اليهودى يجيء عن طريق الام ، فاليهودى من كانت أمه و ليس أباه ، يهوديه ان عدم فهم مريام (الام) للايد يولوجية الصهيونية ، تعبير عن عدم انسجامها مع تكوينها الشخصى الانفعالى ، و تعبير ايضا عن مجافاة هذه الايد يولوجية للام و المرأة فيما يتعلق بمختلف ادوارها و دلالاتها الرمزية ..... ولعل مصير مريام النهائى تعبير عن هذا الرفض وعن هذه العزلة و عدم التواؤم .

وفى آخر هذا الفصل ينصرف نمرود الى السباحة الى التنافس مع عودى ، قائد الجماعة على أمل أن يتغلب عليه فى السباق .

الفصـــل الخامـــس

يدور هذا الفصل حول وقائع الاحتفال ببلوغ نمرود التاسعة من عمره ، وما يتلقاه من هدايا بهذه المناسبة ، وما يـــدور من حوار ومواجهـــة بين أبيـــه ولامـخ ٠

ونعرف منذ السطور الاولى فى هذا الفصل أن نمرودا كـــان مشغـــولا بأمرين ، هدية أبيه لـه ، وما اذا كان لامخ سيحضر واللعبـــة التى سيقدمها لـــه ٠

ويبدأ الاحتفال ، ويحضـــر ايضا لامخ وقد حمل معـــه بعض الحلـــوى للاطفال ، بالاضافة الى هديته لنمرود : الارنب الجلـــدى الذى صنعه له من قصاصـــات الجلـــد ٠ وتكشـــف الحلوى بما لها من دلالـــة رمزية عن عطاء الحب ، الذى يمثـــل لامـــخ تيـــاره الرئيسى والوحيـــد ، بالاضافة الى الام والزوجـــة مـــن بعـــــد ٠

وننتقل بعد ذلك الى لعبة نمرود : الارنب الجلـــــدى ، الذى يصنعه له لامخ بنفسه من قصاصات الجلد ، بمهارة وحـــب ولكن هذه الهدية بكل ما تفيض به الالات رمزية تدور حــــــول

الوداعة والطفولة والرقة واللاعدوانية ، تقابل من جانب الجيل الجديد جيل الاطفال بموجة عارقة من السخرية بنمرود وبلامخ ايضا ، فأحد الخبثاء من الصبية يشير الى نمرود قائلا " نمرود الارنب " ويقول البعض " لعبة للرضيع " ويقول آخر " عندما بلغت الثالثة أعطيت لعبة كهذه ، ... أنه يستطيع الان أن يقابل الصبية الاخرين بالارنب " وهكذا فالجيل الجديد من الصبية يكشف عن ميل عدواني ، وعن رفض مبكر وسابق لاوانه للطفولة وفى وداعتها وبراءتها وبعدها عن العنف والعدوان ، لقد تم تشوية هذا الجيل على يدى أبائهم ، وتعبر الرواية بنوع من الايحاء الرمزى البارع عن نقدان التواصل بين جيل الصبية وجيل العجائز ، فلامخ لا يسمع سخرية الاطفال من الارنب ، بل أنه يسوقن " باعجاب الاطفال باللعبة بل ويذهب الى حد الاعلان عن سرورو بحب نمرود والاطفال للهدية .

ولعلنا نلمس تناقضا لافتا للنظر فى سلوك الاطفال ، فهم يقبلون فى تهافت وتسابق على أخذ حلوى لامخ ، مطلقين العنان فى تلقائية لحاجاتهم الطفلية لرمز الحب — الحلوى — فكأنهم يقبلون على المستوى الحشوى طفولتهم ، ولكنهم على المستوى السلوكى ينكرونها على أن اعوزة الاطفال فى

السخرية من الارنب و من نمرود بالتالى تكشف لنا عن فاعلية عملية الكبت الدفاعي ، و ما يليها من تعيين ذاتى اسقاطى ، فهم يتعرفون على أنفسهم فى نمرود ، يتعرفون على الارنب فى داخل كل منهم لكنه يتعرفون عليه فى رفض و استنكار هازئ .

بل أن عودى قائد مجموعة الصبية و منافس نمرود ، والذى سيفوق عليه نمرود فيما بعد ، يهزأ به و يقول (ص ٣٥) نمرود لن يأكل بعد الان الا الجزر و سيقفز ، و لعله يفيض بالخوف مثل الارنب " . و هكذا يكشف عن ديناميات التنافس و الغيرة ، و يكشف عن البطولة و الشجاعة بوصفهما دفاع ضد الخوف ، لسنا اذن بازاء شجاعة أصيلة و حقيقية و انما نحن بازاء ما يمكن تسميته " مضاد الرهاب Counter_ phobic ، فالخوف و الرعدة باقية باقية ، و لكن كل ما هناك أن اداة النفى قد سبقتهما .

و مع ذلك فلا زلنا نلمس فى موقف نمرود قلب الطفل الصافى الذى لم يطمس بعد تماما ، فرغم هذه المظاهرة فهو يقول للامخ " انه أحسن أرنب لعبة صنع " .

و فى هذه اللحظة يظهر الاب ليجد والده " جدعون

المستقبل ، الذى تسلق الجبل وأحس بالفخر به وقد أمسك بين يديه بالارنب واللعبة وهو يقف بجوار هذا العجوز الابله •

هذه الصورة بقطبيها المتناقضين المتقابلين ستمثل جوهر شخصية الاب ـ الجيل ان " جدعون ـ لامخ " هما معا قطبى الوجود النفسى لجيل نمرود •

وتبدأ المواجهة بين لامخ فى ضعفه وانسحابه ـ من على مسرح الحياة النفسية الاسرائيلية ـ وافرى فى جلده ودابه المستمر على التزييف والتشويه ، فهو يقتحم وجود ولده مظهرا استنكاره ، لينتزع منه الارنب ـ الدمية ويلقى به فى حجرته مقلوبا رأسا على عقب •

ها هو الاب يقول لابنه آمرا " اذهب والعب مع الاولاد " بعبارة أخرى ، القى جانبا بلامخ وبكل ما يمثله لامخ واقذف بنفسك بين الاولاد عنيفا ومزيقا مثلهم •

وكما أقحم الاب نفسه على وجود ولده النفسى ، يتصدى بنفس العنف للامخ مبعدا اياه عن نمرود ، اذ يسأله " ماذا تريد من ابنى ؟ " ومعنى هذا السؤال هو ماذا يريد الجيل القديم

والتراث اليهودى الدينى من الجيل الجديد ، الجيل الاسرائيلى — الصهيونى اللادينى ورغم اعلان لامخ أنه يحب الصبى ، ولا يريد منه شيئا ، أنه يروى له القصص ويتركه يشاهده وهو يعمل ، الا أن الاب يعلن رفضه بل يذهب الى حد اعلانه أنه ، أى لامخ — لم يتغير ، وأن الهجرة لم تعنى بالنسبة له الكثير ، وانه لا يبالى بالارض بل وأن لون جلده لم تلوحه الشمس ، ويقول له " أنك يهودى جدا جدا " (ص ٣٥) وهكذا تتجسد لنا صورة لامخ ، اليهودى الحكيم كما يراها جيل الصهيانية — الاسرائيلية . اليهودى لا مكان له فى اسرائيل ، لقد ظل يهودى جدا جدا " ، لا يهتم بامتلاك الارض ولا يهتم بالعمل اليدوى الشاق فى الشمس حتى يسمر جلده .. الخ .

ونلاحظ خلال الحوار بين ايفرى ولا مخ ، أن افرى يتحدث من موقف القوة فهو الاب الشرعى ، صاحب السلطة على الابن — الجيل ، أما لامخ فهو وحيد مقطوع الصلة مقطوع الجذور وبلا استمرارية ، لامخ بلا ولد ، لامح عقيم ، عاجز عن الاستمرار وربما يتجلى لنا الان أكثر رمزية غياب الاسنان لديه ، غياب النياب والظفر ، غياب القوة الافتراسية الامتلاكية الحيوانية .

ومع ذلك فلامخ لا يكف عن مواجهة افرى وتحذيره، فهو يؤكد له انه لا يقل عنه حبا للارض والشمس والحرية ، ولكنه يحبهم بقلبه لا بعقله ، ويؤكد له أن تغيير الانسان لاسمه لا يغير شخصيته ، وانه لازال خائفا اليوم كما كان بالامس وهو يحمل اسمه القديم فى قريته الروسية.

ويكشف الاب عن هدفه " ولدى نمط جديد من البشر ص ٣٦ " ولكن لامخ يقول له " : ليس هناك نمط جديد من البشر. " انك كمن يأخذ قطعة من الجلد المرن وتظل تطرقها حتى تصبح فى مثل صلابة الحديد ، وعند ذلك سيكسرها أى شئ ، ماذا ستكسب ؟ أنك تفقد الجلد ولا تحصل على الحديد ص٣٦ " وهكذا يكشف لامخ بفطنة ووعى ثاقب عما يطرأ على الشخصية اليهودية من تشويه فى ظل الايدلوجية الصهيونية الاسرائيلية.

واذا كانت حجة الاب أنه يريد أن يصبح ابنه شجاعا شئ طيب ، لكن ما تعمله أنك تجعله غير خائف ، أنك تقتطع اجزاءا منه حتى أصبح يخاف الخوف نفسه ... ان الخوف الذى يسيطر عليه الان هو الخوف من الخوف ... أما المخاوف الاخرى ، السوية ، الصحية ، الانسانية ، فانها

تطـــرد ولا يعد لها وجـود " .. " لن يصبح ولـــدك شجاعا اذا بقيت على هذا الحـال انه سينعقد قدرتـــه على أن يخـاف .. وسيكرهـك يومـا ما من أجـل هذا .

ويستمـر الحوار بين الاب والعجـوز ، ويعلن العجـوز للاب أن سيأتـي يـوم يكرهـه فيه ابنه ، وقت يريد أن يكـون فيه طفـلا ولا يستطيـع ، ويريـد أن يتحمـل فيه الوحـــدة ولا يقـــدر عليها ولعـل أعظـم اقوال لامخ وأعمقهـــا حكمـة قولـه " أن الذى لايقـدر على الخو لا يقدر علـــى الحب ، ان الله يريد نـا ان نحـب " وسيأتى وقـــت يحتـاج فيـه ولدك للحـب ، ولانه بلا خوف فسيكون وحيـــدا وحـــدة قاسيـــة ، أكثـر وحـدة مـنى بل ومنك أنت ايضا . "

ويواصل لامخ الايضاح فيقـول لاقـرى أنك تحاول أن تتغير وبذا تصبـح غريبا على ذاتك ، وهكذا تصير وحيدا ، تحـاول تجنـب الناس الذين كانوا يعرفون ذاتك القديمة ولا تصبـــح واثقـا تمامـا من ذاتك الجديـدة ، ولهذا فانت تحــاول صب هذه الذات الجديدة فى ولدك نمـــرود . فانظـــــر الى أى حـد تذهب بك انانيتـــك ... الخ (٣٧)

وهكذا تكشف لنا هذه النصوص المختارة من الحوار بيـــن

لامسخ وافرى عن هذين النمطين من الشخصيات ، نمط لامسخ بصدقه وعمق استبصاره ونمط افرى باضطرابه العميق : الخوف من الخوف وما يؤدى اليه من انشطار الجانب الوجدانى من الشخصيه ، الجانب الذى يربط الشخص بالآخرين ان الخوف فى نهاية المطاف هو بمعنى ما مقياس الوجود الانسانى ، من حيث هو فى صميمه وجود فى حضرة الآخرين ، واذا كانت حاجة الحاجات الانسانية وينبوعها الاعمق هى الحاجة الى الآخر ، مانح الوجود والذاتية ، هذه الحاجة فى نهاية المطاف هى كما فطن اليها هيجل ، ومن بعده التحليل النفسى تتلخص فى " الحاجة الى الاعتراف بمشروعية الموجود ، وبالتالى بمشروعية كل مايلازم هذا الوجود من رغبات ، وهذه الرغبات تظل بما هى رغبات انسانية تقتضى الاخر وتفترض وجوده واعترافه ومن ثمة فالخوف عند الانسان لايمكن الا ان يكون انسانيا ، أى لايمكن ان ينفصل عن الوجود فى حضرة الآخرين وفى معيتهم ، والخوف اليهودى التاريخى هو خوف اليهودى فى " الشتات " وفى مواجهه " الاغيار " هو خوف " شعب الله المختار " فى مواجهة " الأميين" .

ان الفهم الوجودى العميق لمعنى الانفعال فى الحياة الانسانية هو الكفيل بتمكيننا من الفهم — العميق للمأزق اليهودى ، وبصفه خاصه المأزق الصهيونى — الاسرائيلى بوصفه مواجهة للمأزق اليهودى .

يذهب سارتر فى " نظرية فى الانفعالات " الى أن الانفعال يكشف

انا عن الموقف السحرى من الظاهرات ، بمعنى ان الانسان اذ ينفعل انما يحدث ، دون ان يفطن الى ذلك ، بنفسه من ضروب التغيير بما يسمح له أن يرى العالم بصورة مغايرة لما هو عليها بالفعل وقبل الانفعال ، فهو بدلا من أن يحدث فى العالم تغييرا فعليا ، يتركه — عجزا — على ما هو عليه ويعمد الى تغيير حالته الوجدانية بما يسمح له برؤيا جديدة ومغايرة للعالم فالغاضب مثلا يرى العالم من خلال غشيه غير جدير بالأخذ بمأخذ الجد ، يراه كذلك بدلا من ان يراه على حقيقته فيرى عجزة عن مواجهة .

وأيا كانت النظريات التى تفسر الانفعال فالذى لا شك فيه ان الانفعال هو المقابل الذاتى للعلاقه بالآخر ، لا انفعال دون موضوع للانفعال ، ومن ثم دون علاقة انسانية ، انفعال الخوف يعرب عن علاقة عجز او قصور بالموضوع عن علاقة دونية ، ويعتبر الخوف واستبعادة من الوعى يعنى فى نهاية المطاف استبعاد لجانب من الذات — العالم .

ولعل فى موقف لامسخ وفى حديثه مع افرى ما يوضح ذلك ، فمن لا يعرف الخوف لا يعرف الحب ، وان يكون الانسان بلا خوف ، يعنى ان يكون بالضرورة بلا حب ، ومن ثمة اخيرا وحيدا بلا آخر وبلا عالم حقيقى وهذا ما سنتجد عليه حال نمرود عبر فصول هذه الرواية .

يبقى بعد ذلك الموقف الاخير ، هدية افرى لولده نمرود : المديه

، او السكين العربيه الحقيقيــة القادرة على قطع اى شئ مهما كان صلبا ، بل حتى تمزيـق ارنب لامـخ .... هذه السكين ماكان يطمـــع نمرود وبقيه اقرانه ــ فى امتلاكها وثمه وصف مفصل لمبلغ ما تتمتع به هــذه السكين من حدة ولمعان ... الخ وهكذا يدعم الأب لدى ابنه الصــوره العدوانية ويفرضها فى مقابل الصورة المساله التى يمثلها لامـخ ... انه مثلا يحذر ولده من فقدان هذه السكين ويؤكـد له اهميتها وجدواهــا ، انه صار الآن فى التاسعة صبيــا كبيرا .

وعندما ينصرف نمرود الى النوم ياخذ معه سكينــه وقبل ان يخلــد للنوم يجول بخاطره انه يستطيع ان يقول للارنب مساء الخير ولكنه لايعــرف كيف يقول ذلك للسكيــن .

وهكذا نجد ان نمرود عبر هذه الفصول يمر باطوار من اعادة التشكيل والتكوين والقولبــه فى اتجـــاه الهوية الاسرائيلية ــ الصهيــونيـــة العدوانية وبعيدا عن الهوية اليهودية المساله والمؤمنه والقادرة علـــى الحب والتكفير والنـــدم .

الفصل السادس

فى هذا الفصل تقوم الحرب العالمية الثانية ، ويترك جدعون " اسرائيل " للمشاركة فيها ولكن افرى يبقى ،أما نمرود — الذى كان قد بلغ العاشرة — فلا يتأثر بذلك — مباشرة — ولا يفهم الكثير من الحديث الذى يدور بين اهل القرية حولها . ولكن ابوه يحدثه عنها فيقول له " انت تحب هذه البلاد بالتأكيد ؟ وانت تعرف أنه مهما حدث انك لن تتركها " وكان اطفال القرية يلعبون العاب الحرب ، وكان هو يتحدث الى أرنبه الساعات الطوال عندما يكون أبوه خارج المنزل .

وهكذا نجد نمرودا حتى هذه الفترة لازال على اتصال بما يرمز اليه الأرنب وعلى اتصال بما يرمز اليه صانعة : لامسخ ، لازال متقبلا لطفولته بعض الشيء ، لازال مقيما لعلاقة الحب بلا مسخ ، رغم كل ما يتصارع مع هذا الاتجاه من قوى العدوان ، التى ينميها الأب .

وفى هذه الفترة تبدأ صراعات نمرود الداخليه . تبدأ مشاكساته معهما ، وينتابه احساس غريب بان والديه يسيطران عليه ، ويتحكمان فيه ويوجهانه (ص ٣٩) . ولكنه لايستطيع أن يحدد بدقة مظاهر ذلك كله فيزداد اضطرابا .

اننا نلتقى فى هذا الفصل بتطورات فـــى شخصية نمرود ، تطـور يحمل ملامح عصابيه او على الاقـل فترة من الصراع العصابى ، تنتهى الى تحولات ذات طابع مرضى دفاعى فى شخصية الصبى ، فها هـو يتعارك مع والديـه ، وها هو يشعر بضغطهم عليه ، ويتجلى موقفهم غير المستقر او غير المتسـق فى علاقتهم فبه ثمه " مـزيـج من نقصـان الاهتمام به يستمر ساعات وايام ، يعقبـــة فجأة اهتمام (ص ٣٩) وكأنـــه كـرة مربوطـة بخيـط تتدحرج اسفل تـل ، يلتقـطونها ويجذبونهـا ، ثم يتركونها وهكـــذا .... " وهكذا يشرع فى معاناة المخاوف ، ويظن اول الامـــر انه ليس ابنهمـــا ، ثم يتحول الى يقـين بان امه لاتحبـه حقيقـه وتتزايـد غيرتـه من والده .

هذه المشاعر العصابية التى تدور حول شعور بالنبـذ ، والسيطـرة، وفقدان الحب وعـدم الانتماء ، ثم اخيرا الغيرة من ابيه ، امة لاتحبـــه ، وهو يغار من ابيه ماذا يكون ذلك الا مشاعـر أوديبـه واضحـة .

ويحاول الصبى ان يواجه ذلك " بالشقاوة " ولكن والده يرحب بذلـك ويرى فيه علامـــة على الاستقلال والنضـج معتقـدا ان فى ذلك خير له .

كذلك نجد ان الام تثير الحرب لديها مشاعر قلق ، ولكن الاب يمنعـها من ان تدع ولدها يفطـن الى مشاعرهـــا .

ويصاحب هذا كله تحولات اخرى في ظروف الصبى فلانه بلـغ العاشرة

فقد توقفت امه عن تقبيلـــه عند ذهابه الى النوم ، كما ان أبيه لم يعـد يروى له القصص قبل النوم ، وهكذا نجد حرمانه من طفولته وما يصاحبهـا من عطاء وحنان .

ولا يبقى امامه من مهرب الا لامـــخ ، لكن هذا بدورة كان مشغولا بالحرب ولذلك تغيرت قصصـــه ، كان يحدثه عن " الدولة " المستقلة وعن حرب محتملة مـــع العرب . ولما كان الصبى لا يعرف من العـــرب الا تلك المرأة البدوية العجوز " نايفـــه " التى تبيع لهم الخضروات والبطيخ فلم يكن يستطيع ان يجد سببا لمحاربتهم الها ، لذلـــك بقى هذا الامـــر عنده دون اجابــه .

وهكذا كانت الحرب عاملا فى الانفصال الوجدانى بينه وبين الآخـرين ، كما كانت قضية لا يستطيـع عقله أن يستوعبهـــا .

لكن انشغال الاخرين بالحرب كان على حساب رابطة الحب والتواصـل بينه وبينهم لذلك كانـــت محاولاته المختلفه لاستعادة الحب ، تظاهـر مرتين بالمرض ولكن والديه فطنا الى ذلك ، ولما لم تجـدى هــــذه المحاولات فكر فى السباحه فى مياه البحيرة الباردة ، كى يصاب بالـــبرد "بل وربما غـــرق ص ٤٠ " كان يتمنى لو أخذ الى المستشفى كى تبقـى امه بجواره طول الوقـــت ، وكى يقلق ابوه عليه ويشغل به بدلا من الانشغال بالحرب او المطـــر .... وكذا نجد مظاهر عديده للحاجة الى الحـــب حتى ليكاد يفكر فى وسائل مازوخـــته كى يحصل عليه ، بل ويذهب بـــه

خياله الى حد قريب من الانتحار ، وهكذا نجد بدلا من تحدى الموت ، بالسباحة فى مياة عميقـة ، نجد نقيضة السباحة طلبا للموت ، انـه العدوان المرتـد الى الذات بدلا " من الموضوع " لكن الفتى لا يحقق شيئا من هذا بالفعـل .... يدعى امام والدية كذبا انه كاد يغرق ولكنهم يشكان فى مزاعمـه .

ولا يجدى ذلك كله فى استعادة اهتمام والدية ، فيتحول الى وسائل اخرى لجذب الانتباه : الكـذب والتمرد ، واخيرا السرقة ، يسـرق جنيهاً ، وكما يقول يائيـل فى القصه (ص ٤١) لقد كان يسرق قصـص ما قبل النـوم ،التى كان الأب يرويها ، كما كان يسرق ايضا قبلات امـه قبل النوم . اننا بازاء شئ أشبه " بهوس السرقة "

واذا كان هوس السرقة اكثر انتشارا بين الأناث ، ومن ثم يرتبط بميـول انثوية ، فانه يشير الى ميول انثويـة لدى الصبى ، يعبر عنها جنـون السرقة ، كما يعبر عنها الادعاء الماروخى للمرض ، والتفكيـر فى الغـرق وتخويف والدية بخطـر وقوعـه .

ويتحول نمرود فى النهاية الى طريق القـوة ، ويقرر أن يتفوق علـى جدعون فطريق القـوة وانكار الخوف ـ وبالتالى انكار الحـب والحاجـه الى الآخـر ـ يدفع اليه الفتى دفعا ، دفعة والده ، ودفعته اليه ظـروف الحرب ، بما صحبها من انشغال الوالدان ،بل وحتى لامـخ ، بعـض الشئ ، عنـه .

لقـــد قـــرر أن يكون شجاعا ، بل أشجع الجميع ، و فـــى هذه اللحظة يكتمـــل خداعـــه لنفسه اذ يتصـــور أنه حقا لا يخا ف شيئا على الاطلاق ، بل انه يريـــد أن يخافه ولداه ، وان يخشيـــاه ، بـــل قـــد يتسلـــق الجبل الابيض على الجانب الاخر من البحيـــــــرة.

انه لم يعـــد فى حاجـــة الى والدته كما لم يعودا فى حاجـــة اليه ص ١٤١.

و هكذا كره فجـــأة الارنب الدميـــة حتى أنه طعنه بمديتـــه.

اننا هنا بازاء نقطة التحول الكامل ، التحول بلا رجعـــة عن طلـــب الحـــب و عن مناجاة أرنبه رمز لامـــخ و ممثلـــــه.

اننا بازاء ما يمكـــن اعتباره "عصاب شخصية Character Neuresis فيها هـــو درع من مضاد — الرهاب Counter- phobic يتكون لانكـــار واخفاء الحاجـــة الى الحب والـــى الاخريـــــــن.

لقد تكـــون هذا الدرع لحل للصـــراع السابق الذى يتجلى فـــى أشكال سلوكية متباينة ، تكـــون على مستوى البناء النفسى لنمـــرود ،

لذ لك يصبح من المنطقى أن ينتقل التحول بعد ذلك الى مجال العلاقات الخارجية و أن ينتقل نمرود بعد طعنه للارنب بمديـة الاب ، الى لامخ نفسه فيوجه له على أرض الواقع طعنة مماثلة.

و تعبر المؤلفة عن ذ لك بحدس عميق ، فأخر سطور الصفحة رقم (٤١) يقرر فيها نمرود لنفسه انه صار قويا " وسيريهم جميعا أنه صار قويا " و بعد ها مبا شرة (ص ٤٢) تقول فى السطر الاول : " صار لامخ شديد الحزن عندما رأى ما يفعله نمرود و عرف أن افرى قد نجح فى سعاه ، و عرف أن الصبى يفقد خوفه .. " و يكون اللقاء بينهما لقاء فاصل بين مرحلتين ، مرحلة قوامها الحب. و مرحلة ينكسر فيها الانفصال ، أنه لقاء عاصف يكاد يبلغ نمرود لامخافيه بقطع العلاقات الدبلوماسية. يبادر لامخ نمرودا بقوله : لقد تغيرت أيها الصغير " فيجيب الصبى " أنا لم أعد صغيرا انتى أحلب الابقار " و يعاتبه لامخ و يطلب منه أن يذهب معه لينظر الى قصاصات الجلد التى ترمز الى لامخ و الى عمله فى تواضعه وفى وداعته ، وفى بعده عن العدوان و التدامير — و لذ لك يقول له بالحرف " دعنا نرى كيف تبدو قصاصات الجلد اليوم " تلك الاشتات التى يضمها لامخ الى بعض لتكون خلقا جديدا ، بعبارة

أخرى تكاد تعرب عبارة لامخ عن دعوة الى الجمع والتأليف والتوحيد ، أنها اشبه بدعوة الى مشاركة فى لعب علاجى بالمعنى التحليلى النفسى لدى ميلانى كلاين على وجه الدقة لذلك نرى نمرودا فى عدوانه التدميرى وانكاره لدعوى التأليف الليبيدى يسارع بالرد قائلا " لا تبدو كشئ على الاطلاق . اننى استطيع ان اقطع أشد قصاصات الجلد صلابة بسكينى . بل اننى استطيع حتى أن اقطع الارنب بسكينى فهو ينكر الجانب البنائى الانشائى الليبيدى ، ويبرز الجانب العدوانى التمزيقى ، ويوجهه الى لامخ ذاته من خلال رمزة — الارنب ولكن علينا ان نتبين فى نفس الوقت صحة القول القائل " ان تقتل فانما نفسك تقتل " فالارنب بعض من نفس نمرود ذاته كما انه لامخ كذلك ، فهو اذن يطعن فى شخص الارنب لامخا الاب الطيب المحب صاحب القصص المحببة الى نفسه ، كما يطعن ذلك الجانب ذاته ، ذلك الجانب المشحون بالطاقات الليبيدية وبقوى الحياة ، مما يوءذن ببداية الغربة والاغتراب ، فها هو لامخ يفقد نمرودا ، وها هو نمرود يلفظ لامخا ولما كان كل منهما بالنسبة للاخر ، بعضا من الذات وآخرا فى نفس الوقت ، يدعما بعضهما البعض ويحققا من خلال هذه العلاقة ضربا من الاستمرارية والاستقرار ، فلامخ من حيث هو ممثل

للا ستمرارية اليهودية فى صورتها الانسانية المشحونة لميديا يرى هذه الاستمرارية و هذا البقاء فى نمرود الصبى و المستقبل و الجيل الجديد فهو بلا ولد و نمرود ولده ، و هو مستقر حتى منتصفه فى القبر كما قال فيما سبق و نمرود يمثل تجدده.

أما نمرود فبرفضه للامخ و للارنب و باعلائه من مكانه السكين — رمز الاب — الفأ رفى اهتلب أسد — فقد حرمه من طاقاته الليبيدية الامر الذى جعله فى مواجهة طاقاتها لعدوانية التدميرية وقد خلت لها الساحة لتتفجر كالبراكين مدمرة مهددة و ليتحول العالم بالنسبة له لا الى موضوعات ليبيدية — موضوعات للحب و العطاء و البناء — و انما ليتحول الى مصادر للخطر و المنافسة و لا يصبح أمامه من مفر الا النصر الدائم يقى به نفسه من شبح هزيمة ساحقة تطارده كامنة فى أعماقه لقد انفردت به غرائز الموت. بعد أن تنكر لقوى الحياة.

و يفهم لامخ مباشرة مشاعر العداء و الرفض و التدمير لدى نمرود عندما يفاخر بقدرته على تمزيق الارنب بسكينة ، فيهتاج أوقل يختلط و يتفاقم شعوره بالتوتر و يقول له :
" لم تعد تحب الارنب اذن " و تكون اجابة الصبى أكثر وضوحا
" أنا لست رضيعا ، هل تريد ان أعيده اليك ، أنك تستطيع

أن تعطيه لبنت رضيعة " أنه باستخدام كلمة رضيع" يكشف بالنفي عما يرفضه من ذاته ، يرفض الرضيع في اعماقه ، فلقد كان الارنب الى عهد قريب أنيسه في وحدته ، يخلو اليه في فراشه ساعات وبالتالي يرفض حاجته الى الام المرضع والى مثيلاتها — بصرف النظر عن الجنس حيث هم مصدر للامن والحب والعطاء . بل أنه يذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يعرض على لامخ أن يرد اليه الارنب ، بل ويقترح عليه أن يعطية لبنت " رضيعة babe ص ٤٢ " وهكذا يعين ذاته ، أو ذلك الجزء المرفوض بذ تها باجتماع " الرضاعة مع الانوثة فهو اذن في جزء من اعماقه رضيع وفتاه ، لم يعد يحتقر بقاءه مع جدعون الجديد ، شمشون اسرائيل المصرى .

وينصرف نمرود وقد رفض نداء لامخ الاخير عندما سأله عن موعد حضوره في المرة القادمة ، اذ يقول له " لا أعرف ، سلاما .

وهكذا يحدث أنفصال نمرود عن لامخ على المستوى الاجتماعي — السلوكي ويحدث اغتراب نمرود عن الجانب اليهودى من ذاته على المستوى السيكولوجي .

وماحدث للامخ لا يقل خطرا عما حدث لنمرود ، فقد فقد هو الاخر امتداده واستمراريته وصار عليه أن يواجه عزلته وعقمه ، كان أول ما فعله أن خلع مريلته " حتى يحسن التكفير ، بعبارة أخرى تجرد من هويته كيهودي تقليدي كصاحب حانوت وحرفة يدوية ليقف من وجوده بأسرة موقفا محايدا بحض الوقت ، واستعان بزاد - سيكولوجى - يواجه به عزلته ومحنته ، وكان زاده الشاي مع كثير من السكر ، الزاد القمى والسكر من حيث هو حلوى رمز للحب ، وهكذا فلامخ وقد فقد حسب نمرود له يلتمس الامان في أشكال مادية بحثه من الطمأنينة .

ويسائل لامخ نفسه ، لماذا فعل نمرود ذلك ؟ ويكشف لامخ في حوار داخلي عن عدم ثقته " باليهودي الجديد " (ص٤٢) يعرف أن من المفروض أن يكون هذا الطراز " اليهودي الجديد " محبا للارض والبحيرات والجبال ، وأن يكون جبرا جسورا ، لا يهرم ولا يشيخ - أي أن يقاوم الفناء ولكن نمرود أفزعه ، لقد تغيرت نظراته ، أي تغيرت رؤيته للعالم وللاخرين ، بعبارة أخرى تغيرت هويته بأسرها ويقول " تنظر الى عينيه وكأنك تنظر الى آبار خاوية ، حيث لا تستطيع ان ترى صورة نفسك حيث الظلام

واللامعنى " الا يذكرنا ذلك بأسطورة نرجس حيث رأى صورته منعكسة على صفحة الماء . لكن عينى نمرود صارت آبار جافة لا ماء فيها . جفت ينابيع طاقاته الليبيدية فلم يعد الاخر يرى قبولا واعترافا ومحبة . صار الاخر ظلاما ولا معنى . لقد بعدت الشقة بين أطراف هذا الثالوث . لامخ الاب الروحى والاستمرار التاريخى وافرى الاب الصهيونى الاسرائيلى الفعلى . ونمرود ذلك الجماح المؤلف والموحد بين النقيضين فى بقاء واستمرارية . لذلك كان فزع لامخ عظيما .

وفى السطور الاخيرة يعمق وعينا بمأساة لامخ فى حلمه وقد أسلمه اجهاده الشديد الى سبات قصير . فيرى نمرود يمزق الارنب اربا . ويحطم به الزهور . ويصرخ ويبكى محاولا رأب ما أفسد ولكن الزهور " تموت " ... ولامخ يضحك هازئا ساخرا . وعندما يكف عن الضحك ويتقدم من الصبى ليساعده . يدفعه الصبى عنه . بعيدا . بعيدا ... وهكذا يكشف حلم لامخ عن فطنة لاشعورية تنطوى على حدس عميق بالموقف الصهيونى الاسرائيلى من حيث هو رفض وانفصال عن الجوانب الايجابية والليبيدية من التراث اليهودى . ومع ذلك عندما ينظر

لامــــح فى المــرآة يجـد أن عينيــــه لم تصبحـا بعـد مثـل ابـــار خاويــة ، بعبارة يجــــد فى نفســــه القــــدرة على الحـب والعطــــاء .

" الفصل السابع "

أنتهت الحرب ولم يعد جدعون وذهبت الاشاعات الى أنه قد جرح وانه سيوضع في مستشفى بيافا ، كما أرسل نمرود الى حيفا لزيارة أحدى عماته .

وفي هذه الفترة كان أغرى قليل الكلام مع ولده ، اذ كان يعتبرها فترة " صعبة " في حياة الصبي ، ولكنه قال له " تذكر وانت في المدينة أنك صبي من بيت عون ، ونحن نريد أن نفخر بك ، ان اطفال المدينة أكثر تدليلا لم يألفوا العمل ، لا تتعلم منهم ، بل علمهم أنت "

وهكذا ذهب نمرود الى حيفا ، ليكون قائدا بين الاطفال يبهرهم ويخضعهم لارادته فكون مجموعة صار قائدها وعلمهم اللعبة المفضلة بين أطفال قريته : من الاقوى " وصار يروى لهم القصص ، قصص والده ، لا قصص لامخ ، وحدثهم عن تسلق الجبال ويعين نفسه " يهودى " قائد مجموعة القرية ويتخذ سمت العظماء وهو يؤكد على سرية المجموعة والعابها وقسمها ، وهكذا نجد تفصيلا "

"Acting- out" لما يمكن ان نعتبره تعبيرا عن ضرب من ضروب التعاظم " grandiosity " و يخطر على باله وهو يقود مجموعته الجديدة ابيه الذى لم يكن يجد فى نفسه رغبة أو حماسا فى الحديث اليه (ص٤٦) مما ينم عن مشاعر عداء خفية حياله.

وتبدأ لعبة من القوى " وتتنقل من قرية بين عيون — رمز اسرائيل و جيل الصابرا والايديولوجية الصهيونية الاسرائيلية فى صورتها التوسعية الاستيطانية اللادينية — الى المدينة الكبيرة — بما ترمز اليه : كل اليهود ، وفى العالم الاوسع الارحب — حيفا و يلتف الصبية فى وجل واكبار حول نمرود فتى بيت عون ، و يختار كبش فداء ، أبراهام أو آفى " Avi " الثرى المدلل مهددا اياه بالطرد من الجماعة " اذا لم يختر لعبة صعبة " و يختار الصبى عملا انتحاريا و يقول " سأعبر الطريق الرئيسى قبيل وصول احدى السيارات مباشرة" و " يوافق نمرود معتبرا ذلك عملا جديرا ، و يتجه و جماعته الى الطريق الرئيسى ولم يكن نمرود يخشى الالات اذ لم يكن يعرف أيا منها (ص٤٧) ولعل هذه الفقرة تعرب بصورة رمزية عن علاقة القرية بالمدينة وعلاقة الايديولوجية الصهيونية فى انغلاقها بالعالم

الاوسع ، الارحب . و يسرف نمرود في تحريض الصبي المتردد ، وينصرف بعض الاطفال غير راضين ، و يصمت الباقون يتزرعون الرصيف وينذهب نمرود بمفرده ، بصحوبا بصحبته الى الطريق العام . وينصاع آفي خائفا مستسلما ، وتكون الواقعة ، تدهمه سيارة و يقع جريحا وتنتزف ساقة و يمشي نمرود قائلا " أنها لعبته ، لم أكن أريد القيام بها " ترى أتعرب هذه الجملة و هذا الموقف كله بصورة رمزية عما تحمله الايديولوجية الصهيونية المتخلفة من خطر لجموع اليهود ؟

ولا يبالي نمرود كثيرا ، يثيره منظر الدماء ، لكن هذه اللعبة . لقد ضايقه وشاية آفي وانشائه لسر اللعبة ، و ينصرف نمرود عن اسكان ، وتقول المؤلفة ، لقد كان من الصعب أن نقول ما اذا كانت لا مبالاة نمرود ترجع الى فزعه البالغ و شعوره بالاثم ، ام انها ترجع الى غيابهما الكامل .

و هكذا ينقل نمرود خطر الموت من بيت عون الى المدينة و هكذا يكون أول أعماله فيها تعريض صبيتها لخطر الموت . وتفصل المؤلفة في صفحات هذا الفصل في وصف مشاعر نمرود ، التي تكشف عما طرأ على بنائه النفسي من تحول تراجيدي ، لقد كاد ينجح في اعتقال الخوف خلف جدار

سبك من الجسارة واللا ـ انفصال. وأخطر ما فى الامر قول المؤلفة "لم يخطر على باله أن الاطفال لا يريدون الاستمرار فى لعب هذه اللعبة".

وهكذا تبين انفصال نمرود بكل ما يرمز له من ايديولوجية عما يحيط به ، عن المدينة.

وفى المساء يأتى الاباء الى عمته للشكوى ، ويجلس نمرود متماليا متباعدا ، ليتناول عشاءه منصتا فى "جبور" Jay للاصوات التى تتهمه. وتتوالى اتهامات الاباء يقول البعض " ما أعظم هذا ، يالها من لعبة .. جيلنا الجديد من الزارعين .. هذا ما يعلمونه لابنائهم " ويقولون أيضا "كان من الممكن لن يقتل آفى .. يدفعه هكذا !".

تتوالى الاتهامات والرفض والانكار ، من بين هذه الاتهامات أنه يحمل " سكينا " وعندما يسأل الحضور اين الصبى ؟ يبرز لهم نمرود جسارة وصلف وكبرياء ويقول " ها أنا ذا ، ليست هذه غلطة منى .. انها لعبة نلعبها كل وقت ، لقد كسرت ساقه وماذا فى هذا ؟ لقد كسرت ساقى فيها مضى ، وانه لشئ طريف أن يكون

للمــرء جبيــرة من البلاســتر ، انك تستطيع ان تكتــب عليها اشياء " وهكذا يكون رد نمرود ابن العاشرة ، جــاء متكبــرا بالــغ الاعتــداد بالنفس والتعالى على الاخريــن "تعاظــم grendisoity بكل ما يعينــه المصطلــح من معــنى ٠

وأطــرف ما هــذا الحــوار تساؤل نمرود الملىء بالتهكم الذى يوجهــه الى الحاضرين بخصــوص آفــى : انه لم يمــت ، هــل مات ؟" وهنا تبلغ عصبــة الحاضرات من النسوة قمتهــا وينعتونــه بانه " وحــش صغير " وتتــخيل كل واحــدة منهــن نمــرود وهو يدفــع ولدها الى كارثة (ص٨٤) هــذا اذن موقف نساء اسرائيل من مخاطر الصلف والعنف والصهيونــى ٠٠٠ ولعلنا نجــد متسعا من الوقت فى هذه الدراسة أو فــى دراسات تالية لتنــاول مفصــل لمكانة المرأة فى البنــــاء السيكولوجــى للشخصيــة الاسرائيليــة ٠

وهكذا يقــرر نمرود ان يعود الى بلدته (أوكما فــى النــص Home ، الوطــن) ٠

وتعيننــا بعض تعليقــات الحاضرات من النسوة علــى

نمـــروف وفعلتـه فهـن يقلـن ما أغـرب هذا الشيء الصغيـر (ص٤٩) لا شيء طفلـى في هذا انه جـاد للغاية وقاســــى وتضيـف أمراة أخـرى " أراهن ان أمه لم تقبله اطلاقا قبـــل ذهابـــه الى نومـــه ".

وهكذا نجـد استبصـارا لدى هؤلاء النسوة الحضريـــات بنوع العلاقــة الطفليــة بين الام والطفل التي يمكن أن يــــؤدى وجودها الى مثـل هذا النمـط من الشخصية ، وهذا ما حدث بالفعـل قــد أقحـم الاب نفسه بين الام والابن ، عندما قـــرر واستسلمت لذلك الام — أن يتولى هو تربية الطفل ، حــــرم نمـروف من أمومــة الام ، كما حرمت مريام من بنوة الابن وكان هـذا الانفصال السابق لاوانـه هو المعوق الذى حال بين تكويـــن ما يسميه اريكســون Basic security الثقـــــة الاساسية " ولـم يعـد أمام الطفـل تعويضا عن نقصان هــــذه الثقــة الاساسية الا الاستسلام لمثـل هذه الاساليب الدفاعيـــة التي تقـوم على الانكـار والمبالغـة في اظهار النقيــــض ، وهكذا أدركت النسـوة ما صـار اليه حال نمـروف عندمـــا نعتتـــه " بالوحـش الصغيـــر " .

ومع ذلك فقد تدفـت الدموع من عيني الصبى عند سماعـــة الجملة الاخيرة ، اليس ذلك ضرب من ضروب الحزن والحـــداد

الى فقدها ان قبلات الام .

وكما تجلى حرمان نمرود في المدينة من حنان الام وحبها وما أدى اليه هذا الحرمان من سلوك كاد يؤدي الى موت طفل ، تجلى حرمان الام في قرب وحيدها من اسباب دموعها وفي مداعبتها لرمزة — الارنب .

كذلك لاحظ الاب أن ولده لم يعد في الفترة الاخيرة يتحدث كثيرا ، ولم يعد يضحك ولم يعد يمرح ، بل كان مطيعا ميالا للانسحاب ، ومع ذلك ابعد كل هذا عن ذهنه وهكذا يتجلى لنا المرة تلو المرة فقدان الاب للاستبصار بما صار اليه حال ولده .

وعندما روى الصبي للاسخ القصة أبدى العجوز حزنا شديدا ، لقد أحس أنه هو الاخر قد أخفق ، ان ذلك فشله الشخصي ، بعبارة اخرى لقد رأى هزيمته في امتداده : نمرود . مع ذلك تمنى لو يأخذ الصبي بعيدا ، الى أناس يعتقدون في الرقة والحنان ، ولا يعتقدون في الشجاعة والغلظة . وتمتد خواطر لامخ الحزينة أشبه بحلم يقظة يطلق فيه العنان لاحلامه التي تستهدف انقاذ الصبي من براثن الغلظة والعدوانية . ويجول

بخاطره أن يلعبا سويا مثل طفلين (ص٥٠) وهكذا يتبين لامخ مخاطر اغتصاب طفولة نمرود، وبمعنى أوسع أغتصاب طفولة جيل بأسره. جيل يربى أولاده ليكونوا صيادين شجعان، يحملون حرابا وسهاما حقيقية بدلا من أن يحملوا اللعب والدمى والارانب.

ويشرع لامخ بحدس نافذ في محاولة اشبه بالعلاج مع الطفل، فيقول له "أنت ولد طيب، مثل آفي Avi وعلى أية حال انت لا تحب المدينة، سأروى لك حكاية" ويحب نمرود أن يسمع حكاية لامخ ويبتسم (للمرة الاولى منذ فترة طويلة) ويحس بحب بالغ، وبالضعف والضياع ويقترب أكثر من لامخ ويجلس على الارض ويضع رأسة على حجره ويقول "نعم قص على حكاية" وهكذا يتكشف لفترة وجيزة عند نمرود شئ عيق دفين، لم يمت بعد، وانما أصبح في حالة أشبه بالبيات الشتوى، عن طفل مقبل على الحياة كما ينبغي أن يقبل عليها طفل سوى سعيد ومحبوب. ويحدثه لامخ عن قصة الاميرة والاقزام السبعة، وعن منازل مصنوعة من الشطائر، وعن القمر والسحاب وعن ضوء الشمس.. الخ ويأخذ التعب والوهن من الصبى، كما يجب لطفل دفع طفلا عبر الشارع

تحت سيارة عابرة (ص٥٠) كما تقول المؤلفة ، بعبارة أخرى ينجح لامخ بحدسه العميق كما ينجح بمعالج نفسى محترف فى رفع دفاعات الصبى ومقاوماته — لبعض الوقت فيفرج عما يداخله فى صورة هذا التعب البالغ ، هذا التعب الذى يصل الى حد يحتاج معه الى معاونة لامخ ليقف على قدميه ويرسله الى منزله .

ترى أهى مصادفة أن يحدث هذا الذى حدث عندما يخرج نمرود بعيدا عن قريته ، بعيدا عن حب الام وعن رعاية لامخ ، وهل مصادفة ان تكون أول أفعال نمرود وهو منفرد بالاخرين أشبه بشروع فى قتل ، وهل مصادفة ان يحدث هذا ويكاد يصبح نمرود جدعون الجديد بعد ما صار جدعون جريحا عاجزا .

ثم ما مغزى ان يشارك نمرود فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل وان يخرج منها جريحا محطما ، هل يرمز دمار جدعون البدنى والنفسى ايضا الى دمار مماثل يلحق بصورته المقبلة — نمرود وهل تعرب مشاركته هذه العبثية عن عبثية ما يعتنقه من فكر (النزعة الصهيونية — العدوانية التوسعية) وعما يمكن أن يؤدى اليه هذا الفكر من دخول فى صراع القوى الكبرى ، ودمار بين شقى هذا الصراع كل هذه الاحتمالات واردة نترك بقية فصول الرواية للفصل فيها .

الفصـــل الثامـــن

يبـدأ هذا الفصل وقـد بلغ نمـرود الثالثة عشرة من عمره ، كما نعـرف من سطـوره الاولى أن جدعون قد أعيد " الى القرية" و نعـرف في آخـر سطـوره أن لامـخ قـد مـات.

ومن أهم أحداث هذا الفصل انشغال نمرود بجسمه ، ببلوغه وبقوته وبعضلاته ولقد اكتمـلت معالم صباه وقوته وكادت تختفي خصلات شعـره وصار الاطفال يسمونه " الصخـرة الصغيرة " " أو" الصخـرى Rocky ، ولقد كان هذا العام فـى مجمله عامـا سيئـا فيما يتعلق بالقرية والمحاصيل الزراعية ، ويتعـرف على وجـهة نظـر لامخ في هذا الامر فهو يرى أن أهل القرية لا يصلـون ، ولذلك لن يسقـط المطر ، و تشتـد حـرارة الشمس وقيظها فتجـف البذور والابـار ، ويتحـول الاخضر الى أصفـر ثم يتحـول الاصفر الى رمادى ثـم الى لاشـى.

ورغـم مايحـدث خارجيا في القرية ، فان ما يحدث (داخليا) في نفس نمرود يخالف ذلك تماما فقد اكتمل نضجه الجنسى و شغـل

بكل ما يصاحب ذلك من مشاكل ومخاوف وقلق ، وتشير المؤلفة بعبارة مغطاة الى بدايات انشغال جنسي والى ممارسة الصبي للاستمناء ، ليلا في الخفاء وقد ركبه الخوف .

والطريف اننا نجد تقابلا بين اكتمال النضج الجسمي عند نمرود وتفجير طاقاته والانحدار " الجسمي " عند مثله الاعلى وأنموذجه : " جدعون " فعندما يسمح له ذات يوم بزيارة " جدعون " أو كما تقول المؤلفة " ما تبقى منه " (ص٥٢) فذلك الذي تبقى لم يكن غير يد واحدة وساق واحدة ورأس ملفوف بالضمادات : ورغم مرور ما يزيد على عام منذ وقوع الحادثة ، فلا زالت رائحة الادوية والصمت باقيين .

ما الذي يرمز اليه هذا الدمار الذي لحق بالانموذج الاسرائيلي ، بالصخرة ؟ أن ابسط ما يرمز اليه بالمعنى التحليلي المباشر : الخصاء ، فقد جدعون ساقا وذراعا ، بل أنه خصاء مزدوج ، لقد كان جدعون مجرد كيان جسدي خالص وقد تداعى هذا الكيان ، نسف نسفا بفصل لغم ، نسف لانه كان بلا عقل ، بلا قلب وبلا خوف .

ان اعمق ما في هذا الفصل هو ذلك اللقاء بين نمرود و جدعون ، اللقاء الثاني بينهما و ما ابعد الفارق بينه وبين اللقاء الاول عند تسلق الجبل ، ففي اللقاء الاول كان جدعون يمثل كمال القوة و صفائها ووعيها ، وكان نمرود يمثل بداية تفتحها و نضالها لمغالبة مخاوف الطفولة و الانوثة والتعلق الطفلي بالام أما في اللقاء الثاني فيكاد العكس يكون هو الصحيح ، فنمرود صخرة صغيرة و جدعون بقايا حطام و اذا كان جدعون يمثل بوجه من الوجوه صورة لما يمكن أن يكونه نمرود في المستقبل ، فاننا اذن بازاء تعبير رمزي عن مستقبل نمرود ذاته ، فنمرود في هذا الفصل ، في اقترابه من كماله يحمل في ثناياه ارهاصا بما سيكون عليه ، في اعماقه " جدعون " آخر ، و اذا كان جدعون الاول قد اصابه الدمار الجسدي ، فان جدعون الثاني صائر الى دمار نفسي و روحي لامحال .

و يكشف لنا جدعون — من حيث هو صورة — مرآوية مستقبلية لنمرود ذاته ، يكشف لنا من خلال استجابه نمرود له عن جوانب مما صارت اليه شخصية نمرود ، جدعون قد مزق اللغم بعضا من جسده ، و نمرود قد مزق الواقع الاسرائيلي الصهيوني بعضا من كيانه الانفعالي و الوجداني .

أفقد ، هذا الواقع خوفه ، الذى هو فى نهاية المطاف خوف من فقدان حب الاخرين له ، خوف فقدان حرصهم عليه ، و فقدان حرصه عليهم . ان الخوف فى نهاية المطاف هو القطب السلبى لمغناطيس الوجود ، فهو علاقة على الوجود وان تجلت فى صورة سالبة .

و لعل فيما دار من حوار بين جدعون و نمرود ما يلقى مزيدا من الاضواء على شخصية نمرود بعد التشويه ، فهو يسأل جدعون " هل كنت خائفا " ان ما يخافه نمرود هو الخوف نفسه ، هو ظهور ما يهرب منه ، و لكن جدعون يؤكد له ان سبب وقوع ما وقع هو انكار الخوف ، هو فقدان الخوف بوصفه قوة الوجود الخلاقة ، فلانه فقد القدرة على الخوف فقد فقد القدرة على التفكير ، أما أصدقاء الجيناء فهم الان قادرون على ضم فتاة و عناقها و احاطة خصرها بكلتا اليدين ... أن من يخاف يستطيع السير على قدميه ... ماذا سيحدث لى الان .. ما هو مصيرى ؟ ويلحظ نمرود ضمادات جدعون قد ابتلت من فوق عينيه فيدرك انه يبكى ، الصخرة تبكى القائد يبكى ؟ .. ويفقد نمرود القدرة على الاحساس . ويكاد جدعون يتضرع الى نمرود كى يكرر زياراته له ، بل انه يقول له " من فضلك دعنى اكلمك و كلمنى

أنت كذلك ، فعندما اتحدث لا أحس بالالم .. هل أروى لك حلمى ؟ و يروى جدعون حلمه فيقول " خطوت خارج جسمـى واستطعت أن أفعل كل شئ ، كنت خفيفا لامعا ، وسرت مسرعا بصحبة فتاة و حملتها بين كلتا يدى و لكنهما لم يكونا يدى أعنى أن جسمى لم يكن موجودا على الاطلاق ، لقد ضممتها بقلبى وقبلتها بوجدانى وسرت على - عقلى و أفكارى ولكننى كنت أسمع خلفى صوت العكازين ، وأرى جسدى المريض يتبعنى . كان شديد البطء فلم يلحق بى ولكنه شدنى القهقرى ، اما الفتاة فواصلت سيرها الى الامام ، أما أنا فكنت أسحب الى الخلف ، واستيقظت متألما لاجد نفسى خلف هذا القناع " (ص٥٣) .

يتجسد فى هذا الحلم أعمق ما وصلت اليه المؤلفة من حدس بطبيعة الوجود الانسانى بعامة ، والوجود السيكولوجى الاسرائيلى - الصهيونى بخاصة ، يتضمن هذا الحلم ثلاث كيانات ، الكيان الجسمى لجدعون بعكازيه ، والكيان السيكولوجى الانسانى المجرد طليقا من قيود الجسد (الروح بالمعنى الانسانى العام ثم الفتاة أو المرأة بعبارة أخرى نحن بازاء الرغبة (المرأة) بين صورة الجسم وصورة الذات أننا نعرف ان صورة الجسم من حيث هو كيان مادى تسبق فى

تكوينها صورة الذات وتمهد لظهورها ، بحيث يصبح الجسم أداة لتحقيق الذات ويتحول الى معنى و رمز و دلالة ، الى اداة للتواصل و لتحقيق الوجود بمعناه الانسان الواسع والمجرد ولكننا نعرف ان جدعون يمثل نكوصا عن هذا التقدم ، انه يمثل الوجود الجسدى الخالص ، قوة ومقدرة منفصلة عن العقل و الحس و الفكر و العلاقة بالاخرين . آننا بازاء ما يشبه النكوص أو الردة بالمعنى الانسانى الوجدوى الاجتماعى الشامل و هذه الردة ذاتها التى جعلت من الوجود الجسدى وجودا مطلقا ، حتمت فى نهاية المطاف دمار الجسم ، فهو جسم بلا عقل و لا قلب ، لذلك نجد جدعون يرد على نمرود عندما يقترح عليه أن يقرأ وان يتحدث وان يستخدم عقله بقوله : ان الصخور لا عقل لها " ص٥٣) ولما كان الحلم بالمعنى التحليلى العميق يحقق رغبة فحلم جدعون يحاول ان يحقق هذه الرغبة — فى امتلاك لب الوجود ممثلا فى المرأة — عن طريق تحرير الروح أو الكيان الانسانى بمعناه المجرد حيث يعانق بقلبه و يقبل بوجدانه لكن هذه الروح الاسيرة تجد نفسها مطاردة بالجسد الكسيح مكبلة بقيود عجزة فتنصرف المرأة مبتعدة عنه . لقد كان المدوان هو العقبة أمام انطلاق الليبدو واشباعه و امتلاك موضوعه الانموذجى : المرأة . ولعل مما يلفت النظر و يدعم هذه الفكرة ان جدعون لم يكن قبل الحادثة (أى عندما كان

مجـرد وجـود جسـدى مطلـق وكامل ، صخـرة) لم نجـد لديـه ما يشير الى انشغاله بالمرأة ، ويبدو أنه لا مكـان لا للتفكيـر فى حيـاة الصخور ، ولا للمرأة ايضا ، أى لغرائـز الحيـاة وللطاقـات اللبيديـة والحب .

وعندما يترك نمرود جدعون ، نجد تدعيما لاسلوبها الهروبى فتحدثنا المؤلفة قائلة انه فضل الا يفكـر فى الامر ، ووجد نفسه قادرا على التحكم فى افكاره ، واستبعـاد تلك التى لا يرغـب فى مواجهتهـا الى " مؤخـرة عقله " ص ٥٤ " . وهكـذا نجد التناقض بين شجاعـة الجسد وجبـن العقـل .

ويعـود نمرود الى أبيه وقد صار المثل والانمـوذج (جدعـون) حطاما ، فيدعم هذا الاب لديه فكرة القوة المطلقة ولكن ثمة ما هو اشد خطـرا ، يدعم النظرة الاضطهاديـة بالمعنى الدقيـق ، فينصحه بالا يثق بأى انسان على الاطلاق ، وانه لا وجود لما يمكن ان يسمى اصدقاء حقيقيـون ، وان عليـه الا يتوقـع أى شىء على الاطلاق من الناس ، ان صديقه الوحيـد قوتـه ، ويحذره من أخطار ثلاثة : الشفقة ، والرقة والـدفء . ويعلن له عن حكمتـه البالغة " اذا خافك الناس احترموك " ضـرب من الفكـر النازى ، ومن فلسفة القوة النيتشوية وتكتمل صـورة

الموقف في تجردها من الانسانية عندما يسأل الصبي والده عن جدعون قائع : " وماذا عن جدعون الان ؟: هل هو ضعيف الان ؟ فيقول الاب بالحرف : لا قيمة له ، " شئ مسكين " وهكذا تلفظ الصخرة ، ويصبح مجرد شئ ، وليس انسان ، شئ لا قيمة شئ ، مسكين لقد قام بدور في حرب خاطئة ، انه الان لا يستطيع ان يفكر تفكيرا سليما ، ثمة خطأ ما فيه ، انه لا يعرف كيف يواجه الامر . "

وهكذا ، وابتداء من هذه اللحظة يتحول جدعون الى لا مخ آخر . مات لامخ ، وتحطم جدعون وصارت لبقاياه في نفس نمرود وابيه مكانة لامخ ، مرفوضا منبوذا مستضعفا .

وعندما يكشف الصبي لابيه عن خوفه من الخرب . من أن يلقى مصير جدعون ينفي لديه الخوف فيقول له أن لن يجرح ، فالضعفاء وحدهم وهم الذين يتعرضون للاصابة . وهكذا نجد الاب مستمرا في سياسته الانكارية التي يغرسها في نفس ولده .

وبتتطرق الصفحات التالية الى الحديث عن القوة والحرب والبطولة ، فها هو جدعون الجديد يحل محل جدعون القديم ، والطريف ان المؤلفة تشير الى أن الحرب لم تكن على الابواب (ص ٥٥) لكان من الضروري اختراعها ، وهكذا نجد ان البناء النفسي بهذا التركيب هو العامل المهيئ للحرب والممهد لها . ان الحرب في مثل هذا التكوين النفسي تصبح ضرورة داخلية ، والا لما كان جدعون قد أقحم نفسه في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل .

الفصل التاسع

يدور هذا الفصل حول حدث واحد : موت لامخ ، رمز الحكمة والحب والايمان ، يموت بكل ما يعنيه الموت رمزيا من حيث هو هزيمة وانكسار ، وتراجع عن الوجود مؤثرا في مجريات الاحداث انه موت ما يهودى طيب في مواجهة ماهو صهيوني اسرائيلي غير طيب .

وليس مصادفة ان يكون شاهد موته ولده الروحي ، العاق نمرود ، فذلك ايضا يعبر عن موت لامخ في نفس نمرود أو هزيمة ، ومواراته التراب . نمرود يهرع الى منزله لامخ ، وتكون المواجهة بينه وبين لامخ مختصرا ، ويناديه لامخ بقوله " ايها الصغير " وعندما يضع لامخ يده فوق يد نمرود يحس نمرود انها باردة وخشنة ويرغب في سحب يده حتى لا يلمسه ولا يشعر ، وهكذا نجد نمرودا في هروبه من ملامسة (أى مواجهة ولقاء) لامخا في لحظاته الاخيرة ، انه اذ يريد ان يبعد يده عن يد لامخ الباردة الخشنة يريد ان يمنع التواصل بين لامخ كموضوع خارجي قائم بذاته ، كرمز للاب الطيب والتراث اليهودى وبينه وبين نفسه ، ومن جانب آخر يريد ان يمنع التواصل

بين جانبين من نفسه ، حيث يمثل لامخ هنا عن طريق التعيين الذاتي الاسقاطي جانبا من ذات نمرود نفسه فانه يريد منع التواصل موضوعيا خارجيا وذاتيا داخليا ، كما يريد تحت تأثير الشعور بالاثم منع تدفق مشاعره واحاسيسه — احاسيس الحداد والاكتئاب — على فقدان لامخ وموته من حيث هو مسئول عن ذلك — رمزيا ومعنويا بالطبع — لرفضه للامخ كموضوع داخلي ، انه يريد ان يكف مشاعره ازاء ذلك الجزء الداخلي الطيب عن ذاته الذي فعله .

ان الاسراف في وصف مظاهر المحاولات اليائسة من جانب لامخ المختضر لعقد حوار مع نمرود يعرب رمزيا عن عجز فكر لامخ — الفكر الطوباوى المتسامح — عن التعايش بجوار الفكر المناهض له . ويتساءل لامخ بصوت واهن موجها حديثه الى نمرود فيقول " ايها الصغير انت هنا ؟ " كما يقول " خذ كل ما تريده من هنا فهو لك عندما أموت " كما يطلب منه أن يتحدث اليه فلا يجد الصبي ما يقوله وانما يجول بخاطره متسائلا نفسه " أأقول له أن كل شيء قد انتهى ؟ أأقول له أنه سيتحسن ، ماذا يستطيع أن يقول ؟ وهكذا نجد نمرودا — من حيث هو رمز للجيل الجديد بفكرة الصهيونى — الاسرائيلى — عاجز عن التواصل مع لامخ .

أيعلن موته ؟ ، أم بعثه ؟ أم ماذا ؟ . وكان آخر ما طلبه لامخ من نمرود الا يحزن وانما أن يحب ، فقط أن يحب ويسأله ما اذا كان خائفا ويجيب قائلا أنه لا يخاف شيئا ، فتكون آخر كلمات لامخ لا أيها الصغير ليس ذلك شيئا طيبا أنني أقصد ... " وتفيض روحه وآخر كلماته ان اعتقال الخوف في ثنايا النفس ليس طيبا ، انه كالمرض الخبيث لا يزيده تجاهله والهرب منه الا تفاقما .

ويموت لامخ ويبقى نمرود في حجرته يحادث نفسه ويحادث الميت أيضا ، يريد البقاء ، لا لانه حزين ولا لانه يحب الميت وانما ليطيل احساسا شاذا وجديدا أن يعيش تجربة يعرف ان ليس من بين اصدقائه من يمكن أن يرغب في البقاء بمفرده مع رجل ميت ، وانتابته الرغبة عندما انصرف الطبيب في محادثة لامخ فازاح الغطاء عن الجزء الاعلى من جسمه ولمس يده ، ثم ذراعاه ، ثم صدره ، ثم أخيرا لمس عيناه ، وحاول فتح جفونه فلم يستطع ، وكأننا بازاء محاولات رمزية لبعث لامخ الى الحياة مرة أخرى والغاء موته ويحادثه فيقول " ايها العجوز ، هذه هي النهاية ، لقد ذكرت لي

ذات مرة أنهم سيضعونك خلف حجر وكان ذلك منذ وقت طويل ، ولكنهم سيفعلون ذلك الان " . - الا يكشف لنا ذلك عن نوع من الشجاعة فى العجوز ، أو على أحسن الاحوال نوع من الدفاع ضد مشاعر الحداد والندم ، وهكذا نجد مشاعر نمرود متضاربة متناقضة نحو لامخ ، فهو موضوع محبوب ومكروه ، وهو ايضا جزء من الذات محبوب ومكروه كذلك .

ويستمر الصبى فى حواره - من جانب واحد بالطبع فلامخ ميتا - فيقول له " لقد طلبت منى أن احب وان أرقص وأن أغنى ، ولكن اقرى يقول ان هذه الاشياء لن تنقذ البلاد ، كما لن تنقذها الصلاة . ان اقرى على حق .

لقد قال انك تغار منه ، وأنت الان ميت ، فماذا بقى منك ؟ جسد يترك للدود " . وهكذا ايضا يتجلى مدى انحياز نمرود للنمط الجديد ، العدوانى الغيور والمدمر .

ومع ذلك وفى الفقرة التالية مباشرة من نفس الصفحة (ص٥٩) يقول نمرود موجها حواره الداخلى الى لامخ (الداخلى ايضا) " سنخوض حربا فى القريب العاجل .

وأنت لا تستطيع رواية قصص من الحرب ، أنت شديد الطيبة بحيث لا تقدر ولا تصلح لذلك. انت بالنسبة لنا جميعا طيب انني أعرف انك خير من جدعون ومن أفرى ومنى أنا نفسى ... أعرف انك لم تكذب ابدا وانك تحبنا جميعا " . وهكذا يعترف نمرود بمزايا لامخ التى لا وجود لها عنده ولا عند ابيه ولا عند جدعون .

ولعل أعظم اعترافات الصبى أمام جسد لامخ المسجى قوله " قال لى افرى اننى لا يجب ان اتخذ اصدقاء ، لذلك ابتعدت عنك انت ايضا ، نعم هذا صحيح يا لامخ انك صديق — وهكذا ياتى اعتراف نمرود بان لامخ يمثل خير ما لديهم جميعا وانقاه وأكثره صدقا وصفاء ، لذلك نفهم المغزى العميق لاجابة نمرود على الطبيب عندما يفاجئه وهو يخاطب لامخ الميت سائلا اياه عمن يتحدث اليه فيجيبه قائلا انه يحدث الى لامخ ، فيسأله اذا كان لامخ يرد عليه حديثه ، فيجيب الصبى بيقين " بالتأكيد . انه يسر " ان لامخ اذن حسى فى اعماق نمرود رغم كل افعال ابيه ، ورغم كل المناخ الصهيونى التوسعى العدوانى اللادينى . حتى رغم تراجعه وبياته الشتوى الطويل اذا جاز هذا التعبير .

ويخرج نمرود من منزل لامخ الذى يعد للدفن ، يحمل معه قصاصات من الجلد ، وساعة ، ورمز للامخ ، وتعبير عن استمرار وجود ، داخل نفس نمرود — وجيله وفكره — كما أن اصطحاب نمرود لهذه المخلفات تجعله فى مركز الوريث الشرعى للامخ وبالتالى تبرز بصورة رمزية علاقة الابن — الاب التى تربط بينهما .

وعندما يصل الفتى الى منزله تلاحظ امه انه كان يبكى وهذا ايضا ما يلاحظه نمرود عندما يذهب اليه ، ومع ذلك فان نمرود يكاد ينكر ذلك ويذكر انه لم يلحظه ، وهكذا فالدموع كانت تنساب من عينه دون أن يستشعر بالحزن ويكشف اصرار نمرود على الاحتفاظ بمخلفات نمرود القصاصات الجلدية — رغم مقاومة امه فى البداية — عن تعلقه بلامخ تعلقا صادقا وعميق ، رغم كل محاولات الانكار والاخفاء واظهار النقيض.

على أن أهم اجزاء هذا الفصل وأكثره عمقا ودلالة ذلك اللقاء الذى يستغرق الثلث الاخير من الفصل (ص ٦١ — ٦٢) بين نمرود وجدعون ، وما دار بينهما بخصوص لامخ ، يذهب نمرود مساءا الى جدعون ، ويذكره بموت لامخ بصورة

ما بجدعون ، وتقول المؤلفة (ص ٦١) رغم أن جدعون اعتاد ان يكون النقيض فى كل شىء للامخ ، فان موت لامخ واصابة جدعون البالغة جعلهما شديدى التشابه والترابط وهكذا نجد مرة أخرى وحدة النقيضين بالمعنى الجدلى الهيجلى لقد كان جدعون انكارا للامخ وقد مات لامخ وانكسر جدعون فظهرت الوحدة والتشابه بينهما . ويلفت النظر ان جدعون منذ اصابته لا ينادى نمرود الا باسم التدليل الذى كانت امه تناديه به فيتهرها أبوه ، يناديه قائلا نيمى NIMI ويقول له " تعالى من فضلك وأقترب منى فأنت بركه .. هل كنت تبكى ؟ " وأكثر ما يهمنا هنا استجابة جدعون لخبر موت لامخ لقد اندفع فى نوبة من البكاء والنحيب بصورة لم تكن تجول بخاطر نمرود اطلاقا انها يمكن تصدر عن جدعون خاصة وأنه يعلم أنه لم يكن يهتم بلامخ . وهكذا بكى جدعون كما لم يبكى فى حياته وبكى معه نمرود . ويكشف جدعون نفسه عن حقيقة لامخ وما يرمز اليه فيقول " لقد كان خيرمنا يا نيمى ، لقد كان له اله ، أما أنا فماذا لى ، لا قدمين ، ولا يدين ، ولا رأس ، ولا أوهى رغبة فى الاستمرار فى هذه الحياة الموت ... اننى واثق انه مات وعلى وجهه ابتسامة " وكان ينتحب وهو

ممسك بيد نمرود ، والغريب ان الصبى يحس أو يعتقد ان يده كانت فى مثل ملمس يد لامسخ قبيل موته ... ويتحدث جدعون فى حماس وحرارة عن مناقب لامسخ ، بل ويعترف انه كان يغار منه ، وان هذه الغيرة بلغت اقصاها عندما شاهده بصحبة نمرود خارجين من المعبد ، كان جدعون نفسه يريد ان يدخله وان يصلى فيه ، ولكنه لم يفعل اذ كان يعتقد انه لايليق " بالصخرة " ان تدخل معبدا او ان يصلى او أن يؤمن بالله . الغريب اننا هنا بازاء نمط غريب من الالحاد او اللاتدين ، او على احسن الاحوال الانصراف عن الدين .

ان هذا الموقف من الدين لايرجع الى أسباب ايديولوجية او عقلانية او نقدية ، وانما ببساطة الى سبب شخصى ذاتى خالص لايليق بصخرة ان يصلى ، او أن يؤمن بالله ، انه امتداد للهروب من الضعف والمهانة ، مهانة اليهود فى الشتات ، عندما يمارس شعائره بين غير ابناء دينه فيلقى السخرية والاحتقار .

وتبلغ مأساة جدعون قمتها اذ يقول " والان لم أعد استطيع ان اسير الطريق الى المعبد ولن ياتى الله الى . ولكن الله ذهب الى كوخ لامسخ عندما مات انتى اعرف ذلك " انه يقصد بالطبع ان الله لم يتخلى عند لامسخ لحظة احتضاره .

والغريب ان الفصل ينتهى ونمرود يحاول التخفيف عن جدعون فيعده بان يريه قصاصات جلدة (بضمير الملكيه ، فقد آلت ملكية هذه القصاصات اليه بوصفه الوريث الشرعى للامسخ) فيجيب جدعون

يقولة : " اقسم انك مستفحل " ما اعمق واغرب ما طرأ على المخسرة من تغيير وكأنه ارتسد طفلا في حاجه الى أرنب جلدي او دمية من نوع ما ، ويدفن لامسخ في الصباح .

///////

الفصل العاشر

يبدأ هذا الفصل بثلاث كلمات مكتوبة بحروف التاج " لقد دفنوا لامخ "
ثم بدأت الحرب وكان نمرود فى الرابعة عشرة من عمره . ولم يسمح له بحكم سنه أن يشارك فيها .

هل ثمة قصد او صلة بين دفن لامخ واعلان الدولة والحرب ، قامت الدولة اذن على جسد لامخ ،وكان ثمنها ان يموت لامخ وكل ما يمثله .

ويعرض هذا الفصل لمظاهر الفرح الغامر باعلان الدولة ، الرقص ، وصلوات الشكر فى المعبد — ثم زيارة نمرود لجدعون الذى خرج ، أو أخرج ليشاهد مظاهر الاحتفال باعلان " الاستقلال " ويحدثه نمرود حزينا لانه لن يشارك فى الحرب فيجيب جدعون بان هناك أمور أخرى لاتقل خطرا عن الحرب يؤديها " الاولاد " .

ونعرف فى هذا الفصل كيف فقد نمرود تماما مشاعره ، وبخاصة مشاعر الخوف وكيف فقد معها التفكير ،حتى الخوف من الخوف ،آخر ما تبقى من مخاوف قد استبعد هو الآخر . صار فعلا صخرة بلا أحاسيس ، ولكنه فقد مع ذلك ايضا ،الاحساس بالمرح والحبور ، والقدرة على النقد الذاتى ، كان يدفع اخطاءه بعيدا مغطيا اياها

باعذار كثيرة ، من بينها الضرورة او مقتضيات القوة .

أن اهم ما في هذا الفصل على طوله يمكن ايجازه في تبادل المواقع بين كل من نمرود وجدعون ولامخ ، نمرود يصبح جدعون ، القائد والقاتل والصخرة ، وجدعون يتضاءل ويتحول بالتدريج الى لامخ آخر ، يلازم داره لا يغادرها ويتناقص زوارة ، بل ويتغير لونه — لغيابه عن الشمس — ويتحول الى قرض الشعر ، شعر يفيض بالحزن والندم والاشفاق على الذات ، يتحدث مثلا (ص٦٨) عن "روحه التي هجرت جسده ، "ونظرت اليه في مقت ، وسارعت بالهرب لتلتقط الجليد من فوق جبل "حرمون" وتلتقط الزهور الحمراء من فوق التلال ، وتجمع قطعا من السماء .. لتنثر هذا كله فوق قبر جسده .. وتبكي روحه وتسخر من جسده وتتمنى الا تعود ، ولكن الله يدفعها اليه الى الجسد ويلزمها بالبقاء ، كي تدفن مع الثلج والزهور والسماء " وهكذا يتحول جدعون الى حطام حزين ، يلتمس في الشعر المهرب ويجتر احزانه ويتحول الى اللـــه ، ويحسن نمرود في اعماقه أن يشارك جدعون في هذا الآلـــه .

ومع ذلك فكما كان التواصل بين نمرود ولامخ يتقطع ويضطرب كثيرا نجد ذلك يحدث الآن بين نمرود وجدعون يحدث بصورة أشد عنفا وضراوة فقد كانت الغيرة تجمع بينهما ، عندما كان جدعون صخرة ونمرود صبيا صغيرا ، وها هي تجمع بينهم عندما اصبح نمرود صخرة وجدعون حطاما ولكنها الان غيرة جدعون من الصخرة الجديدة ولكنها ليست غيرة خالصة ، وانما يخالطها محبة والشفاق من مصير مماثل يلقاه " الصخرة الجديدة ".

الفصل الحادى عشـــــر

فى هذا الفصل نلتقى بنمرود " رجلا " تتحدث عنه المؤلفة فتصفه فى أول ثلاث كلمات من هذا الفصل مكتوبة بحروف التاج بأنه " الرجــل الطويل " وتحدثنا عن انشغاله بحلاقة لحيته وطرحه لهذا السؤال ــ " هل أنا محتاج الى حلاقة " كل صباح ، رغم أنه لايفعل ذلك الا مـرة كل أسبوع وهكذا نجد نمرود يتعجل مظاهر الرجولة المادية ٠

كذلك نلاحظ أنه ينادى أمه بأسمها ، لايقول يأمى وانما ياميريام وبالرغم من أنه فى السابعة عشرة فقط الا أنه كان اطول قامة من أمـــــه التى كانت فخورة به فهو سيصير فى القريب العاجل جنديا ، وبالرغم من ذلك لم تكن تنظــر اليه الا بوصفه نيمى NIMI رغم ان الاب والابــن لايرضيان أن ينادىـه بهذا الاسم ٠ أن التناقض بين موقــف الام والابن ، الام التى تريـد أن تظل تنظــر الى والدها وكأنه لايــزال صغـــيرا وتناديه بأسم التدليل ، معبرة بذلك عن حرمانها من أمومتهـا وعطائها الموصول والمستمر لصغيرها مما يؤكد اغتصاب الاب لدور الام قبــل الاوان ، على العكس الابن تحت تأثـير وتدعيم الاب الـــذى يقفــز من فوق طفولتـه متعجلا الرشــد والرجولــة قبل الاوان ٠ وهذا الاختلال فى التوازن ، توازن الطفولـة والرشد سنجده دوما فى شخصية نمرود ، بوصفه بالطبع ممثل لجيل بأسره وبوصفــه نتاج لبناء اجتماعــى اقتصادى سياسى معـــين أيضـــا ٠

كانت الام فخوره بهـذا الرجل " الطويل " ومع ذلك كـان يثير خوفهـا أو فزعهـا كما في النص بالحرف Nimrod Scared Her (صـ٦٩ـ) ولم يكن مايصدر عنه من أفعال هو الذي يخيفها وانمـا ما يصـدر عنـه من استجابات ، أو ردود أفعال ، وكما تقول المؤلفـة كانت تفكـر احيانا وتقـول لنفسها أن ذلك لايمكن أن يكون حقيقيـا ، أنه شيء غـير أنساني ومستحيل ، فهو لا يهتم اهتماما " عميقـا " بأى شـيء ، تعلم أنه شعر بخيبة الامل لانه لم يشترك في الحـرب ، ولكنه كان آن ذاك مجرد صبي (في الرابعة عـشرة) ومع ذلك كـان يدفعهـا بعيدا عنه كلما حاولت ضمه اليهـا وتقبيله ، أن له الان - ابتسامة من نمـط جديد ، ابتسامة تجمع بين السخرية والحزن والتعالى *المغريب ، كان يرسم (في النص الاصلـى يلوث أو يلطخ حرفيا Smear) هذه الابتسامة على وجهه فلا تكشف اطلاقـا عـا يدور وراءها فـى داخلـه .

هذه الابتسامة التى اثارت فزع الام وخوفها . ليست الا " درع للشخصيـة " Shara Ctørarmour بالمعنى التحليلـى النفسى الدقيـق ، كما عند فيلمهلم رايخ صاحب هذا المصطلـح ، أنه درع يحتمى به من الخطر ، خطـر الحزن ، ولا حزن الا وثمة موضـوع مفتقـد ، موضوع لبيدى ، هذا الموضوع هو حب الام هذا هو حجـر الزاويـة فى تكوين شخصيـة هذا الصبى أو الشاب ، وأما السخريـة والتعالى فهى لاتعدو كونها دفاع انكارى يهدف الى انكار الحزن ونفـى الحاجـة .

كذلك تحدثنا المؤلفة عنه قائلة أنه يكن له أصدقاء ، وأنه كان يعطى بجد ، وأنه كان اجتماعيا ، أن ما كان يخيف الام هو أنه لم يكن يبدو بحاجة الى الناس (ص ٦٩) لماذا يخيف ذلك أمه ، أغلب الظن أن حدس الام اتاح لها ادراكا لاشعوريا بحاجة ولدها ، وهى حاجة انسانية بغيرها لايكون الانسان انسانا الى الاخرين ، ولكنه ينفيها وينكرها على نفسه مظهرها نقيضها ، اننا بازاء تكوين عكس لقد نقل نمرود حاجته الى الناس والاصدقاء والاخرين الى " الوطن " .

كذلك نعرف من المؤلفة أن نمرود صار أطول وأقوى من أبيه ، وأن أباه حول اليه كل مسئولياته سعيدا به ، وباتاحة الفرصة له كى ينجنح الى الراحة بعد طول عناء .

يذهب نمرود لحضور اجتماع يعقد بين أقرانه من شباب القرية وجماعة من البنات المهاجرات القادمات من المجر ، ورغم أن الفتيات كن أكبر من نمرود ومجموعته بقرابة العام الا انهن كن خائفات حييات ، وكن ايضا شقراوات بيضاوات وبين هذه المجموعة من الفتيات كانت " ايللى " ELLI الفتاة التى أعجبت نمرود (وستصبح بعد ذلك زوجته) وبالرغم من أنها فى العشرين ومع ذلك فهى أصغر منه حجما بكثير حتى ليبدو وكأنها فى الرابعة عشرة الا يشير ذلك الى رغبة نمرود المتناقضة فى أن يحقق فى علاقته بالانثى دورين ، الطفل الصغير فى رعاية الام ، والرجل الكبير فى رعايته للمرأة الاضعف والادنى .

كذلـك نتعرف عن طريـق فكر نمرود عن مكانة الانثى فى حيـاة هذا الجيل ، فهو مثلا لم يفكر أبدا فى البنات بوصفهن نساء ، أو بوصفهن مخلوقات يختلفن كثيرا عنـه . أنه يعتبرهن رفاقـا أو زملاء ، ولكنهن أضعف قليلا وفى حاجة الى الحمايـة .

هذه هى صورة الجنس الاخر لدى هذا الجيل ، صورة لامكان فيهـا للانوثـة ، ولا للامومـة بالطبع مادام الاباء يتولـون تربيـة الابنـاء منذ بدايـة الطفولـة .

والطريـف أن ايللى كانت المبادرة فى تكوين العلاقة بينهمـا فهى التى تبـدأ الحديث اليه فتقول له " أنت كنت تنظـر الى .... ما أسمـك ؟ " ، كذلك تبدأ بالاعراب عن اعجابها به فتقول له " أنـى معجبـة بشعرك وعندما يقول لها أن شعره كان فيما مضى موجا تقـول أنها تحب الشعر المموج ولكنها تحب شعره أيضـا ويخطر له أنها هـى وأمـه يحبان الشعـر المموج ويأسف لان شعره لم يعد موجا كما كـان ، ولكنـه يكره نفسـه لهذا الاسف . ولعلنا نذكر أن أول نقـد وجهـه له جدعون الصخرة كان لجدائلـه — وشعره المموج ، وكيف قال لـه فى رحلة تسلق الجبـل أن أمه تحب شعره ، فاجابه جدعون قائلا " أنت أبن أمك أذن ؟ " ونذكر أيضا كيف كان يتمنى لو كان له مثل شعر عـودى القصير المستقـيم ... أن ايللى تثير فيه حنينا الى الطفولة والـى اتخاذ الصورة التى ترضى عنها الام وتوقف فيها .. ولكنه يكره نفسه لهـذا الحنـين . والطريف أن الفتاة رغم عدم اجادتها العبرية فهى الـتى

تعـــود الحديـــث بينهمـــا .

ويبدو سحـر الفتاة عليه نافذا رغم مقاومات داخلية ، تطلب منه أن يعلمهـا العبريـة فيوافق رغـم أنه لم يكن يرغـب فى تعليـم أى شخـص (صــــ ٧١) وتطلب منه أن تريه بيتها رغم أنه لم يكن فعــــلا يرغب فى ذلك ، ولكنهـا كانت صغـيرة الحجم عديمـة القوة .

وعندمـا يصيران معـا الى مقـر أقامة الفتيات تضع يدها علـى ذراعـه مستندة اليه فيتجمـد لثانية ويسائل نفسه " ماذا تريد منـه ؟ ولماذا تضع يدها على يده ؟ " وهكذا نجد نمـرود فى حقيقة الامر أشبه بطفل ترشـده أمـه ، وتراوده المخاوف والشكوك مـا يراد به . ويذيب حديث الفتاة تهيبـه ويحدثهـا عن " جدعون " فتسأله أن يأخذهـــا اليه ، فهى تعتقد أنها ستحبه ومادام صديقـه . وتظل ايللى ممكسة بذراعـه ، وعندمـا تتعثر تتعلق به فتتصلب عضلاتـه وتحس هى بذلك فتقـول له " أنك قـوى ، ذراعك قوى جدا وأنا أحبـه " وعند ذلــك يشعـر بالزهـو وتحس هى بذلك ويقول لهـا " اننى استطيــع أن أرفعك الى أعلـى كطفل أو ريشـه " ويرفعهـــــا .

ونلاحظ هنا أن مبادرات الفتاة تتأخـذ شكلا اجتماعيا انسانيـا الحوار أمـا مبادرة نمـرود الوحيدة فهى استعراض فيزيقى للقـــــوة " حملـه للفتاة " ومع هذه المبادرة الاستعراضيـة الفيزيقية يتحـــرك فى داخـل نمرود الرغبـة الذكروية ويتمنى لو يضم الفتاة اليه بقوة ، ولكن

الفكرة تثير فى نفسه الحرج حتى ليحس بالرغبة فى الفرار . والطريف أن الفتاة تندفع فى البكاء - سعادة - فيطيب بنمرود خاطرها ويتمنى لو يقول لها كلمات طيبة ولكنه لا يعرف ماذا يقول فيرفعها بين يديه مرة أخرى وتحدثه عن شعورها بالامن لاول مرة فى حياتها ، وسعادتها الغامرة فى هذه اللحظة التى تتمنى لو يتوقف عندها الزمن وتقول له " انني لم أقابل انسانا مثلك من قبل " (ص ٧٤) فيسألها " هل تحبيني ؟ " فتجيبه بالايجاب وتسأله ماذا كان يرغب فى تقبيلها وتصف المؤلفة هذا الموقف فتقول " لم يكن نمرود واثقا من الكيفية التي سيقبلها بها ولا من سبب تقبيله لها ، فأومأ وانتظر ، ووقفت على أطراف أصابعها وأمسكت بوجهه ووضعت شفتيها فوق شفتيه ، فأمسك بها بين ذراعيه ، وكانت لاتزال ترتعش ، أو ربما كان هو الذي يرتعش ؟ . وقبلها بالطريقة التي كان معتادا أن يقبل بها أمه عندما كان صبيا ، ولكنها ظلت ممسكة به فقبلها ثانية ، وعند ذلك دفعت لسانها بين شفتيه ... " .

وهكذا نجد نمرودا فى تجربته الاولى ، طفلا ، وحبيبته بالنسبة له أما ، وهى التى تعلمه كيف يتحول فى علاقته بالمرأة من علاقة طفل أم الى علاقة رجل - أمراة ولكن هل يعنى الدرس؟ هذا ما سنحاول الاجابة عليه من خلال الفصول التالية .

تصف لنا المؤلفة خوف نمرود من أن يلحق الاذى بالفتاة ؟ لما كان خائفا ؟ لقد كان خائفا بالطبع مما يخالط رغباته من دفعات عدوانية تدميرية ، أن الجنس بالنسبة له أداء فيزيقي خالص .

وتتبين الفتاة أنه بلا خبرة وتسأله اذا ماكان قد سبق له أن قبل " أمرأة " من قبل ، ويؤخذ نمرود عندما تستخدم ايللى كلمة " امراة " فهم لا يستخدمون هذه الكلمة فى القرية حتى أمه كانت تسمى " بنت " "Girl" .

أن كلمة " أمرأة " تنطوى على تضخيم وابراز للانوثة والامومة والنضج ويقتضى مقابلها " رجل " وهكذا فايللى تقدم نفسها لنمرود بوصفها أمراة ، أمراة تقود خطاه على طريق الرجولة ، فهل يسير على الدرب الصحيح ؟ سنرى .

على أن آخر خواطر نمرود بعد ماتنصرف ايللى أنه يعود من الحرب فيجدها فى انتظاره تتلقاه بالاعجاب وهكذا نجد امتزاج العدوان بالحب والرغبة الليبيدية .

الفصل الثاني عشر

" تجنب نمرود لقاء ايللى الايام القليلة التالية لاختلاط الامر عليه ، رغم أنه كان يحلم بجسمها ليلة اثر ليلة ، كان يأكلها مع خبزه ويشربها مع مائه " (ص ٧٦) وهكذا تكشف هذه الكلمات عن جانب هام من شخصى نمرود راشدا ، بخاصة ما يتصل منه بعلاقته بالجنس الاخر. فبالرغم من رغبته فى الفتاة ، أو بعبارة أخرى فى جسدها ، فمع ذلك كان يتجنب الذهاب اليها أو الالتقاء بها . ونلاحظ أن رغبته كانت فى " جسدها " لا فى كيانها الانسانى. على أن تجنبه لها كان بسبب اختلاطه أو اختلاط الامر عليه بعبارة اخرى كانت مخاوفه ترددہ فى القيام بمبادرة تقترب بها منها ، فهو كان فى نهاية الامر كما وفقت فى ذلك المؤلفة تمام التوفيق يأكلها مع خبزه ويشربها مع مائه ، أنها كالطعام والماء مطلب هى وجود فى ذاته en soi كما يقول سارتر . هى وجود من أجله هو ، وليست وجودا قائما بذاته و من ثمة فرغبته فيها رغبة تقوم على الامتلاك وتفتقر الى الاعتراف بها كيانا انسانيا مستقلا وقائما بذاته .

ولكن ايللى تأتى اليه وكأنها " قادمة من عالم آخر " وكان " هناك شيئا نظيفا فى ايللى " هاتين العبارتين عما يعبرا عن مخالفة عالم اللى عن عالم نمرود و زوجه،و هذا العالم تعبر عنه المؤلفة بصور ترمزية

موحية ، عالم نقى صافى كما يعبر رداؤها عن نفس الصفاء والنقاء فهو " أبيض" وتبرز فى وصفها بعد المفارقة والمغايرة لما هو اسرائيلى ، عيونها خضراء وشعرها أشقر وجلدها أبيض . هذه المفارقة أو المخالفة يقصد بها الجانب النفسى والروحى .

وتعرض عليه ايللى فى تلقائيتها ومبادرتها أن يصحبها فى جولة وتكشف لنا الام عن محبتها وعطائها فى اصرارها على اطعامهما قبل الذهاب الى جولتهما ونعرف أن المطبخ هو قلقها التى انسحبت اليها أو فرض عليها ذلك الانسحاب اليها . فصار تقديم الطعام هو شكل التعبير عن الحب والعطاء المتاح لها وهكذا نجد الام هى الاخرى قد فرض عليها التعبير عن وجودها عن طريق ما هو فيزيقى مادى .

وبعد الطعام ينصرف نمرود وايللى ، ونمرود الذى يريد امتلاكها (ص ٧٨) وتظهر تلقائية الفتاة اذ تقول له " كان لابد أن أراك ، لقد ظننت أنك غاضب منى أو أننى ارتكبت خطأ ما ، ويكذب عليها نمرود مدعيا الانشغال . وتطلب منه أن يريها القرية والاماكن التى يحبها فيها ... وتقول له " أنا ملكك ورغم أن الفتاة تعلن له صراحة عن منحه نفسها ، فان اختلاطه يتزايد اكثر واكثر ويحس أنها تتكلم بالطريقة التى يكتب بها جدعون شعرة وعبارة — أخرى تتكلم بتلقائية خالية من أقنعة " الصخور" هو ايضا اعتاد فيما مضى أن يفكر بهذا الاسلوب ، ولكن ذلك لا يحدث الان ، وهكذا

ففي تلقائية ايللي ونقائها شيء يشير لديه " الاختلاط " اذ يحرك فيه نقاء الماضي الذى ادار له ظهره وتذكره بنقاء جذعون بعد أن خلصه " العجز " من زيفه القديم .

ويبدأ الفتى جولته معها بالاشارة الى مخزن السلاح الذى كان سريا فيما مضى وصار مشروعا الان ، وفى ذلك اشارة ايضا على عدوانه الذى صار مشروعا ، ولكن الفتاة تطلب منه الابتعاد .

ومرة أخرى تمسك ايللي بذراعه فيشعر بنفس الرعدة تسرى فى داخله ، ويسيرا معا الى التل والغابة وتطلب منه وردة فيقطف لها واحدة ويشعر بالسعادة لعمل شيء من أجلها . وتطلب منه أن يرفعها مرة آخرى ، فيقول لها " ليس الان ، عندما نصل الى قمة التل " وهكذا نجد لديه الرغبة الجنسية تختلط بالرغبة فى اظهار القوة والاستعراض ، تماما كما كان طفلا فى لعبة " من الاقوى " .

وعندما يصلا الى الغابة تكون ايللي متعبة ، وعيناها تلمعان ، ويداها مبللتان " (ص ٧٩) أن هذا الوصف يعبر رمزيا عما سيحدث بينهما من فعل جنسى ، فالغابة رمز للعضو التناسلى الانثوى كما لمعان العينان أو بريقهما يعبرنان عن ضرب من التأهب والتشوق الجنسى ، كما أن بلل اليدين - بالعرق تحت تأثير التعب - يعبر عن نقل من المنطقة التناسلية - حيث بلل الاعضاء تأهبا وتحت تأثير الاستثارة وهذه الصورة الحسية التى تنطوى على جهد واجهاد

تعرب برمز مستور ، عما سيحدث ، وعن طبيعة هذا الذى سيحدث من حيث هو علاقة حسية تنطوى على استعراض للفحولة الذكرية والتملك .

ويتأكد لنا ذلك عندما نجد انتقال المبادرة — الحسية الفيزيقية الخالصة من ايللى الى نمرود ، على عكس ما سبق عندما كانت المبادرة السيكولوجية الانسانية من جانب ايللى .

تبدأ مبادرة نمرود الحسية الخالصة بوصولهما الى قمة التل ، فهو الذى يختار الصخرة التى تستندان اليها ونلاحظ انها صخرة ، وليست حقلا أو قطعة من الارض المعشبة الخضراء ، كما نجد عند لورانس مثلا ، ولنتذكر أن نمرود نفسه صار يلقب " بالصخرة " وهو الذى يفك الشريط عن شعرها ويدعه يسقط على كتفيها ويربت عليهما فيتبين من نعومتها مبلغ خشونة يديه ، عندما يلمس شعرها فقط يدرك مبلغ خشونة يديه وتتصاعد ايجابية نمرود الى حد تفقد معه ايللى وجودها الحر المستقل ، فتذكر المؤلفة فى سطر مستقل أنه ... معها الى اسفل على العشب " (ص ٧٩) " ونلاحظ ان اخر اقوال ايللى كان طلبها منه أن " يرفعها مرة اخرى " تطلب منه ان يرفعها الى اعلى فيدفعها الى اسفل ويكون طلب الفتاة ان ترجوه الا يؤلمها أو يؤذيها " Please do not Hurt me فبعد ان كانت تطلب منه ان يقبلها وان يرفد منها مما ينطوى على رفعة ، وعلو وسمو ، وارتفاع فى الروح

المعنوية .. الخ نجدها إثر تدافع مبادرات — العصد وانية تتوسل اليه الا يلحق بها اذى والطريف ان المؤلفة تضيف بحدس عميق ونفاذ فتقول "(ص ٧٩)" بعد ذلك قالت شيئا باللغة العبرية ، بعبارة اخرى قالت شيئا لايستطيع نمرود فهمه بمعنى آخر كشفت عن جانب اصيل او تجلت من خلاله على نحو لايستطيع نمرود فهمه والتواصل معه ، وهكذا ففى اللحظة التى دفعها فيها نمرود " الى اسفل" صارا غريبين ، صهيونى — اسرائيلى يمتصب دون تفاهم فتاة اوربية اصبحت بالنسبة له مجرد وجود جسدى ، لاحوار معه ، ويتأكد ذلك عندما تقول المؤلفة فى السطر التالى مباشرة " ولم يسمع" لقد كان كل شئ مفاجئ وطاغيا " الا يسد والامر وكأنه اغتصاب (بصورة معنوية على الاقل) وتكشف المؤلفة عن ازدواجية نمرود (الطفل الرفيق والحيوان الشرس) فتقول أنه أحس بالضعف والرقة والطفولة وهو جالس يربت على شعرها ، ولكن جسده اذ ذاك صرخ فيه أن هيا ، وكان جسده سيده ، فنسى كل شئ انها امرأة وليست بنت كما قالت هى ، وهو رجل ، صخرة ... ويبدأ معها رقيقا ثم لايلبث ان ينسى " ينسى اسمها ولون عينيها وملامحها أنه لايريد ان يتذكر " .

وهكذا تتجرد ايللى من هويتها البشرية ، يعرض هو نفسه عن هذه الهوية وينساها ، وبعبارة اخرى يستبعد هذه الهوية من شعوره ، بعد ذلك نراه يشرع فى اكتشاف جسدها ، ولانجد اشارة

الى استجابة من جانبها ، جسد مستسلم جرد من ارادته وهويتـــــه ، وتقـــول المؤلفـــة " كان محيـــلا بالنسبة لهـــا " (بكل ماتعنيه هـــذه الكلمة رمزيـــا وماديا ومعنويـــا وخلقيا) " يعرف ذلك ولكنه لايهـــتم " " ستكون ملكه " بـــل اكثر من ذلك " لقد اراد ان يؤذيها " (ص٧٩) هكذا تقـــرر المؤلفـــة صراحة ، بل تقول ايضا " انه يستطيع ان يمـــزق وان يدمـــر " وهكذا تكتمل الصورة السادية لنمـــرود فى ممارسته للفعـــل الجنسى مع ايللـــى . ويظن انها تحدثه لكنه لايجيـــب ، بعبـــارة اخرى لاتواصل انسانى . ولايرغب فى التوقف ذلك أنه لوتوقـــف لهـــرب بعيـــدا ، ويكاد يسمع الصدى القديم يتردد : " ارنا أنك قـــوى ... قـــوى .. قوى " ثلاثا — وهوفى التحليل النفسى رقم مقدس يرمز الـــى العضو الذكـــرى — وهكذا تتطابـــق لعبة القوة مع لعبة الجنـــس ، ويتطابق تسلق الاشجار مع " تسلق المرأة " ويصبح هذا التسلق الاخر " مباهاة امام غـــيره من الرجال ، مشحونا بكل صراعات التنافس ومخاوفـــه ودفاعاتـــه .

و مع ذلك تقـــول لنا المؤلفـــة ولكن عندمـــا لمست شفتيه ثديهـــا اصبح طفلا مرة اخرى وارتخت عضلاتـــه " ، مرة اخرى الوحدة الجدليـــة بين الطفـــل والراشـــد ، والتناسل والرضاعة " والمرأة والام ، دون تآلف حقيقـــى وهكذا فهو " رضيع وحيـــوان " يتمزق اربا لحظة ويصبح جبـــلا وصخرة لحظة أخرى " على ان اعمق ماتذكره المؤلفة دلالـــــة وابرعـــه حدسا قولها " لقـــد كان وحده هو ، اما هى فلم تكن موجـــودة " هذا هو جوهـــر وجـــود نمـــرود وحده ، وحيدا بلا آخـــر وبلا انسان .

بعد الجملة السابقة مباشرة تقول " لم تكن موجوده " تنتقل المؤلفة مباشرة الى البدء في الفعل الجنسي ذاته ، وتورد من التفاصيل مايؤيد من فهمنا لطبيعة علاقة نسرود بالجنس والمرأة وبالوجود بعامة ممثلا في اكثر رموزه امتلاء وشمولا ، واقدرها على استيعابه والتعبير عنه : المرأة . " ماأن تلمس يده عضوها حتى تتملكه الرعشة ويولج عضوه ، وتصرخ ، وفي اللحظة التي يلمسها يشعر أن جسده قد قذف به خارج جلده ، وتناثر في الهواء . " وعند ذلك يخرج ويتدحرج على ظهره ويترك يديه يسقطان بجوار جسمه . واصبح طفلا مرة أخرى" . " وعند ذلك اراد ان يختصي ، ان ينكمش فيصبح في حجم بيضه تغسل ثم توضع في صندوق " لقد رأينا ان نورد حرفيا الفقرات الخاصة بالفعل الجنسي لما ينطوي عليه من تخيلات تقترب اقترابا شديدا من تخيلات الميلاد والعودة الى الرحم . ان الفقرة الاخيرة واضحة في غير حاجة الى تعليق ، البيضة ، والانكماش ، والاغتسال بكل مايعنيه من تخلص مما يؤرقه ، والوضع في صندوق (الرحم) صغير . كذلك تجد في الكلمات والتعبيرات والضمائر التي تستخدمها المؤلفة للاشارة الى العملية الجنسية فهي تقول مثلا " ذهب اليها " كما تقول " وخرج " والضمائر هنا لا تشير الى اعضائهما التناسلية وانما اليهما نفسيهما كما ان قولها " في اللحظة التي لمسها أحس أن جسمه قد قذف به خارج جلده ، وتناثر في الهواء " اذا وضعنا هذه الصورة بجوار الصورة التالية التي تعبر عن رغبته في الانكماش ليصبح في حجم بيضه تغسل

وتوضع فى صندوق صغير " الا يشير التخييل الاول وخاصة " ان يقذف بجسمه خارج جلده ، الى خروج الكتكوت من البيضة ، وبالتالى الى الولادة وخروج الطفل خارج الرحم وخارج الكيس أو المشيمة والى السائل الاميني ...

وهكذا فخواطر نمرود ومشاعره ، استجابات ايللى له تشير جميعا الى النقيضين متجاورين متصارعين متناوبين الظهور على مسرح الوجود الواقعى والوجود النفسى الطفل يخرج من الرحم ويعود اليه ، تخيلات الولادة والاتحاد بالام ، والحيوان المفترس يغتصب الانثى ويسحقها . ولا شك فى ان التخييلات الثانية لاتعدو أن تكون دفاعا وانكار للتخييلات الاولى .

وهكذا نفهم ايضا صرخة ايللى ، انها تعبر عن الامرين معا ، تعبر عن خوف الانثى من اغتصاب الذكر لها ، كما انها تعبر عن صرخة الام لحظة خروج الجنين .

وبعد انتهاء الفعل الجنسى تظل ايللى راقدة ، وعينيها مفتوحتين حيث تبكى ببطء فهى تعلم ان نمرود لم يعد يلاحظ وجودها ، وتعلم انها لم تكن هى " ايللى " كانت مجرد أمرأة أى أمرأة . وأنه فقط كان يريد أن يصير رجلا (ص ٨٠) واحست أنها لو قامت وانصرفت لما لاحظ ذلك . ولكنها تحب ذلك . فقد كانت هذه هى المرة الاولى التى تعطى فيها نفسها كلية المرة الاولى التى كانت فيها حسية فقط ولا شىء غير ذلك " وهكذا تتأكد لنا

طبيعة العلاقة الحسية بين كليهما . " لقد كان الحيوان بدا خلبها موجودا " " كانت تحب أن تتألم وقد جعلها تتألم " ومع ذلك فقد احست بالخوف منه ومن عنفه ان مشاعر ايللى هى الاخرى تتناغم مع تكوين نمرود فهى تخشى العنف ولكنها مع ذلك تحبه . اننا بازاء علاقة سادو ـ مازوخية . يتغلب فيها الجانب السادى عند نمرود ويتغلب فيها الجانب المازوخى عند ايللى .

لقد فجر سلوك نمرود السادى مازوجية ايللى الخفية . ولذلك نجدها فى محاولة منها للتغلب عليها تتضرع اليه أن يخاطبها ولكنه لايفعل . لقد كان غائبا عن الوجود (فى حضرتها) ومع ذلك تكرر الضراعة . ولامجيب . فتقبله وتلمس شعره وفى النهاية يقول لها " لقد آلمتك " ولكنها تجيبه قائلة "لا " هذا هو أنت انك لم تكن تقصد ذلك . أعرف انك تستطيع ان تكون مهذبا ورقيقا ولكن ماحدث قد حدث انني احس انني على مايرام " وعندما يكرر ـ وكانه يستمد من ذلك متعة سادية ـ " لقد آلمتك انني قوى اكثر مما يجب بالنسبة لك " نراها تقول : انني اعشق قوتك . انني حقا احس انني على مايرام . وان كنت احس بالبرد " ولعل تكرار التعبير عن الشعور بالبرد وعدم استجابة نمرود لها يعبر بصورة رمزية عن غياب الدفء العاطفى . انه يُنصت ولايستجيب اطلاقا لتكرار شكواها من البرد . يلتفت فقط الى مايرضى غروره . يلتفت الى

قولهـا انها تحـسـق قوتـه ، والطريف انه يشعر بالاثم فقـط عندما يلمس جسـده هو ويجده مبتلا . انه لا يريد ان يكـون رقيقا (حلقـ) انه يريـد ان يكون " عاصفة " لا " نسيمـا " ومرة أخرى يسألهـا : " هل كنت خائفة " ؟ وتجيبـه : " نعـم ، ولكن للحظـة فقـط ، الان اشعر بالبرد ولا يستجيب لشكواهـا أيضـا ، كـل ما يشغلـه هو أن يتلقـى تأكيدا يشبـع نرجسيتـه بالقـوة والقدرة على تخويـف الاخريـن .

وينهـض نمـرود دون أن يمـد لها يد المساعدة ، دون أن يسـتر جسدها ويحميها من البـرد فتنهـض هي أخيرا ، وتربط شعرها — رغـم أنه هو الذي حلـه — وتقول المؤلفـة " أن رداءها الابيض كان مكوشا كما لم يعد يعد ونظيفا كما كـان من قبل " ، وهكذا تفقـد ايلـى باغتصاب نمرود لها وبعلاقتـه السادية بها ، وبموقفه منها من حيث هي مجرد موضوع لارضـاء نزواتـه وتدعيم حاجتـه النرجسية الى تاكيـد القوة تفقد صفائهـا ووجودها النقـى . لقـد حـرك نمـرود فيها جانبا خفيا هـو الجانب المازوخـى وبعد هذا الانتصار النرجسى يشرع نمـرود فى اصطحابها الى كـل من لامـخ وجدعـون . الى صديقيـه ويقول (ص ٨١) " اولهما ومالم يحصل فى حياته على امـرأة وهناك حجـر يجـثم على جسـده الميت ، وثانيهما سـوف لا يحصـل على امراة مـرة أخـرى لانـه لم يعد لـه جسـد "

وهكذا تجد نمرود يعرف في صلف وتعالى مجرد من كل انسانية ، صديقيه ، أو بعبارة أخرى والديه ، يعرفهما لايلى معن حيث عجزهما عن امتلاك المرأة، ولا تستطيع ايلى أن تتبين في جلاء مشاعرها أحست أن ثمة شيئا " فائقا " ولكنها لا تعرف مبلغ ايجابية هذا " التفوق " كأن نمرود يبدو للحظة الها ، الها للطبيعة والصحة وفي اللحظة التالية يبدو طفل عاجز ، ثم وحش صغيره ثم شاعر ثم يعود مرة أخرى سيدا أو الها " Lord

وتكشف المؤلفة لنا عن مشاعر واحاسيس البطلين تجاه الموت وهما يقتربان من قبر لامخ كان الموت بالنسبة لنمرود ينطوي على تأكيد لحياته ولبقائه ، أما بالنسبة لها فقد كان فقدان كان نمرود وهو في طريقه الى قبر لامخ ممتلئا شعورا بذاته ممتلئا بالاحساس بالانجاز ، الشيء الذي يدفعه الى حالة وجدانية " شيطانية " Satanic ، نوع من الصلف والانتفاخ النرجسي ، وعندما يبلغا قبر لامخ يقول لها " هنا يرقد الرجل العجوز ، والدي الثاني " " الربي لامخ من كييف " ويحدث شيء مفاجيء لنمرود ، تختفي ابتسامته البلهاء ورنة السخرية في صوته ويمسك برأسه بين يديه ، ويميل الى الامام للحظة وكأنه سيسقط مغشيا عليه ، وتدعه ايلى يسند نفسه عليها وتقول له " ما الخبر

يا عزيزى ، تعال دعنا نتحرك " ويجيب قائلا " لا أعرف ، رأسى ، اننى أقسو على نفسى فوق ما تطيق أحيانا " وتطلب منه أن يتحدث اليها فيقول لها أنا اتمنى لك ولكنه لا يستطيع ويضيف قائلا :" لم أكن اقصد السخرية من لامح ، لقد كان يعني الكثير بالنسبة لي ، انني فقط لا استطيع أن أغفر لنفسي سلوكي في السنوات الاخيرة من حياته ، لقد كان يفيض حزنا عندما ينظر الي لم يعد يؤمن بي بعد ذلك ، وكان كلما زاد حزنا زدت سعادة ، واسرافا في اغاظته والسخرية منه والرفض له . انني لا استطيع الحديث عن ذلك ، نفس الشئ بالنسبة لك ، أنك خير مني ، مثلما كان لامخ " . وتقول ايلي " انك تبدو مفزوعا للغاية " " استمر في الكلام أرجوك " ويجيب " لا لست مفزوعا ، أنني فقط مشمئز من نفسي مرتاع منها " . (ص٨٣) .

وهكذا نجد ما يشبه اعترافا من جانب نمرود بخطاياه ، ولكننا نجد ما هو أهم وأخطر كاد يقع مغشيا عليه ، بعبارة أخرى كاد " درع الشخصية " أن ينهار تماما ، ويقع في حالة من التفكك واختلال الانية Depers-onalization كاشفا عن فزعه وخوفه البالغ ، لحظة واحدة كاد نمرود فيها يصل الى شفا الذهان ، الى حزن ذهاني وندم مدمر وهكذا نتبين كيف أن خلقه هذا بكل ما فيه من صلف وغلواء ليس الا دفاعا عن خطر ذهاني .

على أن للامر وجه آخر ، فهذا السقوط المفاجيء للـدرع الدفاعي وإن كان يمكن النظر اليه بوصفه نتاج تراخي للخطة لقوى الدفاع ، الا ان من الممكن النظر اليه بوصفه لحظه من لحظات الاستبصار والسماح لجانب خفي من الشخصية بالظهور — جانب الحب والندم ورد الاعتبار للاخ لما له من قيمة نرجسية ، فقد كان لاخ الوحيد الذي يقبله كما هو في حب خالص لا يطلب ثمنا له تزييف المشاعر أو الوجود . ولعل ما تحقق لنمرود من اشباع نرجسي من خلال الفعل الجنسي بينه وبين ايللي ، بالاضافة الى احساسه بقبولها له كما هو من جانب ، واعلانها له ايضا انه رغم ذلك ينطوي على جانب طيب نقي ومعطاء لعل هذا الموقف مع ايللي قد أحدث توازنا جديدا يسمح لهذه اللحظه من الاستبصار واعلان الندم أمام قبر لاخ — طلبا للصفح والمحبة .

وبذلك يذهبان معا الى الاب الثاني : جدعون ، وعند جدعون ينال نمرود مباركته لحبهما معلنا لهما أن ما يحتاجه نيمي — NIMI هو الحب ، مناديا له بذلك الاسم ، أسم التدليل الذي لم يطلقه عليه قبل اصابته ، طالبا منه أن يذهب لاحضار زجاجات البيرة البارده ان جدعون يطلب من ايللي أن تجي اليه ذات يوم ليحدثها عن " نمرود عندما كان طفلا " قبل أن يصبح صخرة ، عندما كان شعره جدائل موجة

وكان صغيرا وضعيفا ، ويضيف جدعون فى استبصار نافذ " انه لا يريد ان يتذكر ذلك الان ولكن سيأتى يوم يكون ذلك ... يعنى طفولته هى الشىء الذى يجد لازما عليه ان يتشبث به " (ص ٨٤) بعبارة أخرى يقترب جدعون هنا اقترابا شديدا فى حدسه مما كان عليه لا ... فليس مصادفة أن الام كانت تنادى نمرود بقولها " نيمى " كما ينادى الان جدعون ، وكما كان يناديه الاخ بقوله " ايها الصغير " .

الا يشبه جدعون هنا ترسياس فى أوديب ملكا " لسوفوكليس ؟ ترسيا ... أعمى ، لكنه يبصر ، بصرا لا يتاح للمبصرين بالعينين يبصر الغد جنينا فى رحم الحاضر ، ويعجز عن ذلك المبصرون ، كذلك يفعل الكتاب والادباء ، فيجعلون أعمى ، أو أخرس ، أو أبله ينكشف له فى حدس نافذ ما يستغلق على فطنة " العاديين " وكأن فقدان ما لدى الناس — حواسهم مثلا من حيث هى رمز للنظر والفهم والحس السطحى وما ينطوى عليه من اقتراب الناس — شرط لابد منه لاعمال ما لديهم من بصيرة نافذة .

هكذا جدعون بعد " العجز " صار أنفذ بصرا وأعمق فهما فرأى كعراف — يستشرف الغيب نمرودا فى وقت آت يكون فيه الشىء الوحيد الذى يتشبث به هو طفولته وهذا ما سيحدث ، ورغم العذابات — عندما يصبح نمرود أبا لجدعون الجديد ، ولده من ايللى .

الفصل الثالث عشر

فى هذا الفصل الطويل نسبيا نرى ايلى فى حركتها فى المجتمع الجديد وفى تعرفها عليه واستجابتها له نعرف أن نمرود قد أعتبر نفسه فى حالة حب ، فهو يؤمن أنه يحب ايلى ، صحيح انه لم يكن يعرف عنها الا القليل جدا ، لكن ذلك لا يهم ذلك أنه هو الذى يحبها أما ايلى فهى لا تعدو كونها " موضوع " هذا الحب انها بالفعل مجرد " موضوع " شئ " وليس ذاتيا مستقلة لها اراداتها ورغباتها ورؤيتها هذا طبعا بالنسبة لنمرود الذى يعجز بحكم نرجسيته عن النظر اليها والتعامل معها بوصفها ذات مستقلة .

كانت بالنسبه له غريبة وجديدة على هذا المجتمع ، وكان يرى أنه يفعل شيئا طيبا اذ يحبها . كانت عواطفه بسيطه ، أو قل بسطه تبسيطا تفتقر معه الى كل عمق وشفافيه انسانيه كان يحبها لانه يقبلها ، ويسير معها ويضاجعها . ولذلك كله كان يأخذ حبه لها امرا مسلما به لا يخطر على باله أن من الممكن أن يتحول أو يتغير . عندما كانت تبدو حزينة أو مساءة كان يعتبر ذلك مشكلتها الخاصة لقد كان يفتقر الى الحساسية والرقة فى تناول أمور القلب .

لذلك تقرر ايللي ذات يوم أن تذهب للقاء جدعون بمفردها ، كانت خائفة ترضى بذلك التواصل المحدود الذى استطاعت تحقيقه بينهما وبين نمرود ، ولم تكن ترغب في افساده وربما كانت المشادة الصغيرة التي نشبت بينها وبين نمرود من بين أسباب قرارها بالذهاب الى جدعون .

وتذهب اليه لكن احواله لم تكن على ما يرام ، كان ذلك اليوم واحدا من الايام الصعبة بالنسبة له ، وما أكثر أيامه الصعبة في عجزه ووحدته واستبصاره الذي جاء بعد فوات الاوان . ويرفض السماح لها بالدخول ، ويقول لها : " اذا أردت ان تسمعي عن نمرود فاذهبي الى النبع ، فهو مكان اجتماع الاطفال سترين طفولة رجلك ومستقبل ولدك هناك " . وتدور الافكار برأس ايللي ، وتذهب ، ويزداد جدعون ضيقا ، ويتصاعد غضبه واحساسه بالعجز ويتعثر في سلم يسقطه أمام الباب فيعترض طريقه وكأنه متراس يحول دون فتحه وتتملك جدعون الرغبة في أن يجهد نفسه الى حد الموت ، أو الالم القاسي أو حتى التوقف عن الاحساس . ويملا صوت السلم الساقط أعصابه بالالم .. وهكذا نجد التعبير عن حالة جدعون في عجزه ووحدته وانطوائه على ذاته ، وارتداد قدر من عدوانه الى نفسه حتى ليتمنى الموت ، ان هذا المناخ العادي يعكس حالة جدعون النفسية والمزاجية . وتذهب ايلي الى النبع وتختفي حتى لا يراها

الاطفال ، و تقترب منهم فى حرج و تسمع أصواتهم ، و كان من بين الاطفال رامى RAMI ابن دينا الاصغر و كان قائد المجموعة ، و كان الاطفال قد اشعلوا نارا ، و كان رامى ينظر الى ساعته الجديدة ليحسب زمن مقاومتهم للنار و فى البداية كان الاطفال يضعون اصبعا واحدا فى النار و يسحبونه أما رامى فعندما جاء دوره فقد وضع يده كلها فى النار و هو ينظر الى ساعته و تغرس ايلى اظافرها بشدة فى شفتيها وقد امتلات بالتوتر عندما شرعت فى متابعة ما يحدث ، و عندما بدأت اللعبة "ارادت فى البداية أن تصرخ ، ثم شعرت بعد ذلك بشئ أشبه بالاعجاب ، ثم أحست بغثيان خفيف و لم تستطع أن تنظر ، و تحولت أفكارها الى نمرود " ، و لكن عندما جاء دور رامى و فعل ما فعله انطلق صراخها و تتابع المؤلفة بعد ذلك سرد تفاصيل الموقف و كيف هرع رامى اليها بعد أن صرف بقية الاطفال ، و كيف حاول تهدئتها مؤكدا لها انه لم يصب بأذى و أنهم كانوا يلعبون لعبة ، مجرد لعبة .

و لكن اضطراب ايلى كان بالغا ، حتى أنها كادت تشم رائحة لحم يحترق و تتدافق فى عنف ذكريات طفولتها حتى لتكاد تشم الحرب و تحسها بلى لقد احست و كأن جلدها يتمزق و كأنها تعذب (ص ٧٨) .

لقد كان الموقف بالنسبة لها صدمة Trauma بالمعنى الحرفى للاصطلاح فى الطب النفسى والتحليل النفسى - لقد فجر هذا المشهد كل احـــزان الماضى وجراحه ، الحرب ، وافران التفحيم ، وعذابات معسكرات الابادة وبخاصة شقيقها الذى كان آن ذاك فى مثل سن رامـــى .

وتلح ايللى على رامى الصبى بسوءالها : لماذا ؟ ولا يقـــدم الصبى لها اجابة شافيه ، الا ان يكـــرر مجرد اللعبة .

ولكن هل من السهل اللعب بالنار ، وهل يمكن أن تكـــون النار موضوعا للعب بين الأطفال ؟ هذا العبث الطفلى كان بالنسبة لهـا مثيرا لعذابات وعذاءات العالم - ومن بينهم اليهود - اطفال يحترفـــون وامهات تختنقن بالغاز الخانـــق .

وتقول المؤلفه : " كان كل شىء يتحرك فى دوائر سوداء وبيضـاء وحرائق وراحات صغيرة .

وتحاول ايللى ان تتمالك نفسها وتعود الى جدعون طلبا للمساندة والتهدئه والتفسير . ويسمح لها اخيرا بالدخول ، وتخبره بما رأت . وتتحرك مـــرة اخرى كل الآم الماضى وعذاباته ، ولكنها تريد ان تفهم والا لمـــا استطاعت ان تصمد ، ليس ذلك قاصدا على هؤلاء الأطفال ، بل بيـــت عون كلها ، بل وكل شىء بما فى ذلك نمرود واطفالها هى نفسهـــا يوما مـــا .

وهكذا نجد ان ما تطرحه ايلى للمسألة ، وما تبحث عن تفسير لـــه ، هو الوجود على ارض اسرائيـــل بجميع جوانبه ، وما لعبة من القوى الا نموذجا ورمزا يجسد بوضوح وتركيز كثافة هذا الوجـــود .

ان انشغال ايلى فى عنفه البالغ ليس مصادفة وليس شيئا خاليا مـــن المعنى او الدلالـــة ، لماذا يلعب اطفال اسرائيل ، الجيل الجديد لعبـــة " الحريق " ان الحريق ، حريق الجسد البشرى ، بكل ما يحمله من شحنـــة دمار هائلة ..... الا يقضى الحريق من بين جميع اشكال الموت على كل خليـــة حيـــة ؟ الا يحـــول الجسد الحى الى رماد تختفى منه كل معالم الوجـــود الانسانى ؟ بل والوجود الحـــى ؟ بل الا يأتى الحريـــق حتى على الوجـــود المادى الجامـــد ؟ .

أحست ايللى احساسا عنيفا بخطورة الأمـــر ، احست بصدق بما يتكـــرر على السنة العامة فيما يتعلق بمخاطـــر " اللعب بالنـــار " .

الا يضعنا ذلك امام ما اصطلح على تسميته فى التحليل النفسى بالتوحـــد بالمعتدى . اطفال بيت عـــون يفعلون بانفسهم — بصورة مخففة بالطبع . مـــا كان يفعله بابا شهم النازى . ان الموقف شبيه بعمليات التطعيم . جرعـــــة من احتمال الخوف ، حتى لايحدث انهيار امام الخوف الأكبر . ولكـــــن مشكلة التوحـــد بالمعتدى هى مشكلة كبش الفداء اذ يبحث المتوحد عن بديـــل له بتخفف ، عن طريق توجيه العدوان اليه من خوفه من ان يتكرر تعريضـــه هو للعدوان .

لكن الطبيعة الديالكتيكيـــة للوعى ، والوجود الانسانى تجعل الموقف اكثـــر تعقيدا ، ان المعتدى يرمى نفسه فى كبش فدائـــه .

أن الضحيـة تحرك مخاوف الجاني بقدر ما تخنقها ، ليس هـو الذى يتعوض وانما آخـر ، ولكن الاخـر هو ، وهكذا فالحلقـة مفرغـة ، وهذه مأساة السلوك العدوانى والاجرامى ، وهذا هـو الانغماس القهرى الذى لا مهرب منه ولا خلاص فى سلوك اجرامى لا يتوقف ولا يرتوى ويتأكد لنا ذلك عندما نذكر كفر قاسم ودير ياسين .

ورغم انتماء جدعون فى الاصل الى هذا التيار ، الا أن "جرحه" قد وفر له استبصارا بذلك كله ، فهو يرتعد باكيا عند تحدثه عما رأت وعما حركه هذا الذى رأته من ذكريات جارحة ولكنه يشرح لها منطق ذلك فيقول " ولكن اخيك لم يسأل هما اذا كان يريد أن يتعذب ، ولكن الدرس الذى علمنا اياه هو أن علينا أن نتعلم كيف نرد الاعتداء . ولذلك تعلم أطفالنا " .

ولكنه ينسى أن الذى يحدث ليس رد الاعتداء ، وانما المبادرة به والبحث له عن كبش فداء ، عن بديل يقوم مقام المعتدى الحقيقى .

ولكن جدعون رغم ذلك يحدثها عن نفسه بوصفه ضحية الشجاعة الكاذبة الزائفة ، ويقول أنه فطن لذلك متأخرا جدا ، ويؤكد لها أنها ستكون ضالعة فى مثل هذا وانه سيتسرب فى داخلها وأنه سيأتى وقت لا تناقش فيه مثل هذه الامور ، بل ستقبل ذلك . ان الذى يعنيه جدعون ان طبيعة الحياة ، وطبيعة المجتمع وتكوينه الايديولوجى تجعل تطور الامور فى هذا الاتجاه حتما لا مهرب منه .

ومع ذلك نجد جدعون في نهاية حديثه لها يقول " ابسطي رعايتك على نيمي NIMI ، فهو محتاج لها ، وكوني حريصة ، فهو اكثر الرجال اعتزازا بكبريائه . فقط رعيه يبقى كذلك . فانا اخشى ان يكون الا وان قد فات لتغيير صخرة الى نبات حي ومتنفس" وتجيب ايللى بأنها تحب نمرود ولكنها خائفة .

وينتهي الحوار حول " اللعبة والقوة والحريق " ويشرعان في ارتشاف الشاى ، وهما يشاهدان غروب الشمس وما يعرب عن امكان استعادة الوئام والتقارب .

وعند ذلك تدخل " رينا " RINA وهي رفيقة نمرود وفي مثل سنه وهي تقوم بأداء الاعمال المنزلية لجدعون ، كما تعد له طعامه احيانا ، ويقال انها على وشك الزواج من " عودى " Udi ابن سائق جرار القرية .

ونتعرف في رينا على بنات الجيل الجديد كما تعرفنا في نمرود على شباب الجيل الجديد .

وتقول المؤلفة أن ايللى " فهمت " رينا اقل مما فهمت نمرود بعبارة اخرى تمثل ايللى ورينا نموذجين متناقضين ، ايللى الفتاة اليهودية الاوربية في " الشتات " ورينا الفتاة الاسرائيلية الصهيونية من بنات الجيل الجديد انها اذن بمعنى ما المقابل الانثوى لنمرود .
ولذلك فاسباب عجز ايللى عن فهمها واحدة . كانت رينا وكأنها تحتل

مكانا مابين عالمين ، عالم الطفولة وعالم الراشدين ، وان لم تكن طفلة تماما ، فهي تفتقر الى سحر الاطفال وتبعد عن عالم الاحلام الذى يحلقون فيه ، كما انها بعيدة عن عالم النساء الناضجات.

صحيح انها كانت حسنة الشكل - معتدة بنفسها ولكن ثمة شيء " ذكرى " يسمها ، لم تكن ضريرة أو قبيحة الشكل ، ولكنها كانت تفتقر الى الانوثة ... وتصفها المؤلفة بقولها " أن المرأة في داخلها قد ماتت في مكان ما ، حيث تحلب الابقار ، أو ترعى الحقل او ترتدى السراويل . وتقول المؤلفة (ص ٩١) أن معظم الفتيات في القرية كن عاملات جادات ... ولكنهن كن - مثل نمرود - يفتقدون شيئا ما ، ينقصه في طريقهم الى الانوثة ، أو الرجولة .

هذا الشيء بالطبع هو المذاق الانسانى بعمقه وحساسيته المراهقة للاخرين وعواطفهم ومشاعرهم . انه الدرع الدفاعى " الذى يتحصنون خلفه مخافة انبعاث الخطر القديم .

لذلك يكون النفور متبادلين بين الفتاتين ، لقد كانت رينا تغار من نضج " ايللى " وتبادر رينا فور دخولها ورؤيتها لايللى بقولها لجدعون " هل تتحدثون عن الفساتين " كما تقول انني ارى ان لا لزوم لي فلتعد لك صديقتك الشقراء طعامك " (ص ٩١) ويثور جدعون عليها ثورة عارمة ويقول لها " لو كنت استطيع لصفعتك " " ما اشد قسوتك وغيرتك " كذلك يصف جدعون ايللى اكثر انسانية منهم -

هو وهي والمجتمع الاسرائيلي كله • وعندما يصفها جدعون بأنها " أمرأة مدهشة " تثور ثائرة رينا لاستخدامه هذه الكلمة " امرأة " مما يبين لنا مدى غيرة رينا من ايللي وما تتمتع به من انوثة تفتقر هي اليها ، انها ترى في ايللي انوثتها قبل سلبها ، أو بعبارة قبل تشويهها ، فكما شوه جدعون في الحرب - بالبتر - شوه نمرود في السلم - بتأثير شخصية والده وبتأثير المناخ الايدلوجي في مجمله ، كذلك شوهت رينا فجردت من انوثتها •

وعندما يحتدم النقاش بين رينا وجدعون - الذي ينحاز الى صف ايللي تماما - يصارحها قائلا " لا يا رينا انك لست امرأة ، ولن تكونين امرأة ابدا ، صحيح انك ستكونين زوجة طيبة واما ، وستطهين الدجاج والبطاطس وتصنعين الشطائر الدسمة والعجة ، ولكنك تفتقرين الى الحساسية وارادة التفهم ، والقدرة على العطاء من ذاتك •

وتكشف لنا المؤلفة عن ادراك جدعون لبعض الخصائص - الجسدية المنفرة لدى رينا ، فهي غليظة العقبين ، وشعرها غير مصفف ، أما ساقاها فيغطيها شعر أسود كثيف • كما ان بلوزتها تكسوها البقع الكبيرة والقذرة " (ص ٩٢) •

وهكذا نتعرف من خلال حركة ايللي على جيل الاطفال الناشيء

والعابهم الدفاعية ، كما نتعرف على جيل الفتيات ناقصات الانوثة .

كما نتبين عمق وعى جدعون بمأزقه ومدى فهم لعجزه عن التعايش مع هذا المجتمع المشوه فى جوهره وانسانيته ومع ذلك فكما كان لامخ يمثل قوة الحماية والتوازن والحفاظ على ماهو انسانى وايجابى فى التراث اليهودى ، فان ايللى تمثل بدورها شيئا مماثل . تمثل الانفتاح على التراث التاريخى اليهودى فى التحام بمسيرة التاريخ الانسانى بعامة وبالحضارة الاوربية التى نشأت فى احضانها بخاصة .

ولكن اذا كانت الهزيمة - ربما الموقتة - مصير لامخ فهل يكون مصير ايللى مماثلا ، هذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال الفصول القادمة .

الفصل الرابع عشر

يدور هذا الفصل حول رحلة الى تل ابيب والقائمين بهذه الرحلة وملابساتها ٠ ففى البداية تعرض المؤلفه لنظام التجنيد والدفاع والتدريب واشتباكات الحدود مع السوريين ٠٠٠٠ الخ ٠

وهكذا تتشكل جماعات للدفاع عن القرية يتولى نمرود قيادة وحده من وحداتها ٠ كما يفد على القريه آخرين للمشاركه فى اعمال التأهب والدفاع وتحدثنا المؤلفه عن شخصيتين يرتبطا بابطالنا بروابط وثيقة ٠ احدهما زكى اليمنى الذى يتعلق بنمرود اشد التعلق وينظر اليه وكأنه آله اسطورى اما الثانى "يورام " Yoram ابن المدينه الذى يتجه اعجابه الى رينا ٠

وتحدثنا المؤلفه عن حب يورام لرينا واعجابه بجسمها الضخم وعينيها العسليتين ٠ ويديها القويتين واخلاصها الكامل " ويقولون انها ستتزوج من عودى زميل نمرود القديم وقائد جماعته فى لعبه " من القوى " وان يورام ليست امامه فرصة ٠ وكان يورام نظيفا انيقا وعلى قدر من الحياء ٠ ولكنه كان جنديا جيدا ٠ ويملك ابوه مصنعا ٠ وينوى يورام ان يواصل عمله معه ٠

كان يورام يرى ان رينا تتصف بتلك الصفات التى تفتقر اليها فتيات المدينه ٠ لذلك فتن بها ٠ لقد ضاق بالاستعراضية وبالانوثة الزائفه المصطنعة بين فتيات المدينه كذلك يرى فى رينا زوجه واما مثالية ٠ وكان يتخيل نفسه وقد وفر لها الملابس الانيقة ٠ واراحها من العمل اليدوى وجعلها تمنى

بشعرها بل وربما ايضا قد تضع صبغة من طلاء الشفاه .

وهكذا نجد اعجاب يورام فتى المدينه الثرى بفتاة قرية بيت عون الفلاحة المزراعة على مغايرتها لصورة فتاة المدينه المدلله المسرفه في اظهار انوثتها المبالغة في تاكيد رقتها وضعفها . كذلك تمثل رغبة يورام في تعليم رينا وتنويرها وتحضيرها بعض الاشباع لميله التي تحقيق ذاته والظهور هو الاخر امامها بان لديه ماليس لدى عودى . وانه سيتيح لها ما لا يستطيع من كان مثل عودى ان يتيحه لها .

ان رينا تتبهو بما يظهره لها يورام من اهتمام . فالزهور التى يقدمها لها مساء كل جمعه . وكتاب الشعر الذى اهداه اليها .... كل هذا يحرك فيها تلك المشاعر والنوازع الانثوية - التى وجدنا انها تبدى في الفصل السابق مباشرة - استهانة بها وانكارا لها . بل انها فى حديثها مع حدعون قد ابدت استخفافا بكل ما تتسم به ايللى من رقة انثوية .

وهكذا نجد هذا الفصل يكشف لنا من خلال الرحلة الى تل ابيب . ومن خلال القائمين بهذه الرحلة نمرود وايللى . يورام ورينا . ثم معهم الى منتصف الطريق الذهاب فحسب زكى اليمنى . عن ضروب جديدة من التناقض والصراع . ويكشف لنا ايضا عن ضروب متباينه لمواجهة هذه الصراعات او حلها . او التراجع عنها او التعايش معها .... الخ .

نساء قرية بيت عون كن يعتبرن زواج عودى من رينا امرا واقعا الى ان جاء الى القرية يورام . فايقظ مجرد وجوده . وسلوكه الجانب الاخر الوجه المرفوض من رينا . الانثى . ولا شك ان رفض رينا لانوثتها كان ضرورة موضوعية ونتاجا منطقيا للمناخ والسياق الاجتماعى الذى تعيش فيه . فهى ابنة قرية بيت عون . ما الايديولجية الصهيونية الاسرائيلية فى اكثر صورها تطرفا متمثلة فى

ذلك الجيل الجديد الجيل الشهير بجيل " السابسرا "

رينا اذن قبل مجيء يورام كانت كائنا مزيفا - مثلها مثل جدعون ولذلك كان نفورها وكراهيتها لايللى ليس مجرد نتاج لغيرة مباشرة وبسيطة ، غيرة ترجع الى افتقادها الى ما لدى ايللى ، وانما كانت شيئا أعمق واشد تعقيدا ، كانت ترى في ايللي ذاتها منفيه ، ايللي هي ذلك الجزء المرفوض من رينا ، ورؤية رينا لايللى يمثل اغراء وغواية وتهديدا بانبعاث ذلك الجزء ، ولكن وجود يورام واعترافه بظاهر رينا - او قبوله لما هو ايجابى فى هذا الظاهر - ثم تودده لها كل ذلك وفر أمنا واعترافا واتاح مناخا يسمح بالتدريج بظهور هذا الجانب المطموس ولعل ما يلفت نظرنا استجابة عودى نفسه لهذا التهديد والمنافسه انها الاستجابه الدفاعيه الانكارية التى تدعم الاستعلاء وتؤكد العجب النرجسى انه يقول " لايهم " انني استطيع شراء الكتب فلنرى ان كان يعرف كيف يحلب البقرة ... انني اعرف ان رينا فتاة بيت عون اليس كذلك ، فليكشف الاحمق عن كرمه ، ان كتيبته ستترك القرية ذات يوم ، وسيعود الى تل ابيب والي مصنع ابيه " وهكذا يكشف عودى قائد الاطفال السابق عن صلفه وغروره وعجزه فى الاستئثار بمن يحب اذ لا يعود يورام بمفرده ، وانما تعود معه رينا تاركة خلفها عودى .

وتعرب المؤلفه فى حذق ومهارة عن تمزق رينا ، فهى تجلس لتغزل رداء ثقيلا لعودى ولكن خواطرها تتجه الى المدينه ويهدئ ذلك من مشاعرها نحو ايللى .

وعندما تلتقى بنمرود يقول لها " انت ويورام ، وماذا عن عودى ؟

وتجيب رينا قائلة " ما ذا عنه ؟ الآن نساء القرية تعتقدن اننا سنكون زوجين ويهلسن بذلك ؟ ليس لهذا معنى على الاطلاق "

وهكذا تعلن رينا لرفيق عمرها عن انصرافها عن عودى وعن القرية وحياة الزراعة وكل مايتصل بها وعندما يبدى نمرود دهشته ويقول "لكن يورام لن يصبح مزارعا أبدا" نراها تسارع فتقول "أيه يعنى ؟ وهل نذرت للزراعة ؟" .

وهكذا تتحول رينا تحولا كاملا وفى الاتجاه المضاد تماما ، لكل ماكانت ترفضه وتستنكره من قبل .

وتناقش رينا نمرود فى أمر ايللى ، فكما ان يورام ابن المدينة وهى ورينا ابنة القرية - فان ايللى ابنة المدينة ونمرود ابن القرية .

وتتجلى لنا ابعاد التحول وتكتمل عندما تسنح فرصة للسفر الى تل ابيب فى احدى العربات العسكرية ، ويذهب يورام بصحبة رينا ، ويصطحبا معهما نمرود وايللى ، وايضا يأتى معهما زكى لجزء من الطريق فقط .

وأهمية زكى هذا أنه يكشف لنا عن ميل نمرود الى التحكم والقيادة فزكى هذا تابع مخلص وامين لايطيق الابتعاد عن نمرود انه يرى فيه مايشبه الالاه او البطل الاسطورى - ونلاحظ ان زكى متدين يحافظ على الصلاة كذلك يتحدث زكى نفسه عن شجاعة نمرود وعن جبنه هو نفسه بالقياس الى نمرود .

ويصل المركب الى المدينة الكبيرة ، ويصطحب يورام الجمع الى

مقهى فى أحد شوارعها الكبيرة ليروا حياة المدينة البوهيمية .

وعلى المقهى يحدث ان يسأل احد الرواد نمرود عن موطنه فيذكر له نمرود اسم القرية ،وعندما يسأل احد عن مكانها فينهض نمرود منصرفا عن غضب " ان نمرود يتصوف لشعوره بانه اصبح غريبا ونكرة فى هذه المدينة الكبيرة .

تغص المدينة بحياة الرفاهية والاستمتاع وترى المجموعة رجلا ملتحى يحيط به جمع من بينهم فتاة طويلة ورشيقة والرجل يتحدث " وكأنه موسى يبعث حيا " عن علم الجمال والادب والسياسة وتجد رينا صعوبة فى متابعة وفهم مايستخدمه من مصطلحات فتشعر بنوع من الدونية المهم ان المؤلفة تتناول بتفصيل حياة المدينة من جانبيها المرفه الزائف ، حيث الكلام للكلام ، مجرد حديث ، ومباهاه وتظاهر بالثقافة ويورام يشعر بالالفة فهو ابن المدينة . أما ايللى المجرية ابنة بودابست ، فتشعر بالنفور والغثيان ، وتعاودها احزان الماضى ان تل ابيب ومقاهيها هذه الفخمة تذكرها بالحضارات الكبرى لندن ، وباريس وروما ، وحتى اثينا .. تستشعر الزيف والمبالغة والادعاء وتشعر بالحنين الى بيت عون وكل ماهو صادق بها وعندمايعلن نمرود غاضبا عن انصرافه تبدى رينا اسفها وتقول " اننا لم نكد نبدأ بعد ، انتظر ، اليس هذا ظريفا بالنسبة الى بيت عون ان كل شئ سيد وكثيبا عندما نعود تحدثى ليلا .

وهكذا تكشف لنا الرحلة عن صورة مغايرة تماما ، لما وجدناه فى الفصل السابق مباشرة فى اللقاء العاصف بين رينا وايللى عند جدعون ها هى ابنة المدينة ترى فى القرية الصدق والخلاص ، بينما ابنة القرية ترى فى المدينة الحياة والمتعة .

وهكذا ينصرف نمرود وايللى ، وهما فى حاجة الى هواء نقى ، بعبارة اخرى فى حاجة الى التخلص من زيف المدينة المزدحمة والمنافقة ... ويسيرا فى اتجاه البحر ويلتمسا فى شاطئه ورمال شاطئه الراحة والطمأنينة ويخلعا وهما يسيران فوق رمال البلاج نعليهما .

وعلى الشاطئ يجلسان معا ليتبادلا الحديث ، وتتساءل ايللى هل تحب رينا يورام حقا ، ويشرح لها نمرود رأيه لكنه يتطرق الى حديث خاص بهما ويطلب اليها ان تختار بين المدينة والقرية فليس ممكنا الجمع بينهما ، وهنا تغضب ايللى غضبة عنيفة ... لانها احست بما وراء ذلك ، فقد أثار تحول رينا عن عودى الى يورام ، وتفضيلها للمدينة على القرية مخاوف نمرود ، خاف فى اعماقه من هجر ايللى ابنة المدينة له . ويبدو ان موقف نمرود كان اقرب الى المثل العامى القائل " وقوع البلا ولا انتظاره " اراد نمرود الا يتعرض لهجر يفاجأ به . وهذا يعنى أنه كان يشك ولو بعض الشئ فى حب ايللى له ، مما يكشف عن طبيعة قلقه متشكك ، مستتر وراء مظاهر القوة والصلف الدفاعى ، ومما يكشف ايضا عن فقدان نمرود لتلك الحساسية المرهفة التى لو كانت لديه ـ لتأكد من مدى حب ايللى له .

وتقــول له في النهايــة " لقــد وجدت ماكنت ابحث عنــــــه ، وجدت وطنا ورجلا أحبــه ، وعـــا جادا ، وأصدقاء وطعاما "

ويعتذر نمــرود . وتسأل ايللــى نمرود اذا كان يحبها فيجيبهـــا بالايجاب . ان سؤال الفتــاة له يكشف عن ضرب من الاستبصـــار وان كان نسبيـــا بحقيقــة مشاعر نمــرود ، انه يحبها هذا صحيـــح لكنه حب طفلــى نرجسى وينتهى هذا النقاش باستعادة الصفـــاء والمصالحة ويتزهــه على الشاطئ وتبادل القبلات والمداعبات .

وتقــول المؤلفــة " ولكن وكما من قبل يصبح فجأة هو وحده بعبارة أخرى ما أن تتصاعد رغبة نمــرود الجنسية حق تجمح به جموحا شديـــدا يفقــد معه كل شعور بالاخــر ، لم يعد هنتك وجود الالاه وحده ولرغبتــه وحدهــا أما الشريك فمجرد شئ ، مجرد موضوع لازم لاطفاء لهيـــــب هذه الرغبـــة .

وتقول أيضا " وكأنما تغزعه الرقة ، فيضحك قائلا : لقد سألتـــك لاختبرك ، وأنا أعرف أنك ستكونين معي ومع بيت عون — دائما " .

هذه هي مشكلة نمرود ، في القلب رقيقـــا ، لكن على السطح شئ مخالفا تماما ، درع للحماية والوقايـــة . ولعل هذه هي مشكلته مـــع ايللــى ثم بعــد ذلك مع ولـــده .

———————

الفصل الخامس عشر

يتصاعد التوتر على الحدود السورية الاسرائيلية . ويعـــود نمرود من رحلته الى تل أبيب وقد تزايد توتره ويسائل نفسه لماذا كل هذا القلق والتوتر والانغماس اذا كان من الممكن الجلوس على مقهى في هدوء . وعندما يسأله أبوه ما اذا كان سيحدث شئ يجيبه قائلا أن الناس في المدينه يريدون التعايش السلمى ما أسهل الكلمات وكأننا نريد الحرب . وتذكر لنا المؤلفة أنه كان يكذب فقد كان يريـــد الحرب ، ويريدها الان أكثر من أى وقت مضى . وتقول أن أزد واجية نمرود قد بلغت مداها ، فقد أراد أن يقفز في النار وأن يثبـــت نفسه ، أو أن ينكمش ويدخل نفسه ثانية داخل رحم أمه أو يضعهـــا بين ذراعى ايللى .

نكاد نحس في موقف نمرود هذا ضربا من ضروب الغيرة وغيرة الريفى يشقى ويكدح وغيرة ينعم ويخلد الى الراحة ، غيرته من رفاهيـة أهل المدينة تحرك فيه رغبة أشبه برغبة من يقول " على وعلى أعدائى يارب " ومع هذا فصاحب هذا القول كان شمشون بطلا أسطوريـــا يهوديا .

هذا بالاضافة الى طبيعة نمرود وشخصيته العدوانية والانتقامية التى تجنح الى التحدى وتأكيد الذات . ولعل مشاغبات الحـــدود كانت المبرر أو المحرك لميول نمرود العدوانية الحقيقية الموجودة قبـــل وقوع هذه المشاغبات المهم أننا نجد النقيضين معا ، أقصى درجات

الارتداد لا طفلا رضيعا بل جنينا بين أحشاء أمه ، أو بين ذراعي بديلها ــ ايللى .

وعندما تعرض أمه عليه ترتيب حجرته وتنظيمها ، وقد كان في هذه اللحظة يفكر في عمل عسكرى ــ محتمل ــ وتسأله ما اذا كان لا يمانع في اعطاء أرنبه الدميه لطفل دنيا الصغير ، نراه يسارع بالرفض ويطلب منها أن تتركه مكانه . لازال اذن لامخ باقيا في وجدانه لا يستطيع التخلص منه كلية . لقد كان يريد أن يريه لايللى ، بل وحتى أن يعطيه لها . مبررا ذلك بتصوره أن ايللى طفلة في نهاية الامر قد تحبه . ولكننا نعرف أن ايللى "أمرأة" ناضجة كاملة الانوثة ولكن لما كان الارنب في نهاية المطاف ليس الا الرمز أو المقابل المادى لذلك الجانب الطفولى منه الجانب الرضيع اللاعب ــ البيزنطيقى فكيوبيد في الاساطير اليونانية طفل لاعب .

الهدية في نهاية الامر عطاء وخطاب وتعبير عن صاحبها ، أن نمرود وقد خطر على باله أن يعطى الارنب لايللى . انما هو كمن يقدم ــ بصورة ما ــ بطاقته الشخصية لمن يحب مطالبا اياه بالاعتراف والتقدير .

نمرود كان يتمنى لو تقبل ايللى الطفل في داخله وتعترف به وترعاه . وعندما يلتقط نمرود الارنب (ص ١٠٣) يفيض بدفء وحرارة لم يألفها ، كانت الدميه بجوار الارنب ولكنه لم يمسها قد صار يحمل الان بندقية ، ويقول لنفسه "اننى لا استطيع أن أطلق النار على أرنبى طلقة وأن أقتله ربما كان لامخ قد وضع بداخله روحانية" (ص ١٠٣) هذه الجملة الاخيرة كافية لابراز ، مكانة الارنب

الدمية ، اسمها أنه بعض روح نمرود ، لامخ حية وباقية فى رمزهـا ، الارنب • لذلك تقول المؤلفة أن دفء غير مألوف ملأ نمرود عندما التقط الارنب انه الدفء الداخلى الذى لم يخبو أو يختفى فى نفس نمرود • بل أن خواطر نمرود تذهب به الى يوم يكون له ولايللى طفلا يعطيانه هذا الارنب ، بعبارة أخرى يأمل نمرود فى اعماقه أن يأتى يوما يكون فيه لامخ الاب ويكون له نمرود الابن كما كان طفلا بالنسبه للامخ •

ولذلك أيضا نجد نمرود نفسه قادرا — فجأة — وللحظة قصيرة قادرا على اللعب بدمية ، وعلى الافراج عن شئ فى داخله طـال احتقاله ، ولكن هذا الاسير لا ينعم بالحرية الا هى لحظة يعود بعدها الى الاسر • وتشير هنا (ص ١٠٢) المؤلفة الى ثمرة السابـــرا ، الحلوة المذاق فى داخلها ولكنها مع الزمن تنمو وتزداد قشرتهـــا قوة ، ويكون نمو هذه القشرة الى الداخل فتخنق الثمرة ذاتهـــا وتقتلها ، تقتل حلاوتها ، تقتل نيمى NIMI الصغير النبيل ، نيمى العهد القديم والزمن الماضى •

ويذهب نمرود الى ايللى ، التى كانت مجهدة ، ولكـــن ابتسامة نمرود عندما رأته مسحت تعبها وكادت تغفر له شكوكه فيهـــا واختباره لها فى تل أبيب • وتعتقد أنه لن يفعل ذلك ثانية ، هذه كانت مشاعر وخواطر ايللى لحظة وصول نمرود اليها ومعه الارنــب ، ويعرض عليها الارنب ، وفى ظل هذا المناخ تتحرك ثانية شكوكهـا ، وتعتقد أنه يختبرها مرة أخرى ، ويعتقد أنها طفلا غبيا وأنه يريـــد أن يعرف ما اذا كانت عاطفية عديمة القيمة ، أم انها كبيرة ناضجـة •

ان من المفروض أن تسخر من اللعب كما يفعل وأن تنحاز الى صفة ضد توافه الحياة ، وأن تنسى ردود الافعال البريئة والطفلية ، وأن تصير جادة وساخرة . وستكون كذلك . (ص ١٠٤) واستنكرت أن تكون موضع اختبار من جانبه ، انها تعرف ما هو المتوقع منها ، وخططت لتحقيقه ، وقررت النجاح ، وأن لا تنسى .. " وهكذا ترد ايللى على نمرود ردا فيه رفض واستنكار ، تؤدى ، أو تمثل ما هو " مقبول " فى هذه الحياة الجديدة ، وهذا المجتمع الجديد ، بذا نجد أنه فى اللحظة القصيرة جدا التى يحاول فيها نمرود أن يرفع أقنعة الزيف ، نجد ايللى ترى نفسها مضطرة الى اصطناعها . بل أنها تمعن فى السخرية حتى لتقترح على نمرود أن يعطيه لزكى ، وهكذا تتخذه كبش فداء ، وتسقط عليه ميولها الداخلية التى لا تستطيع السماح لها بالتعبير تماما كما فعلت معها رينا عند جدعون قبل رحلة تل أبيب مباشرة . والطريف أن ايللى تأخذ سمة الفتاة الاسرئيلية فتاة السابرا ـ فتقول له انها تفضل زوجين من الارانب الحقيقية حتى تقوم بتربيتها فى المزرعة كما تقول له " اذا كنت تريد أن تقدم لى شيئا فأنا أريد مقصا لأقطع به الورود " ان هذا الطلب ينطوى على معنى أو دلالة رمزية مزدوجة ، فالمقص أداة عملية مادية ، كما أنه أداة حادة للقطع بما ينطوى على عدوان وان كان محكوما ، ولكنه لقص الورود . مما يتضمن فى ثناياه قيمة جمالية أنثوية .

وتعتقد ايللى أنها نجحت ـ وهكذا يفقد الموقف تلقائيته وتحل الريبه والشكوك محل . التواصل التلقائى ، ويبدأ الزيف والاغتراب . تنتقل ايللى بعد ذلك الى الحرب ، أو الرد على

الاستفزازات .. وهكذا ينصرف نمرود حاملا معه ارنبه ـ ذلك الوجود المنبوذ ـ وقد زايله الشعور بالسعادة ويتذكر أن ايللى قالت له فيما مضى أنها " أمرأة " ولذلك ربما كان عليه أن يعطى الارنب العديم القيمة والمثير للاضطراب لشخص آخر ، وهكذا بعد أن جال بخاطره أن يبقى الارنب فى حوزته هو وايللى الى أن يعطيانه لطفلهما ، هكذا يصبح مثيرا للاضطراب وعديم الجدوى وهكذا يطرود العدوان الوداعة ، ويقضى شبح الحرب على أحلام الرضا والسلام النفسى .

ولذلك يلقى نمرود بالارنب عندما يصل الى حجرته ، فلا يحدث صوتا ، أى لا يصدر عنه احتجاج فيرفعه ويلقيه مرات دون جدوى ويتمنى لو كان زجاجيا فيهشمه خطأ ، وتبدو له عيناه انسانية للغاية بعبارة أخرى يسقط عليه احساسه بالاثم ، فتبدو له عيناه كما لو كانت تعاتبه وأخيرا يلقى به فى دولاب خلف كتبه فى مكان سحيق حتى لا يخرجه منه مرة أخرى . بل أنه يحول رأسه وعيناه الى الحائط

وبعد ذلك مباشرة ، وفى نفس الامسية يقرر الذهاب الى " الجبل الابيض " ربما اصطحب زكى معه ، واذا رفض سيذهب بمفرده ، وسيكون ذلك أفضل . وعندما يلقى زكى ويعرض عليه الامر يقول اليمنى : <u>هل أنا مجنون ، أعبر الحدود الى أرض الاعداء ؟ أتسلق جبلا ؟ لماذا ؟</u> (ص ١٠٦) وهكذا نجد زكى الجبان الرعديد يتخذ موقفا عمليا موضوعيا ويطرح على مثله الاعلى هذا السؤال : لماذا ؟ ويذهب نمرود بمفرده ، فهو كما يقول " تلقى

تدريبا كافيا فى التسلق ثم الهبوط : بسرعة ليلا ، وفى حالة الخطر

ويبقى السؤال قائما : لماذا ؟ ويعجز نمرود عن العثور على اجابة . وتقول عنه المؤلفة : (ص١٠٦) " لم يستطيع نمرود أن يجيب على هذا السؤال أبدا . لقد كان الذهاب الى الجبل الابيض كل ماضيه ومستقبله مجتمعين معا .. لقد كان الامر شديد البساطة والوضوح ومع ذلك لم يستطع أن يفسره لنفسه . لقد كان احتجاجا وضراعة ، جميع المعارك التى لم يستطع خوضها ، جميع المستنقعات التى لم يساعد فى نزحها ، وجميع الافعال التى لم يكن بطلها " .

وهكذا تكاد المؤلفة تكشف فى صورة شعرية بلاغية عن سبب هذا الفعل ، تحقيق مكثف لهويته لوجوده ، فى أعمق مستوياته تحقيق الذات بطولة ، فخارا واعجابا ، ولعلنا لا ننسى أن حلم الصعود وارتقاء الصعب كما نقول فى لغتنا العربية ، وركوب المهالك كما أيضا نقول ولد مع ميلاد نمرود الطفل منذ السطور الاولى فى الصفحة الاولى من الرواية فلقد كان صعود أعلى اشجار بيت عون أعظم امجاده ، قبل أن يبلغ التاسعة وكان صعوده الجبل مع ابيه وجده عون أكبر افراحه ، وظل ينظر الى الطرف الاخر من البحيرة ، ويرنو الى قمتها المغطاة بالثلوج ، وتتوافد على خواطره قصص ابيه ولامح ، وقرى الموطن الاول فى روسيا وغيرها وقمم جبالها الثلجية .

وتضيف المؤلفة فى الفقرة التالية من نفس الصفحة ما يزيد الامر وضوحا : " لقد كان ايضا الاشعار التى لم يقرأها ، والورود التى

لم يقطفها ، والسماء التى لم يعانقها ، والمخاوف التى لم يستشعرها اجتمعت كلها فى مجرى واحد ، تتدافع وتتصارع وتطلب الحرية، وكأن الصعود هو الحرية . أن يعبر ، وأن ينسى الحدود ، والبلدان ، والسياسة . كان يريد أن يعبر لان الجبل كان أبيض ، كما كانت الجبال فى بعض قصص لامخ الخيالية ، ولانه كان نظيفا ونقيا ، وكان يبدو فى بعض الايام شديد القرب حتى لتستطيع أن تلمسه . سيذهب الى الجبل الابيض ويتسلق قمته الثلجية ويلمسها ثم يعود ثانية .

وهكذا ايضا نجد المؤلفة تقودنا بحديث لماح ومن خلال صور رمزية شاعرية الى أبعاد أعمق غورا تدفع نمرود الى الجبل . كان يريد أن ينسى الحدود ، لا تلك التى تفصل بين سوريا واسرائيل كدول متعادية وانما تلك التى تفصل بين القرية والمدينة ، بين بيت عون وتل أبيب بين اسرائيل والمجر ، بين اسرائيل وروسيا ، ومن ثم تجاوز الفواصل بينه وبين لامخ وبينه وبين ايللى وايضا الحدود بين نمرود الطفل الوديع (الارنب) ونمرود الصخرة . كان يريد أن يرتقى الجبل الابيض ويلمس قمته الثلجية البالغة النقاء والصفاء ، صورة تخييلية بالمعنى التحليلى النفسى العميق لثدى الام ولينهما فى صفائه وبياضه ونقائه . كان يريد ان يلمس السماء ويعانقها . مرة أخرى الام فى أسمى وارفع وايضا أبعد صورها منالا .

وايضا تقول المؤلفة أنه كان يريد ان يلمس قلب الاه الشخص الذى ترك المعبد منذ سنوات طويله ليستقر بين حبات التراب ، وفروع الاشجار . وأكوام الدريس والمرتفعات فى هذا الجبل .

وتحاول المؤلفة فى السطور الاخيرة من هذا الفصل ان تحلل دوافع هذا الفصل فتقول (ص ١٠٧) " لقد كان من الصعب جدا تحليل هذا العمل ، ومعرفة مبلغ ما ينطوى عليه من غباء الشباب ومبلغ ما اسهمت به الجاذبية الفيزيقية للجهل وللثلج وأيضا الدور الذى لعبه البحث عن الخطر . بل وربما كانت الرغبة اللا شعورية فى مواجهة الخوف ، الذى كان عنصرا داخليا يفوق فى قوته نمرود نفسه وربما كانت الغاية اعادة اكتشاف الدلامخ وربما ان يستعرض وان يدعم سمعته كصخرة . وربما كان الامر يرجع الى نقصان الثقة والرغبة فى اظهار مقدرته ، أمام نفسه وان يحقق المثل الذى رسمه له والداه وقريته ، وأهله ، ثم هو من بعدهم لنفسه .

وهكذا فقد كانت الرحلة نتاج اجتماع كل الدوافع الشعورية واللا شعورية ، ونتاج ايضا تدافع وتصارع كثير من المواقف المتناقضة فقد أثارت رحلة المدينة شجنا كثيرا ، وصراعا شديدا ، كما ان قصة الارنب وموقف ايللى منه قد دفعت به الى التماس هذا الطريق مخرجا مما هو فيه عندما رفضت ايللى طفولته وجانبه الطيب فقد ابتلعتها دوامات الحياة الاسرائيلية ودفعتها دفعة الى حياة تقوم على التنكر لما هو طفلى وديع مسالم فى الوجود الانسانى .

الفصل السادس عشر

تخصص المؤلفة هذا الفصل لمذكرات نمرود التي يسجل فيها رحلته الى جبل الثلج ، أو جبل " حرمون " Chermont ويقول نمرود في بداية هذه المذكرات أنه لم يلمس الثلج أبدا ، وان الغطاء الثلجي الابيض جذاب للغاية • كما يقول أيضا ، لابد ان يكون جميلا أن تقترب من الثلج في الصباح الباكر •

ويذهب نمرود ولا يحمل معه سلاحا ، لما في ذلك من مصاعب ومخاطر أيضا ، يحمل معه فقط سكينة الصغير •• في حالة اذا ما •• ولكنه بالطبع لن يستخدمه ، انه في رحلة للمشاهدة ، ذاهب للتسلق لا للتجسس أو الاصطدام بأى عدو •

ويسجل نمرود الطريق الذى سلكه ، نهر بنياس ونهر الاردن ووادى برج البرق الذى يقع على ارتفاع ٣,٩٠٠ قدم ، ثم القمة بعد ذلك عند قصر عنتر على ارتفاع خمسة آلاف قدم أخرى انه سيتحرك عبر الحدود اللبنانية والسورية ـ ولكنه لا يبالى بكونها أرض معادية فهو سيتجنب الناس •

وأهم ما يلفت النظر قوله "ص١٠٦ " أننى سأصل الى القمة مهما حدث وسأكون حريصا " كما يقول أن سعادته ستكون بالقمة لانه سيلقى وراء ظهره بجميع هموم الحياة اليومية وصغائرها • ومن ثمة فالصعود ينطوى في جانب من جوانبه على هروب أو ابتعاد عن مشاكل

الحياة اليومية وصراعاتها • وينطوى على معنى رمزى ، أو عديد من المعانى الرمزية والدلالات والاهداف اللا شعورية التى ستتضح لنا واحدة أثر أخرى •

ان صورتين تبرزان أمامنا بكل مالهما من دلالات ومعانى فكرة القمة ، بما تعنيه من علو وارتفاع وارتقاء ، وفكرة أخرى هى فكرة الثلج الابيض ، أو القمة الثلجية ، التى سنقترب بالتدريج من معانيهما المتعددة •

وتقودنا فقرة أخرى فى نفس الصفحة (ص ١٠٩) الى الاقتراب من معزى لا شعورى آخر لهذه الرحلة " وداعا بيت عون ان ابنك منطلق ليغتصب البيضاء البكر ، أو العذراء هكذا يعبر نمرود صراحة وبصورة مباشرة عن تخيل لا شعورى يتضمن ثلاث عناصر ، أوثلاث صور الاولى الاغتصاب Rape والثانية العذرية أو البكارة Virgin والثالثة البياض Whiteness نحن اذن بازاء عذراء ميكر تغتصب، لكن هذا الذى يغتصب عند هذه العذراء ليس بكارتها بالمعنى الجنسى التناسلى المألوف ، انه " البياض" الماء الذى صار وقد تجمد وأصبح جليدا أبيض اللون ، ونعلم ان النموذج الاولى فى حياة الطفل للسائل الابيض هو اللبن ، وهكذا فنمرود يجمع فى هذه الاخيرله بين ما هو فمى (الماء واللبن) وما هو تناسلى قضيبى (العذرية والاغتصاب) •

ويقودنا نمرود فى مذكراته الى فقرة جديدة ، يتحدث فيها عن الحدود فى بداية مساء الجمعة ، انه ينتظر الظلمة ، ولعلنا

نتذكر بداية الرواية عندما كان أبوه يتيه بجساره ابنه وبعدم خوفه من الظلمة عندما ارسله فى ليلة دامسة الظلام برسالة الى جدعون . ان نمرود منذ بداية طفولته قد تكون لديه هذا الاتجاه المضاد للرهاب وخاصة رهاب الظلام هو ينتظر اذن حلول الظلام كى يواصل الرحلة يحدثنا عن تأهبه وعن ما يحسه من استثارة ، وعما ينوى القيام به من التقاط بعضا من الجليد من جبل حرمون ، وكأنه الورد ليقدمه لايللى انه هنا أشبه بالشاطر حسن ، أو السندباد البحرى فى مغامراته الجسوره وثمة فقرة أخرى جديرة بالتأمل والتوقف عندها ، انه يتحدث عن التقاء ثلاث حدود ، حدود سوريا ، وحدود لبنان ، وحدود بلاده ويقول أن الحدود فى هذا الوقت من المساء لا تعنى الكثير انه يقول ان أشعة الشمس الغاربة لا تفقد عند علاقات الحدود كما ان الهواء الرطب يواصل اندفاعه فوق شريط الحدود المزروع بالالغام . الا نجد انفسنا هنا بازاء ما يشبه التخييل الجنسى الطفلى ، اننا بازاء ثلاث حدود ، بلاده (أو هو) والعدويين (سوريا ولبنان) وهناك مخاطر حقل الالغام ، وهو يتسلل ليلا مخترقا حدود الممنوع ، معرضا نفسه لمخاطر الاعداء ، الا نحس هنا بتخييل اختراق أوديبى لممنوع ، لحدود يلقى من يجتازها خطر الموت ام تخييل الاغتصاب ثم اختراق الحدود ، وخطر حقل الالغام ، يتلائمان معا ويكونا صورة لتحدى أوديبى ، يلازمه خطر الخصاء .

وفى الفقرة الثالثة من المذكرات يقول " ص ١١٠ " أنا لست داعية سلام ، ولكننى أيضا لا أهتم بالحرب ، ولكننى لا أقبل فى

سهولة فكرة أن هذا عدوى .. " وهكذا نجد انكارا لمخاطر العداء المتبادل ، وانكارا لما يمكن أن يتعرض له من خطر فعلي وهو يقتحم حدود بلاد معادية بمفرده ، ودون سلاح حقيقي .

ومن الجمل الموحية بالمعاني الخفية في نفس الفقرة يقول نمرود : " أنني ذاهب اليه — العدو — لان لديه موضوع جميل أريد أن ألمسه وأربت عليه " ان اللمس والتربيت على هذا الموضوع الجميل يتضمن رمزا حبا واضحا ، الا يشبه ذلك لمس الاعضاء التناسلية ومداعبتها .

ويصف نمرود مسار الانهار والتقائها (بنياس والاردن) كما لو كان يصف تفاصيل جسم بشرى ويصف تدفق الدماء في شرايينه بالرغبة والدفء . ويلمس كما يقول الماء ، هذا هو مصير الجليد على القمة . انه ينحدر أسفل التل نحو المجرى . ونحن " نستخدم هذا النقاء الابيض الملكي نروى به القمح ، كما أن " السنة الابقار الضخمة القذرة تلعقه " ، ولكن هذا الماء في بدايته — عند قمة الجبل — لا يلمس لذلك لهو يرغب في لمسه ولعقه وتركه يرويه ، وهكذا فمن بين دوافع نمرود الى الوصول الى قمة الجبل ، أن يصل الى الماء في بدايته أبيض ناصعا نقيا لم يسبقه اليه أحد فيكون أول من يلمسه ويلعقه ويترك نفسه يرتوى به . هذا أيضا تخيل فمي واضح ، البياض هنا رمز للنقاء للبن وأهم من ذلك رمز لرغبته في أن يكون الوحيد الذى يحظى به ، في هذه الصورة دون منافس أو شريك . الا تجد هنا أنفسنا بازاء ذلك الذى تطلق عليه ميلاني كلاين " الشره الفمي

Oral Gread" أما الاخرين فقد رمز لهم أو أشار اليهم بالابقار ذوات الالسنة الضخمة والقذرة . وتتدافع خواطر نمرود ويسجلها . لقد كانت هناك طرق شقها الرومان ومن قبلهم اليونان ، والفرس والاشوريين والبابليين والملوك والقضاه والحيثيون والقبائل ، وبعد الرومان جاء العرب ، ثم الصليبيون ، فالاتراك ، ثم بعد ذلك هو ـ نمرود ـ نمرود من بيت عون ، ابن افرى ومريام هنا الان .

وهكذا يكشف لنا نمرود عن ضرب من ضروب التعاظم الذى يكاد يبلغ فى شدته حدود البارانويا فهو آخر هؤلاء الغزاه العظام آخر حلقات التاريخ .

وتعرج خواطر نمرود على أهله وقريته ويسائل نفسه اذا كان قد جال بخاطر ابيه أن يتسلق هذا الجبل ، وينتهى الى انه لا يستطيع وانه هو وحده المحظوظ الذى استطاع أن يفعل ذلك .

ويذكر ان عبور الحدود كان سهلا ، فقد خاطر وسار خلال منطقة ملغمة ، كيف يمكن ان يكون المخاطرة بالحياة سهلة ، فلنذكر ما قاله له جدعون ، ان لغما هو الذى مزق جسده ، وهكذا نجد الرغبة فى التفوق على جدعون ، ومع ذلك فكما كان جدعون باعترافه هو نفسه أحمق اذ خاض حربا لاناقة له فيها ولا جمل ، فان نمرود هو الاخر قد قام بمخاطرة لا معنى لها ولا جدوى ، السير فى أرض معادية ، وعبور منطقة مزروعة بالالغام ، لماذا ؟ ومع ذلك يقول كان العبور سهلا (ص ١١١) .

ونحس من مقارنة نمرود نفسه بأبيه وبجدعون برنه تعالــــى
وسباهاه وشماته ايضا بتفوقه عليهم ٠

ويتملك التيه والعجب نمرود تماما عند ما يجد نفسه وحـده
على الجبل ـ وكأنه موسى يخاطب ربه ـ ان الله يباركه هو وحـده
لقد تغلب على الطبيعة وقهرها وهو يسجل ذلك حرفيا فى مذكراته٠

أما الاخرين ويعددهم فردا فردا (ايللى ، يورام ، رنيا ،
رامى الصغير ، وأخيرا جدعون) الذى يتقلب على فراشه ـ لاحـظ
نغمة الشماته والتشفى ـ وايضا والده الذى يحلم (ص ١١٢) والذى
يحلم دائما (هكذا يقول نمرود) " الكون كله نائم " ليس هنـاك
انسان ، على الاطلاق يتسلق جبل حرمون فى هذه اللحظة عـداه
" ويكتب فى مذكراته " نمرود وحدة فى العالم " ما أشبه هـــذه
المذكرات ـ فى بعض جوانبها ـ بمذكرات دكتوز شريبر الذى كـان
يكتبها فى فترات صحوه انه سيد الكون ويصل نمرود الى قمة الجبـل
فجر السبت ، فى الخامسة صباحا ، ويفرد لذلك عنوانا مســتقلا فى
مذكراته (ص ١١٢) وتكشف مختارات منها عن مزيد من الـدلالات
النفسية ، يقول " فى هذه اللحظة أشهد شروق الشمس ، وألمـس
الجليد ، يا أمى يا أبى ، يا ايللى ، ياجدعون ويازكى هـــل
تستطيعون ان ترونى هنا ٠ أننى البقعه السوداء التى تحتـــل
مركز الجليد الابيض ٠ أننى القلب الذى يدق فى منتصف الصحـــراء
البيضاء الميته بردا ، أننى الكائن الحى المتعب الذى يفيـــض
بالاحساس على قمة اللا مكان ٠ أننى البشر الانسان الفانى الوضيــع

هل تسمعيننى يا ايللى ، أننى رجل ، أننى قريب من الله ، أننى أنا نمرود هنا ، لقد كانوا ينادوننى بأسماء الفيتات عندما كنت صغيرا لان شعرى كان مموجا . لقد دفعت فى حيفا ذات مرة صبيا صغيرا كما بكيت بمرارة عندما مات لامخ ولم أستطع أن أخبر أحدا بذلك. لقد ضاجعت ايللى فى الغابة ، و ... و ... وها الابيض لون ميت . أننى افتقد الاخضر ، ولكن كم سيكون الاخضر حيا الان بعد ان قهرت الابيض .

وهكذا تفيض المذكرات بالمباهاة والتعالى ، ومقارنة نفسه بالاخرين .. يقول مثلا أنه سيتسلق ليصل الى الله .

ويتذكر لعبة الطفولة " من الاقوى " ..

أن كلمات لامخ عن صعوده الجبل وحده ، دون وجود آخر يشاركه الصعود فى نفس اللحظة يعطى انطباعات باحساس جارف بالعظمة والتفرد انه يشهد الجميع على هذا الانجاز الذى لا سابق له.

وفى الفقرة الثالثة ، عندما ينتصف نهار السبت يكون نمرود قد وصل الى ارتفاع ستة آلاف قدم ويبدأ الفقرة قائلا " فى يوم السبت استراح الله " (ص ١١٤) مما يعطى انطباعات — وان كان لم يعلن عنه — أنه هو الاخر جدير بالراحة بعد ما قام به من عمل خارق لا قبل لاحد من البشرية ولعل أهم ما فى هذه الفقرة ذلك العجوز العربى الذى كان متواجدا قرب مخبأ نمرود ويستطرد نمرود فى وصف أحاسيسه وتحفزه وتأهبه واستعداده للانقضاض على الرجل اذا ما بدا

انه يوشك أن يكشف وجوده ، ان نمرود يتخذ موقف التعالى والصلف وكأنه يريد ان يوحى لنا بأنه ما كان من الممكن أن يكون كأى أنسان آخر عرضة لخطر قاتل ، انه يتمتع بحصانة من نوع خاص لانه هو هو ، أعنى لانه هو نمرود الذى لا يمكن لقوة بشرية أو غير بشرية أن تلحق به أى أذى .

وفى النهاية يبلغ نمرود قمة الجبل ويحقق كل أهدافه الشعورية واللا شعورية من هذه المخاطرة .

وبعد الانتهاء من الصعود والهبوط وانقشاع الخطر يقول لنفسه " لقد استتب السلام بينى وبين الجبل ، وبينى وبين نفسى ، وبينى وبين الطبيعة فقد قهرتهم جميعا . لذلك فأنا استحق لقب الصخرة .. وفى طريق العودة يفكر فى ايللى وفى الزواج منها .

وقرب نهاية الفصل يقول نمرود لقد كانت الرحلة ، رحلة الى الرجولة ، وهو نفس ما أحس به عقب مضاجعته لايللى على قمة التل المجاور للغابه .

وهكذا فالجنس والخطر والرجولة والعدوان ، ومطالب الطفولة والحاجة الى الامن تلتحم جميعها معا لتكون نسيج متشابك متكامل لقد صار نمرود بطلا أسطوريا فاق كل الابطال ، ولكن هل حقق له ذلك السلام والوئام والامن الداخلى الحقيقى ؟

الفصل السابع عشر

يدور هذا الفصل حول عقد قران نمرود وايللى . وقد وافقت ايللى على الزواج فى الخريف دون أن تناقش التفاصيل ، فقد تشربت مناخ القرية فى واقعية وبساطة أن تجد الفتاة ماتعتقده الرجل المناسب فتتزوج وتحمل وتلد وتتحمل مسئوليات الحقل .

وتخبرنا المؤلفة أن رينا ويورام قررا الزواج مع نمرود وايللى فى نفس الوقت . كما تخبرنا أن رينا أهدت البلوفر الذى كانت تعده لعودى ليورام ، الذى لم يشكوا ابدا .

ويهمنا هنا واقعة جديرة بالنظر ، وهى ذلك الخطأ الذى اقترفه نمرود عندما ذهب الى جدعون يقترح عليه أن يكون حفل الزفاف أمام حديقة منزله هو وليس بمنزل نمرود واسرته ، ويدخل جدعون فى نقاش مع نمرود ويسأله عن السبب فى اقدامه على الزواج ، فيجيبه الشاب بقوله أنه يحب ايللى ، وهنا يرد عليه جدعون قائلا " بنت مسكينة ، وهى ممتازة أيضا " ومن خلال الحوار بينهما يتعرف على مخاوف جدعون مما يمكن أن تتعرض له ايللى مع مرور الوقت على يدى جدعون من اهمال وتباعد أنه يحذر نمرود من أن يصير بمرور الوقت الرجل الذى كانه جدعون .. فتصبح ايللى فى نهاية الامر جزء من المزرعة .. وينتهى هذا الجزء من الحوار بما يشبه النصح أو التحذير

أو التنبيــه من جانب جدعــون لنمــرود بخصوص ايللى .

وعندمــا يطرح عليه نمــرود فكرة اقامة الاحتفال عنده ، تتملكـــه الريبــة وينهض من مقعده ، ويحملق فيــه ويصيح غاضبا " اذهب الان — ولاتعــد الا بعد ان تجد لديك مشاعر اخرى غير الاشفاق والكراهيــة أو اللامبالاة .. ابحث عن الحب والفهم والخوف والضحك .. القــى بأشفاقك الي الكلاب التي تريــده ، ولكن لاتغدقه علي .. تحتفل هنــا .. حتى يستطيع جدعون المسكين الذى لايستطيع ان يتحرك أن يــرى .. يرى ماذا ؟ يرى التدمير ؟ أم السعادة والحب ؟ انك تعلم كــم كان اشتياقي لانجاب ولــد . أنت تعلم كم من الوقت قد مر منذ أن — لامست امراة .. وأنا لم اجرح هنا — ويشير الى اعضائه التناسليــة ولاهنا فى القلــب " (صـــ ١١٩ ـــ) .

وهكذا يكشف جدعون فى غضبة المفاجئ والبالغ عن حدس عميــق بحقيقة مشاعــر نمــروده الكراهية الشماته التى يبالغ فى اخفائها وراء قناع من اشفاق بالغ ، يبدو فيه فى صورة المحسن الامر الذى يفطن اليــه جدعــون ، جدعون الصخرة السابقــة يرى فى نمرود صورة مرآويـــــة لذاته ، كما كان عليه ، و من ثمة فهو يعلم أن الصخور لاتعرف العواطف والانفعالات .

ولعلنا نلمس فى آخر ماقاله جدعون نفسه ، وخاصة عندما نتذكـــر ماذكره ايضا نمرود نفسه فى مذكراته أو فى حديثه الى ايللــى عقــــب

مضاجعته لها على قمة التل بخصوص جدعون وكيف أنه لن ينال بعد الان امرأة ان جدعون يفطن بحدسه النفاذ الى مشاعر شماته وراء المبالغة في اظهار الاشفاق ، فالاشفاق البالغ ذاته اعتراف بعجز من نتجه نحوه باشفاقنا .

ومع ذلك ورغم هذه الثورة وهذا الاستبصار بأعمق دوافع نمرود ، ورغم الاساليب الدفاعية ، يطيب خاطره معتذرا واعدا اياه ان يحاول الحضور .

وكما دار حوار بين نمرود وجدعون تكشفت لنا فيه جوانب من شخصية نمرود ، ومخاطر هذه الجوانب على مستقبل علاقته العاطفية زوجة المستقبل من خلال تحذيرات جدعون ، نجد موقفا آخر مكملا لهذا الموقف وهو ذلك الموقف بين افرى والد نمرود وايللى عندما يذهب اليها افرى وقد احس انه يجب ان يحادثها قبل الزفاف .

ان الحوار الذى يدور بين ايللى وافرى ، وحرص افرى ابتداء على محادثتها يكاد يكون مكملا للحوار السابق ، فهو ايضا اشبه بمحاولة لطمأنة ايللى واعدادها للعلاقة - الصعبة - بنمرود ، الاب ذاته يكاد يكون محذرا منبها لها ، ومطمئنا مشجعا ايضا . انه يقول لها عندما يذهب للقائها - بمفردها - فى المدرسة التى تعمل بها " انت سعيدة الان . اليس كذلك " ؟ ، كما يقول لها بعد ذلك " انت تعرفين ان نمرود صعب ، غليظ وخشن فى بعض الاحيان " كما انه يحب البلاد حبا جما ويضعها فوق كل شىء آخر وآمل الا يؤلمك ذلك

فهـذه هى طبيعتـه " (ص ١٢٠) .

وهكذا يعبر افرى هو الاخر ، وان كان بطريقة ملتوية عن طبيعة ولده الفليظة والنرجسية ، انه فى حقيقة الامر يرى فى وطنه اداة نرجسية يحقق عن طريقها رغبة التعاظم والتفوق على الاخرين . ومع ذلك فقد صارت ايللى فى نهاية الامر جزءا من السباق يخضع لقوانينه وضغوطه ، ولعله أمر لايخلو من دلالة ان تعرفنا المؤلفة فى هذا الموقف بحقيقة وضع ايللى لاجئة مجرية ، فقدت كل أسرتها ولم يعد لها من أحد على الاطلاق . كان نمرود أول لقاء لها بالوجود بكل مافيه من سلبيات وايجابيات ، بعد ان افلتت من الجحيم الذى عاشت فيه سنوات الحرب . وقد اثخنتها جراحه .

على أن ثمة مايهمنا فى هذا اللقاء ، فكما كشف نمرود فى حواره مع جدعون ، أو فى طلبه منه أن يكون الحفل عنده ، عن "اشفاق" دفاعى يخفى وراءه كل عدوانية وغيراته ، كذلك يكشف افرى عن شئ مماثل وكأنه برهان حى على صدق المثل الشعبى الدارج " وهذا الشبل من ذاك الاسد " فهو يقول لها " لقد صار لك الان وطن ، وانت بالنسبة لنا ابنة . وانت تفهمين ان العيش فى مزرعة ينطوى على مسئوليات معينة ، ولكننى واثق انك قادرة على تحملها وعلى التوافق مع مريام " (ص ١٢١) . ولكن الجملة الاهم هى قوله " اننا نحن نحن الاثنين اننا نساعد على بناء شعب متحد بزواج ابننا من مهاجرة " وهكذا يكشف افرى نفسه عن صلب وعجز عن فهم ماهو انسانى وعاطفى . كذلك

تصيح به ايللى قائلة "لاتتكلم بهذه الطريقة . ان ابنك سيتزوج — المرأة التي يحبها ، وليس لذلك صلة "بتوحيد الشعب" أو بالتكامل انني لست جزءا من خطة خمسية ، وليذهب الامر تضحية " وهكذا تبين عجز افرى عن فهم ماهو انسانى وتصوير العلاقات الانسانية ، أو الاحرى تشويه العلاقات الانسانية بقوليتها داخل قوالب ميتة ان افرى هو الاخر ينظر الى العلاقة العاطفية بين ولده وايللى وكانها مجرد تحقيق هدف صهيونى سياسى .

هذين اللقائين اذن ، اولهما بين نمرود وجدعون يكشف لنا فقدان نمرود للاستبصار بحقيقة مشاعره وثانيهما بين ايللى وافرى ويكشف لنا ايضا هو الاخر عن فقدان افرى الاستبصار بطبيعة المشاعر العاطفية والانسانية ، حتى لدى اقرب الناس اليه ولده .

أما اللقاء الثالث فهو بين ايللى وجدعون ، ان ايللى تختفى أثناء الحفل ، انها تتسلل الى منزل جدعون ، وتلتقى به فى منتصف الطريق قادما ليشارك فى الاحتفال ... وعند التقائهما يقدم لها هديته الخاصة جدا جدا ، نسخة من أشعاره كتبها بخط يده .... ويعتذر عن الذهاب الى الحفل ، فهو قد صار كما يقول يقف فى منتصف الطريق ، بين الوحدة ومشاركة البشر سعادتهم وافراحهم بين الظلام والنور ، اننا نكاد نحس بجدعون هنا فى كل تمزقاته وصراعاته ، ونحس أنه يكاد يكون صورة نادرة فى تجسيدها لتمزق الوعى الاسرائيلى ، ممزقة بين غرائز الحياة وغرائز الموت . جدعون

لا يستطيـــع ان يشارك فى الافــراح • ولكنه مع ذلك يشارك فيهـــــا بشعوره الرقيـــق وحسه المرهــــق •

ويعقــد القران وتبدأ صفحة جديـدة من حياة نـمرود وايللـــى وبقيـــة الابطال بكل مايرمـــز ون اليـه ويعبرون عنـــه من مشاعـــر وأفكـــــار •

الفصل الثامن عشـــر

فى هذا الفصل نتعرف على مغامرة جديدة فى سلسلة مغامـــرات نمـرود • نتعرف عليه فى معركة حربيـــة ، أو فى غارة خاطفة عبر الحـــدود السوريـــــة •

تعرف من السطر الاول ان بناء الكوخ قـــد اكتمل وان نمرود وايللى قد انتقلا الى هذا الجزء الجديد ليقيما فيه ، ونعرف ايضا ان ايللـــى قـــد حملت وفى نفس الجملة من نفس السطر نعرف ان الاشاعات تتـــردد حول القيام " بعمل " ••• وان الناس ينتظرون حلول ليلة مظلمـــــة للقيام بـــــه •

ولا نحسب ان هذا التجاور المباشر بين الحمل والحرب ، او الجنس والابوة من جانب والعدوان من جانب آخر ياتى عرضا ، اننا نفهم من ذلك ان نمرود لا يمكن ان يصير ابا الا بعد ان يثبت مقدرته فـــى مجــــال العدوان •

وتقول المؤلفـــة انه بالرغم من ان نمرود كان متزوجا ، وان زوجته كانت حاملا ، فان ذلك لم يمنعه من انتظار المعركة والاعداد لهـــا • ونتبين مبلغ تصاعد توتـــر نمرود فى انتظاره للمعركة بل انه يقول ان — " الحياة احسها خاوية (ص١٢٣) " كما يقول ايضا انه على استعـــداد لتقديم كل مايملك فى سبيـــل القيام بشئ جاد • ونجد فى حديثه مـــــع

ايللى عن يورام واتهامه له بالجبن لان رينا — روحه يوارم كما تعلم — حامل وأنه يذهب اليها — فى حيفا — كل اسبوع ، ولذلك فهو سعيد ومرتاح .

وهكذا فيوارم ورينا ، وهما قرينين لنمرود وايللى ، سعيدان بطفلهما المنتظر راضين به ، اما نمرود فهو على العكس من ذلك مشغول عن هذا الطفل المنتظر بالمعركة المرتقبة .

وتحس ايللى بالطبع بحقيقة مشاعر زوجها حتى انها تقول له " انك تفضل ان تمر الرصاصات بجوار شعرك على ان امر بيدى عليه " كما تضيف قائلة " اننا حديثى الزواج ولكننى نسيت طعم شفتيك " " انك تعطى عن طيب خاطر كل ماتملك من اجل المعركة " (ص١٢٤) وتتساءل قائلة " هل تقدمنى انا والطفل ايضا " وهكذا تكشف لنا ايللى ، ونتعرف عن طريق مشاعرها واحاسيسها عن الدور الذى تشكله الحاجة الى الحرب والعدوان فى البناء النفسى لشخصية نمرود .

وهكذا بعد ان يتم زواج ايللى بنمرود ويجمعهما سقف مكان واحد سرعان ماتجد ايللى نفسها وحيدة حزينة ، وزوجها مشغول عنها " بالحرب " لا من حيث هى ضرورة موضوعية من بين بقية ضرورات الحياة الموضوعية ، وانما من حيث هى ضرورة سيكولوجية يستعيد عن طريقها توازنه النفسى المفقود وهكذا نجد نمرود فى الفقرة التالية مباشرة ، يقبل على زوجته فيقبلها ويخبرها بانهم الليلة يقومون " بعمل "

وهكذا فالغارة المرتقبة تعيد اليه توازنه وتجعله اكثر قدرة على التعبير عن ميوله الليبدية دون احساس بالكف ودون توتر . ويعرض نمرود على زوجته تفاصيل العملية المرتقبة عبر الحدود السورية وهو غاية في الانشراح ، حتى انه يقبلها مرة اخرى عق حاجته الى اثبات الذات .

وكذلك نتعرف على مشاعر ايللى ، فهى على عكس زوجها تمتلئ رعبا ، فقد حدثها جدعون كثيرا عن اهوال الحرب ، وعن خبرته خلالها وعن جرحه ، ولقد كانت تريد ان تتحدث الى نمرود وان تحذره من اخطار الحرب وان تطلب منه ان يخاف المجهول ، ولكنها لم تستطيع ولعلها لم تكن تريد ايضا .وهكذا نتبين غربة ايللى فى هذا المجتمع الذى لاتستطيع الا ان تستسلم له ، دون اقتناع به وانصهار فيه ، وايضا دون رفض له وسعى الى تغييره .

ونلاحظ ان المشهد الذى يخبر فيه نمرود زوجته بخبر الغارة المرتقبة ويسرع فى الاستعداد للمشاركة فيها ، نلاحظ ان هذا المشهد يتميز بذلك التقابل بين نمرود فى صلفه وغروره وكبريائه ، وفى سعادته بما هو مقبل عليه من جانب ، وبين ايللى فى استسلامها الكسير المهزوم ، انه يصدر الاوامر وهى تطيع ولاتجد امامها الا ان تتمنى او ترغب مجرد رغبة خرساء لاتتجاوز حدود مخيلتها ، تتمنى مثلا " لو يتوقف نبض العالم " (ص١٢٤) ، وتتمنى الا يغادر المطبخ والا يغادر نمرود المنزل والا يخرج ولدها من رحمها " وهكذا فخوف ايللى البالغ من الحرب ودمارها ، وقد كانت تجربتها فى هذا الصدد من هنا

قاسية اليمة ، واندفاع نمرود الدفاعى اليها ، والتماسه تحقيق ذاتــه عن طريقهــا يجسد لنا قطبين اساسيين فى الشخصية " اليهوديــة — الاسرائيليــة " ، اليهودية — الاوربيــة يهودية الشباب فــى خوفها الرعديد ، كما تمثله ايللى ومن قبل افرى والد نمــــرود " والاسرائيليــة الصهيونيــة " فى اتكارها الدفاعى للخوف ممثــلا فى نمــرود وجيله ، جيل السابرا .

ونلاحظ ايللى ان عينى نمرود كانتا تلمعان لمعانا لم تره من قبل كمــا كان الكبرياء البادى على وجهه غــير محبب الى نفسها (ص١٢٤) " انها تعلم انه لايحب الحرب ، ولا اطلاق الرصاص ولا القتل ولكنهــا لاتستطيع ان تفهم سبب مايفعله او ان تساله سببه " ومع ذلك فانهــا تساله قبيل انصرافــه " هل ستقتل اناسا ؟ " وتكون اجابته انه يــؤدى عــلا ، وان عليه ان يحسن اداءه . ولعل هذا التساؤل من جانــب ايللــى اليهودية الاوربيــة التى عانت ويلات الحرب والقتل والظلــم يكشف لنا بقايا وعى ، وان يكن على المستوى الوجدانى بالطبيعــة العدوانية للوجود والايديولوجية الاسرائيلية — الصهيونية . ولكنــه وعى لايمكن ان يكتمل وان يصل الى مداه مادامت قــد هاجرت الــى " اسرائيــل " وتزوجت باسرائيلــى — صهيونى من جيل السابرا كمــا ان اجابة نمــرود ذاته " انه يؤدى علا وعليه ان يتقنــه " (ص١٢٥) تكشف بدورها عن تزييــف للوعى ، فهو يؤدى علا مجرد عل عليــه ان يتقنــه ، ما اشبه هذا الرد بقوله عندما زار حيفا للمرة الاولــى واقترح على الصبية لعبــه "من الاقوى " وكان ان دهمت العربة الصبى

وكادت تقتله " فقال " انها لعبة نلعبها فى بيت ــ عـــون ".
لقد كان ثمن غياب الخوف غياب العقل ايضا ، غياب العقـل من حيث هو وعى بطبيعة الاشياء وحقائقها ، لم يعد القتـل قتـلا وانما مجرد عمل يجب اجادتـه.

وكما تضطرب ايللى عندما تعرف ما سيحدث تضطرب ايضـا يـورام ، فهى بدورها ــ مثلها فى ذلك مثل ايللى ــ تحـس بوجداتهـا ما يستوجب الرفض.

وتسال ايللى زوجها عما اذا كان يورام وزكى سيشتركان فـى " العمليـة " ويجيب نمرود بالايجاب مؤكدا انها " ستكـون بالغـة الاهميـة بالنسبة لزكى " ، زكى اليهودى اليمنى الـذى يجسد الخـوف والفـزع اليهـودى التقليـدى ، وانه يمثـل الجزء اليهـودى فى اعماق كـل من نمرود ويورام ومن قبلـه جدعـون وايفـرى . اننا بازاء عملية تمييـن اسقاطى بالمعـنى الحرفـى لها وأعتقـد انه ليس مصادفة ان يختـار النمـوذج بمسـتى ، اى عربى شرقـى امعانـا فى التباعـد Distanciation والانكـار فبدلا من تقديم نموذج أوربى غربـى ، تفضـل المؤلفـة ان تختار نموذجـا عربيا ، وهكذا فهـذا الجبن لا يرجـع الى كون زكى يهوديا وانما الى كونه عربـى ، اى عربـى أو على الاقـل يهودى نشأ فى مجتمع عربى واكتـسب

صفة الجبن من هذا المجتمع ، أو بفعل نشأته فى احضانه .
ولا أرى انه مصادفة أن تكون الجملة التالية مباشرة على الحديث عن زكى وأهمية " الغارة " القصوى بالنسبة له سؤال ايلى لنمرود قائلة " انك لست خائفا يا نمرود ، اليس كذلك ؟
وينكر نمرود الخوف وينصرف وتبدا العملية . ويلازم زكى نمرود كظله وتقول المؤلفة " نستطيع ان تقرأ فى عينى زكى خوفا يحدث الشلل " وعلى عكس زكى تكون حالة نمرود ، وكأنه فى الطريق الى الفرد وسرأ كما تقول وكانه " فى أول تجربة حب له " وعلى عكس د للنجد زكى ، فاذا كان المكان يعبق برائحة الزهور والاعشاب فانه بالقرب من زكى تفوح رائحة " الخوف ، رائحة الخوف الجسدى الطاغية " (ص ١٢٥) .

وكان نمرود مجرد جسد ، آله بلا عقل أو قلب أو وجدان وتبدأ المعركة ، أو الغارة ، أو ينطلق الرصاص ، وتواصل المؤلفة حرصها على المقارنة أو المقابلة بين كل من زكى ونمرود ، زكى الذى تبحث عيناه حوله عن مخرج للهرب ، اما نمرود فكان اشبه بنمر ، لا يعرف الرعب أو التردد ولا الاندفاع .
ويتلقى نمرود أوامر يورام بالذهاب مع اربعة من الشباب الى الكوبرى الذى تمر من فوقه السكك الحديدية ليضعوا تحته قنبلة لنسفه ، ويختار نمرود من بين من يختار زكى ليرافقه فى هذه المهمة . ويتبع زكى نمرود كظله ... ويتم

المطلوب ، وعنـد العودة يكون الظـلام قـد انحسر والفجر يرسـل ضوءه ويكشف الاربعة ويبـدأ اطلاق النار عليهم ... ويخرج نمـرود أولا ، يصاب في ذراعـه ، لكنه لايبالي بل يقـول لرفاقه أنه مجـرد خدش وتصف لنـا المؤلفـة مشاعـر نمرود عندمـا يرى دماءه تـنزف لاول مـرة ، ويحس بالالـم (ص١٢٨) ولكنه يقول لنفسه " ان الدماء على ذراعـي تحرك في النفس مشاعـر طيبـة ... وكأنهـا ضريبـة ما ، انشـودة الكبريـاء والالم " الرجولة ... وعندما يلمس دماءه وهو يغـير المنديل يحس بانفصال (ص١٢٨) وكأن يـده كانت لمريض في عيـادة " السنا بازاء صورة واضحة لاختلال الانيـة DEpersonalization حيث يعجز ، أو يرفض نمرود ان يتقبـل جزءا من جسمه عندما يصاب ، اليس هذا دفاع انكاري اشبه بالدفاعات الذهانية أن الدلالـة الرمزيـة للذراع ولجرحه دلالة واضحة ان نمرود يتعرض لخطر خصاء ، لكنه يسـتر مشاعر الخوف وحتى الالـم الفيزيقـي وكأن الذراع المصاب ذراع شخص آخر لاصلة له به . لقـد اغترب عن جسمه .

وبعد ذلك تنتقل المؤلفة مباشرة الى اصابة زكي ، تلك الاصابة البالغة التي تؤدى الى تركه ليؤخذ اسـيرا .

أن نمرود يتولى كما يقـال تغطية الجماعة المنسحبـة ويبقـى ليطلق النار مـن مدفعـه الالي حتى يحول دون مطـاردة

السوريون لهم ، ومع ذلك تكون الاصابة من " نصيب " زكي ،
وتكون اصابة بالغة في معدته ولا يمكن بالطبع ان يكون
اختيار زكي اليهودي اليمني — وليس الغربي أو السابرا —
مصادفة عشوائية عديمة المغزى ، انه الوجه الاخر لنمرود أو الوجه
الاخر للصهيونية — الاسرائيلية . وكأنه يقول هذا لمصير الجبناء
وان الخوف لا يجدي ، وان الرعديد سيلقى بسبب جبنه —
نهايته المحزنة . أما الشجعان — مثل نمرود ويورام — فلا
قبل للموت أو الخطر بهم . ولعل الموقف يصبح أكثر
جلاء اذا توقفنا امام تفاصيل اصابة زكي وتركه للاسر ،
فعندما أصيب الفتى وسقط على الارض اسرع اليه رفاقه
ولما كان ضوء النهار ينتشر بسرعة فقد أصبح الجميع
هدفا سهلا ومكشوفا لنيران السوريين ، ولذا اصدر نمرود
امره للثلاثة الباقين " بالاستمرار في الجري (ص ١٢٩) كما
صاح فيهم آمرا " أتركوه " " سآخذه " وهكذا يسارع
الرفاق الثلاثة بالجري تنفيذا لاوامر نمرود ويتركون زكي
ملقى على الارض جريحا ينزف ، وهكذا يسقط زكي مصابا عاجزا
ويسارع رفاقه بالجري انقاذا لحياتهم ، صورة بالغة الدلالة ،
صورة اليهودي العاجز الوحيد الذي يتخلى عنه رفاقه .
اليست هذه هي صورة اليهودي الاوربي امام جحافل النازية ،
ويصل نمرود هو الاخر الى الفتى ، الذي كان يصرخ ويبكي
وينادي على أمه وعلى " الله " ويكتشف نمرود ان اصابة
الفتى بالغة ، وانه من المستحيل ان يحمله وينسحب به ، ويقرر

تركسه ، بعد وصف مفصل لفزعه واستجدائه به الا يتركه وتأكيد ، لفزعه ثلاثا اتقى خائف ... خائف .. خائف (ص١٢٩)
وهكذا يتركزكى ليقع اسيرا جريحا ... وتنتهى الغارة ... بالنجاح كما تذهب المؤلفة رغم القتلى والخسائر ويأخذون معهم اسرى أو رهائن ... ويهمنا بعد ذلك رحلة العودة ، عودة نمرود الى بيته والى زوجته وقد حمل معه لها بعض من الورود الحمراء ... ويتذكر انه يحبها وانه يحب الورود وانه يرغب فى ان ينام بجوارها ، وان ينعم بجسمها الدافىء والنظيف ويخبرها بما حدث لزكى ولعلنا نتوقف امام تساؤل ايللى عندما يخبرها نمرود بما حدث اذ تقول له " ولماذا زكى ، لماذا تركوه ؟ (ص١٣١) وهكذا تعرب المؤلفة على لسان ايللى بما يشبه الريبة فى ان يكون الامر بالنسبة لزكى ليس مجرد صدفه ، إنه كبش الفداء الذى تقدمه الحركة الصهيونية الاسرائيلية من حيث هى حركة غربية المنشأ ، هذا اليهود الشرقيون . ربما ويكرر نمرود وصفه لمظاهر خوف زكى وفزعه الهائل أمام ايللى وكانه بذلك يلتمس لنفسه الاعذار او يبرىء نفسه من اتهام ما .

وينتهى الفصل بهروب ايللى نفسها من احزانها ومخاوفها الى المطبخ واعداد الطعام ، ثم بالنوم بجوار زوجها .

والطريف ان نمرود يخرج من الحمام نظيفا مغتسلا ليداعب

شعرها ، بينما وجدناه في بداية الفصل ينفر منها عندما تحاول مداعبة شعره.

لقد كانت " العملية " ضرورة سيكولوجية داخلية لخفض توتره حتى يستطيع ان يقترب من زوجته ، بعد ان يكون قد اثبت رجولته.

الفصل التاسع عشر

تقديرنا أن هذا الفصل يكاد يكون أهم فصول الرواية وأخطرها شأنا ، تلقى ميريام (أو مريم) وجه ربها ، وفيه تفيض المؤلفة في وصف ذلك وانعكاساته على جميع أبطال الرواية ، وبخاصة نمرود ولدها وايللى زوجته.

ويجب أن نلاحظ ان موت ميريام يأتي بالنسبة لنا اشبه بمفاجأة ، لا تقتضيه ضرورة موضوعية ، من مرض أو شيخوخة ، أو خطر تتعرض له ، أنه موت مأساوى حزين وتفيض المؤلفة في هذا الفصل في وصفها الموقف بلغة شاعرية مؤثرة ، ولا يملك القارئ ، حتى ولو كان محايدا ، بل ومعاديا لما هو صهيوني واسرائيلي الا أن يتعاطف مع شخص ميريام ، شخص الام في نبالتها وعطائها في صمت ، وفي شموخها وهزيمتها في آن واحد على ايدى من تحت ، من هم أقرب الناس اليها واحوجهم الى وجودها . وميريام هي الام بكل ما تعنيه الامومة من دلالات ومعاني شعورية ولا شعورية ووجودية بل وصوفية ودينية ايضا ، ولنتذكر انه في الديانة اليهودية لا يعتبر يهودى الا من كانت امه يهودية . الام اذن هي وحدها مانحة مشروعية الوجود اليهودى .

نحـن هنا فى هذا الفصل نلتقى بهزيمة الام وانسحابهـــا من الوجـود بكـل ما يعنيـه ذلـــك٠

ولنبدأ مع التفاصيل : تقول لنا المؤلفة ان هذا العام كـان السادس بعد حـرب التحريـر (تعنى اعلان قيام اسـرائيـــل) وأنـه كان عـام طيب ، فالحقول تخضر والمحاصيل تزيـــــد ، وكـل يرجـع الفضـل فى ذلك الى اسبـاب شخصية ، نمــــرود يرجعه الى انتصـاره فى أول معاركه ، ولان زكى كان لا يزال سجينا فلم يكـــن هناك من يقول ان ذلك كان من فضـل الله٠ أما ايلـى فكثيرا ما كان المرض يثقـل عليها ، والسأم ايضا ، وكانـــــت فى انتظـار وليدهـــا بعد شهريـن٠

وبعد هذه المقدمة التى نتعرف فيها على ازدهار مادى لانلبث أن نتلقـى بما ينافسه فى الجانب الانسانى زكى لازال سجينـــا وايللـى على غير ما يـرام ، ولكن الاخطر كان حال الام ،ميريـام ومرضها وتقول المؤلفـة " لـم يكـن هناك ما يستطيع الاطبـــاء عملـه ، أو حـتى قولـه " (ص١٣٢) ٠

كانت ميريـام كما تقول المؤلفة " يتضاءل حجمها يوما بعد يوما وتزداد نحافتها ولم تكن تكف عن العمل " أن الصورة الـــتى تقدمها المؤلفـة لمرض ميريام الغامض ، الذى لم يكن فى مقـــدرر

الاطباء علاجه أو حتى تشخيصه ، يمكننا ترجمته من حيث انه يشير الى شئ غير جسمى ، شئ روحى أو معنوى ، أو وجودى أن وجود ميريام صار الى انكماش وتضاؤل لا يمكن تشخيصه ماديا ولا يمكن ايضا علاجه ماديا ، لم يعد لها مكان فى قلوب الاخرين انها بهذه الصورة أشبه بعضو " غريب " يزرع فى جسم غريب فيرفضه وهذا بالفعل ما ستذكره المؤلفة على لسان أبطال القصة فيما بعد . فميريام ـ من حيث هى لب الوجود اليهودى فى صورته الطيبة يصبح بالتدريج مرفوضا ومنبوذا من المجتمع المسمى بالجديد . ومع ذلك فهى تواصل عطائها اذ ترفض التوقف عن العمل . لب الوجود اليهودى وجذوره صار وكأنه نبات اقتلع من موطنه وزرع فى أرض غريبة . ومع ذلك فهى تقول لايللى ـ ايللى صورة ميريام وامتدادها المستقبلى ـ " انني فقط اتقدم فى العمر ، ولكنني ساعيش طويلا بما يكفى لمساعدة ايللى فى تربية الطفل " لماذا لا تقول ميريام مثل هذا القول الا لايللى ؟ ذلك لان ايللى تكاد تكون الوحيدة التى تحس ميريام فى اعماقها بقبولها لها قبولا صادقا وحقيقيا ، وبفهمها لاعمق احزانها والامها .

وتضحك ميريام ضحكة تصفها المؤلفة بأنها " ضحكة مريضة مجردة جدا من كل صحة ، ومفزعة وكأنها تفقد ببساطة سيطرتها على جسمها وعضلاتها واطرافها . (ص ١٣٢) .

ومع ذلك تواصل الحياة مسيرتها ، تزهر الحقول وتتفتح الورود ويلعب الاطفال لعبة " من الاقوى " ومع ذلك تقترب ميريام من الفناء . اما نمرود فانه يحملق فى عينيها الدافئتين ، ويسارع بالانصراف ، فهو دائم الانصراف كما تقول المؤلفة ، هذه المقابلة بين " انصراف " نمرود وفراره الدائم ، ودفء عينى الام رغم وهن الجسم واقترابه من النهاية يبقى فقط العطاء الروحى ممثلا فى دفء عينيها .

وتذكر المؤلفة ان الشمس كانت تزداد دفئا ، وأن ميريام كانت تحتضر وأن ايللى وحدها هى التى كانت يدو أنها تعلم ذلك وبالرغم من هذا يبقى الامل لديها فى بقائها . اما افرى فقد تحول الى ظل أو شبح أصم محنى . أما نمرود فقد واصل حياته وكأن شيئا لم يكن يحدث .

ويدور حديث بين نمرود وايللى وتسأله ايللى قائلة " هل تستطيع أن تفعل شيئا من أجل أمى ؟ ، ويجيب نمرود قائلا " دعيها تموت فى سلام " . وتغضب ايللى ، وهكذا يكشف موقف كل منهما الابن — والزوجة عن حقيقة مشاعره نحو الام وما تمثله ، ان نمرود الصخرة يكاد يرتقى موقفه الواقعى الى حد القبول والاستسلام ، بل تكاد تحس به

يبلغ حدود الرضا ، بل وربما التعجل ، نجعل التخلص من كل ما تمثله له الام ، ومن كل ما تحركه فى اعماقه انه يتعجل الخلاص من جذوره اليهودية ، بينما تتشبث بهنا ايلى ولعل اعمق اقوال نمرود دلالة قوله لايللى : انها لن تعيش ابدا لترى طفلنا يلعب فى ساحة الدار " وهكذا فبينما كانت ميريام نفسها تقول أنها ستعيش طويلا بما فيه الكفاية كى تساعد ايللى فى تربية الطفل ، يقول نمرود ولدها عكس ذلك تماما وفى تأكيد ويقين حاسم . نمرود اذن ، الجيل الجديد ، جيل الصابرا حملة الايديولوجية الصهيونية الاسرائيلية العدوانية يؤكد أن لا وجود للجذور اليهودية فى دماء الجيل الجديد وكأن ولد نمرود لا يمكن ان يولد ويرى النور ومريام على ظهر الارض . وتفطن ايللى فى حدس عميق الى حقيقة رغبات نمرود الخفية ،تقول له أنه يتحدث عنها وكأنها " حيوان غريب " وأنه بهذه الصورة يقتلها بسرعة ، ليست هى وحدها وانما افرى كذلك (ص ١٣٣)

هذا الحدس العميق يكشف عن أربعة امور :

أولا : يحول نمرود أمه ـ بكل رموزها ـ الى حيوان ، بعبارة أخرى يجردها من هويتها الانسانية ، أو يجرد مشاعره نحوها من كل انسانية .

ثانيا : يحولها بالاضافة الى ذلك الى وجود " غريب " بكل

معانى الغربـة والاغـتراب.
ثالثا : يقتلها ، و يـقتلها بسرعة أكبـر.
رابعا :يمتد فعل القتل وبسرعة الى ابيه ايضـا.

ويتجلى هذا الحدس من جانب ايلى بصورة مباشرة عندما تسأله بعد ذلك " هل تحبها يانمرود ؟ ولا يجيب نمرود ، وهكذا تصبح القضية فى أحدى وجوهها قضية الحب ، ويصبح قول أفلاطون " انما الحب هو المطلع من اللاوجود الى الوجود " الحب هو الذى يضفى على الوجود المادى بعده الانسانى الحى بما يستثمره فى موضوعاته من طاقات ليبدية فحب نمرود لامه هو الذى يحولها من موضوع مادى خارجى له امتداده المكانى الى موضوع بشرى حى ومتلى ، وهذا الحب ، خالق هذا الوجود الانسانى هو الذى تجعله ايلى موضع استفسار.

نعرف جيدا ان هذاءات دمار العالم وفناوءه ، ثم اعادة خلقه وبناءه فى فصام البارانويا ليست الا محاولة لاستعادة العالم الانسانى . ويبدو أن ايلى تحس أن نمرود لم يعد راغبا فى استعادة هذا الجزء من عالمه الانسانى متجسدا فى الام ، ولم يعد قادرا على اعادة بنائه.

وكما لا يجيب نمرود على سؤال ايللى عما اذا كان يحب أمه ، نسراه يبادر بتحذيرها من الاضطرابات ناصحا اياها الى سريرها خوفا على الطفل .

وهنا يكاد كما يقولون يطفح الكيل بايللى اذ تقول له " اعرف ، ان كل ما نهتم به هو الطفل وكأن أمك لم تكن الا آداة لانتاجك ، وأنا لست الا وسيلة لانتاج طفلك" (ص١٣٣) .

وهكذا يكتمل لدينا جانبا من صورة نمرود فى اسرافها فى النرجسية فكل ما يحرص عليه هو الا يلحق بالجنين مكروها . وعندما يشتد الغضب لهذا السبب — بايللى نراه كعادته — كما تذكر المؤلفة — ينصرف خارجا ، تاركا المكان ليسير الساعات الطوال ، يركل الاحجار ، أو يصفر ، أو يلعب بحبات الرمال .. الخ ليس ثمة قدرة على الاخذ والعطاء ، على التبادل والتواصل وتناقل الافكار ووجهات النظر .

وبعد لحظات من انصراف نمرود بهذه الصورة تقول المؤلفة مباشرة وفى بداية الفقرة التالية من نفس الصفحة " تبين نمرود أنه لم يعرف ابدا امه جيدا " (ص١٣٤) .. كان يراها ،

ولكنها كانت غريبة ، كانت تتحدث اليه ولكن صوتها لم يكن يصل اليه .. وكان يحاول أن يفكر فيها ولكن خواءاً مفاجئاً عديم المعنى يسيطر على أفكاره فيستسلم ويتوقف". (ص١٣٤).

في هذه الجمل القصيرة والحاسمة في دلالتها تنفذ المؤلفة في حدس عميق الى طبيعة علاقة نمرود – وجيله بأمه ، علاقة الاغتراب والانفصال والعجز عن التواصل والتبادل .

وذات صباح وزهور البرتقال تملأ الهواء برائحتها وتنفذ في كل ركن حتى يشعر المرء برأسه ثقيلة وثملة ، تموت مريام تموت ونمرود بعيد ولا يعرف أحد أين هو. ولا سبب غيابه ولا موعد عودته. هكذا نجد انفصال كامل وتام بين نمرود وأمه لحظة موتها .

ولكن ايلي كانت هناك ، بجوارها ، كذلك كان افرى بجوارها وكانت ايللي تمثل الجانب الواقعي في وعي ومحبة ، فهي تدرك فقدان ميريام للاتصال بكل ما هو حي . أما افرى فقد كان "قناعاً من اليأس والقنوط " (ص ١٣٤) ، أما نمرود فقد كان " يتسلق جبلاً في الجنوب ".

ظلت ايللى حتى اللحظة الاخيرة تراودها الامال . أما بالنسبه لافرى فكما تقول المؤلفة " كمن يقطع ويتناثر بين الاشجار " كانت ميريام بالنسبة لافرى سند أو جزءا من ذاته ووجوده ، ولذلك ففقدانها يشكل تهديدا شديدا لتوازنه ، وخاصة وأن الدور الذى يلعبه ولده بالنسبه له كدرع دفاعى انكارى يثبت بالتدريج فشله أو ثمنه الباهظ انسانيا .

الغريب كما تقول المؤلفة أن " نمرود كان يعرف أن هذا هو آخر ايام أمه وكان يتسلق الجبل الابيض الاجرد الوحشى " كان نمرود " يواجه الموت بطريقته الشخصية بطبيعته المبنية على التحدى ، ويركب الصعب ويتصبب عرقا ، مصعدا فى الطريق الى الماء ، يبدو أنه يقيم بين الصخور أو على القمة حيث تبنى النسور أوكارها ، وحيث يندر أن تترك قدما بشرية أثرا " (ص ١٣٤) وهكذا فنمرود يهرب بحثا عن الاله الشخصى غير ذلك الاله الذى يعرفه بقية البشر ، الاله خاص جدا ، خاص به ، له هو وحده ، هذه الصورة الوحيده ، صورة الابن الضال فى بحثه عن المستحيل ، الاله خصوصى لا يشاركه فيه أحدا . لماذا لا يرضى اذا جاز لنا استخدام هذا التعبير - بالالم العمومى ،

الاله الذى يبسط سلطانه ورحمته على الجميع الاجابة أنه ذلك الجوع النرجسى الى التفرد ، تلك الرغبة السرابية التى لا تعرف الشبع ولا تجد سبيلا الى ريها ، فى اثبات الذات . ولا بد لنا هنا من وعى كامل بالديالكتيك حتى نحس بمعنى وحدة النقيضين ، وبعمق المقولة الديالكتيكية القائلة بأن النفى كامن فى كل اثبات ، وان الوجود يقتضى العدم . ان التأكيد الحاد والجارح للذات ، لا يعد و بالكتيكيا أن يكون نفيا لدونية الذات وضياعها .

كذلك لا بد لنا أن نحدس المعنى الحقيقى لحرص نمرود على أن يكون أبعد الناس عن فراش أمه لحظة احتضارها ، ان الام فى أعماقه تشده اليها برباط غير منظور ، بحبل سرى من نوع ما ، لا زال يربطها به ويربطه بها ، أن فى موت الام موت له من نوع ما ، لذلك فقد كان أحرص الجميع فى أن يكون أبعدهم عنها لحظة احتضارها ، أنه البعيد القريب .

ولنقف فى محاولة لمزيد من التعمق أمام آخر كلمات تخرج من فم الام تلك الكلمات التى توردها المؤلفة عقب الفقرة السابقة ، والتى أوردنا هنا منذ سطور قليلة الابن على قمة الجبل حيث أوكار النسور وحيث الاله الشخصى جدا ، ثم تنتقل المؤلفة فى حدس لا شعورى بالطبع لا تقصده ، والاغلب انها لا تفطن اليه أو تعنيه ، تنتقل الى الام اذ تقول : " أين ولدى ؟ " وتجيبها ايللى قائلة وهى تبكى "سيكون هنا حالا" ولكن الام تتولى عنها الرد فتقول "لا" ، ولدى لن يكون هنا أبدا .

أن ولـدى لم يكن هنا أبدا ، لقد قتل نيمى NIMI ، ونمرود قـد هرب " وكانت تتأوه ولم تستطيع أن تتحدث جيدا ولكنها كانت تعـنى كل شئ قالته ، وكان همسها المتكسر ندما .

فى الفقـرة السابقة على هذه الفقرة الاخيرة مباشرة كان الابـن أبعد الناس عن أمه ، وفى الفقرة التالية عليها مباشرة أيضا نجده لاأقرب الناس الى أمـه ، بل ألصقهم بها ، أنه — الابن — بعيد عن العين ، لكنه ملء القلب والوجدان . الوحدة الجدلية هنا تتبين لنا أن تباعد الابن تباعـد هروبى دفاعى ،"أين ولدى ؟" هذا السؤال تطرحـه الام لحظة احتضارها ، بحثا عن امتداد وجودها وكينونتها بعد موتهـا وفى لحظة الرحيل ، ينبلج الحدس كاملا باهرا ، اذ لاحاجة الى خـداع للنفس ولا الى نفاق للاخرين الاجابة الحاسمة والمطلقـة .

لن يأتى على الاطلاق ، كما لم يكن — فيما مضى — على الاطلاق هنـا وتقـول " هو" (من هذا الـ •• هو؟) قد قتل نيمى . هذا الـ هو — ضمير الغائب — ما الذى يشير اليه على وجه الدقة ، هذا الغائب المجهول الذى لاهوية ولا اسم له ، هذا القاتل ، الذى قتل نيمى وبعده ، مباشـرة — بحرف عطف — يهرب نمرود . ايضا لماذا يهرب نمـرود . هذا القاتل المجهول الذى هو فى حقيقة الامر الايديولوجية الصهيونيـة فى شكلها العدوانى البالغ ممثلا فى جيل السابرا — قد قتل أى دمـر الجانب الطيب — ممثلا فى نيمى الصبى المتفتح للحياة — وترك مسخـا هو نمـرود الصخرة — الهاوب ابدا . ولكن تبقى قضية أخيرة ، الإثـم لمـا تقول لنا المؤلفـة أن اثما أو ندمـا .

قد خالط همس الام المتكسر؟ لماذا تستشعر الام اثما ؟ لاريب أيضا أننا بازاء حدس عميق أعتراف أخير من جانب الام بدور ما فى دفع الابن الى ماصار اليه ، دورها كان فى الاستسلام لتشويه الاب لشخصية الابن ، لقد اغتصب الاب دور الام رعاية الطفل ، وبالتالى كان حرمان الابن قبل الاوان من حقه فى حب موصول من جانب الام . ان لمسة الندم فى صوت الام لحظة احتضارها تعرب عن احساسها بمشاركة بالصمت فى جريمة القتل هذه .

وتتضح لنا العلاقة الجدلية بين الحضور والغياب فى الفقرة الاولى من الصفحة التالية مباشرة (ص ١٣٥) فنمرود فى منتصف الطريق الى قمة الجبل ينظر الى السماء وهو يعلم أن هذا هو المكان الصحيح لتواجده أثناء احتضار أمه ، وتتدفق الخواطر فيما يشبه المنولوج الداخلى ، يقول لنفسه ، أمى تموت ، لقد مات لامخ منذ وقت طويل ولم يزر قبره منذ سنوات ، وزكى يكاد يكون قد مات (فى الاسر) وجدعون يعيش كا لميت سنوات — أمه تموت وهو يستطيع أن يسمع آخر دقات قلبها

وهكذا فبالرغم من البعد فهو يستطيع أن يسمع آخر دقات قلبها أنه بعيد قريب بل أنه قريب قربا لايستطيع معه الا ان يكون بعيدا على هذا النحو .

ويقترب المساء ويصل نمرود الى البيت حيث يجلس ابوه منتظرا اياه ، وتقول المؤلفة " لقد كان ينتظر ولده ، ماضيه ومستقبله "

(ص ١٣٥) . ويقول افرى لولده " لقد ماتت امك دون ان تكون معها ، ولكننا نحن نعيش دون أن تكون معنا " وهكذا يؤكد الاب مثلما أكدت الام عند احتضارها غياب نمرود ، وعندما يسأل نمرود أباه عن حاله مخاطبا بأسمه المجرد " افرى " يجيب الاب " نعم يانيمي قل لي ياأبي " وهكذا يستخدم الاب الان اسم التدليل الذى كان ينكر فيما مضى على الام استخدامه ، وفي نفس الوقت يطالب ولده بأن يناديه قائلا " ياابى " افرى يريد ان يصبح ابا وان يعيد نمرود نيمى الصغير وكأنه هنا يعين نفسه تعيينا ذاتيا بالام ، وكأنه بذلك يعيد تصحيح اخطاء الماضى .

كيف يمكن ان يسمع نمرود آخر دقات قلب أمه الا يكون ملتصقا بها ، ان احتضار الام يبعث الى ذاكرته صورة لامخ — الاب الطيب —

ويذهب نمرود الى حجرة زوجته ليجدها نائمة وقد أمسكت بين يديها بالارنب الجلدى الدمية — أرنب لامخ — وكأنه كما تقول المؤلفة " آخر شئ تتعلق به في هذا العالم " (ص ١٣٥) أنه أشبه بالقشة التى يتعلق بها الغريق انها هنا تستنجد فى نومها برمز الجانب الطيب من نمرود — الارنب — وكان وجهها يبدو مضطربا مشوها وكأنها فى كابوس . وعندما ينحنى عليها نمرود ليقبلها ، تهب من نومها صارخة مغزعة وتصرخ فى وجهه قائلة : " أخرج من هنا ، اذهب بعيدا ، لا أريدك أن تلمس طفلى ، أو تقترب منه . أذهب الى جبالك ومعاركك وأماكنك السرية " (ص ١٣٦) .

لقد رأت فيه كما تقول المؤلفة " وجه ولدها وهو يتجنب فـراش موتها " وهكذا نرى ايللى هى الاخرى فى تعيينها الذاتى الاستدماجى مع مريام تفزع من نمرود وتبحث فى حلمها عن المنقذ ، عن نيمى الطفـل الارنب . وتنصرف ايللى مذعورة الى حجرة نومها وتغلقها عليها وتنتحب ، ويسمع انتحابها ويريد أن يحادثها ، بل لقد أراد لحظة أن يدفـن رأسه بجوار الارنب فى حجرها ولكنه كان يعلم أنه لا يستطيع (صـ ١٣٦) وهكذا فنيمى الصغير الحبيس داخل نمرود الصخرة يحاول ولا يستطيـع وتقول المؤلفـة " كان لديه شعور خانق وكأن شيئا قد ادخل عنـوه من فمه حتى صدره فمعدتـه " هذا الشئ أو الموضوع ـ هذه الغصة ـ تخنقـه ، تحول بينه وبين التواصل بالفم والمعدة والصدر بعبـارة أخرى يحول بينه وبين التعبـير عن حاجاته التواصيله ، خصوصا ذات الطابع الفمى . وتقول المؤلفـة ايضا " لم تكن جسما أوسدا Black بل ألما يعرف أنه سيبقى الى الابـد " ألسنا هنا بأزاء ماتعتبره ميلانـى كلاين ومدرستها موضوعـا شريرا يجسم على الموضوع الطيب ويحول دون حركته . ان الجانب الطيب نحس به مشلولا عاجزا عن الحركـة .

ولعله يجدر بنا أن نورد تلك الفقرة التى تقول فيها المؤلفـة : (صـ ١٣٦) "عندما يحس بالاشياء يحس بها أسفل هناك ، فى معدتـه وعندما يفكر فيها تكون فوق فى رأسه ، وبين هذين توجد هذه الكتلـة وشئ غائب ، أو ناقص فى الدم والقلب والعروق " هذه الفقرة تعبر بصـورة عيانية بارعة عن طريق لغـة جسدية رمزية عن ذلك الانفصال أو الانشطـار بين الجانب الوجدانى والجانب العقلانى ، بسبب تلك الكتلـة أو الجسم

الذى يمتد من الفم الى المعدة . كذلك يكون انفصان أو الافتقاد الذى يستشعره فى عروقه ودمه وقلبه وهل يمكن للحياة أن تستمر دون تدفق الدماء عبر الشرايين ، ودون أن ينبض القلب ويدفعها . أن وحدة الوجود الوجدانية والعقلانية والاجتماعية قد تمزقت وتعطلت وسدت منافذها ومساراتها عند نمرود لم يعد أمامه مفر من الهروب الدائم . ان جسما غريبا بداخله Black ، ماهذا الجسم الغريب هل هو الايديولوجية الصهيونية الاسرائيلية بما تنطوى عليه من تزييف الوجود الوجدانى هذا مانعتقد ، هذا الجسم الغريب الذى يسد بين مايسد من أعضاء معدته والتى يجب علينا النظر اليها من حيث دلالاتها الرمزية الاستعارية التشبيهية . فيحول دون وصول الطعام اليها ، ثم دون هضمه ثم بعد ذلك يؤدى الى حرمان الدم والقلب من هذا الغذاء بعد تمثله وتحويله الى دماء وطاقة وحيوية ، هذا " الجسم " الذ ن يحول دون التبادل والتواصل الانسانى الوجودى ، فيتحول نمرود الى صخرة ، أنه يتكلس أو يتحجر كما هياكل الانسان القديم ، لذلك تصفه المؤلفة بقولها : "كان عاجزا كرضيع ، الصخرة أمام باب مغلق ، ولم يستطع ان يجدى او يعتذر ، لم يستطع ان يبكي أو ان يطلب" (ص ١٣٦) الا تقابل هذه الصورة الصورة السابقة مباشرة لنمرود وحيدا قرب قمة الجبل حيث لا أثر لقدم انسان ، وتقول المؤلفة ايضا "لقد أراد ان يخبرها بمشاعره ولكنه لم يستطع وصار وحيدا مرة أخرى" انها الكتلة مرة اخرى ، ولكن الا نحس ان هروبه الى الجبل كان دفاعا لم يقوى على الاستمرار فيه ، فها هو يندفع الى حجرة ايللى ،

يطرق باب نومها الموصد ٠٠ أن فقدان الام يؤجج من شدة الحاجة الى بديلها — الزوجة — الا تشبه حجرة النوم المغلقة وهو يقف عاجزا أمامها كما طفل قبر الام وقد استحال التواصل ٠

لقد كان سلوك ايللى عاملا فى تصدع الدفاع اذ يكاد ينهار قناع الصلابة فيقول لزوجته بالحرف الواحد "الوقت متأخر ، وغدا الجنازة وأنا محتاج اليك ياايللى ويكررها ثلاثا ٠٠" (ص ١٣٦) ويقول لها ايضا "كان لابد ان اكون بمفردى الا تفهمين؟ وفقط امى وأنا والله " فهو وحيد ولكنها أمه اولا ثم هو ثم والله" ويعترف لها بأنه كان يحبها وينام على عتبة الباب الموصد ، باب نوم ايللى وعندما يستيقظ ينظر الى الباب الخشبى الغليظ ، ولاترضى ايللى ان تكلمه ٠

ويأتى بعد ذلك مشهد الدفن ويحضر جدعون ويسير ببطء ، آخر المجموعة ، أما ايللى فتسير مستندة على افرى ، أما نمرود فكان فى المقدمة وراء النعش مباشرة ، وفى ذلك أشارة الى قربه فى المقدمة من أمه قربا لايدانية فيه أحد وبعد الدفن يقف جدعون بجوار نمرود ويقول له "يوما ما ستخاف الموت وعند ذلك ستندم من أجل ملايين اللحظات فى حياتك انني اعرف نوع وحدتك وذلك يقرب بيننا" ٠

ويجيبه نمرود بقوله "لن أخاف الموت ، وربما يأتى يوم اخاف فيه أن اموت هل تعرف ميرمام جيدا" ٠

وهكذا نجد ارتباط الخوف الموت الام ، ولعله يبدو غريبا ان يسأل

الابن شخصا آخر عما اذا كان يعرف أمه جيد لاتقل غرابة اجابة جدعون على هذا السؤال اذ يقول " وهل تعرفها انت ؟ وهل يعرفها ابوك؟ ربما كانت اسرتها فى القريــة القريبة من الفولجا تعرفها وربما تكون قــد تغيرت ذلك الوقت ، اننا لن نعرف ابدا " (صـ ١٣٧) وهكذا فميريام " كيان " مجهول من ولدها وزوجها واقرب الاصدقاء الى الولد والزوج ان هويتها القديمة ـ اليهوديــة ـ مجهولة من الجميع ، ولم يعــد معروفا حتى ما اذا كانت قد ظلت محتفظة بهذه الهوية فى موطنهــا الجديد اما انها تغيرت عما كانت عليه . ان كلمة " مجهولة " يمكــن ترجمتها ببساطة بكلمة أخرى " غريبــة " وهكذا فاغتراب الام فى هــذا السياق اعنى عن المجتمع الصهيونى الاسرائيلى . واغتراب المجتمــع عنها وعن صميم هويتها ووجودهــا .

ويعود نمرود بعد مراسم الدفن وأول مايشغل باله المكان الذى وضعت فيــه ايللى الارنب الجلدى ولكنه لايجدها ، لقد هجرت المنزل ، ويلفت نظرنا حال نمرود عندما يتبين مغادرة ايللى للمنزل " صراخ ، ثم همس " أنه أشبه برضيع أنصرفت عنه خلســة أمه ، حتى أنه يسارع الــى أبيــه الذى كان قد انصرف عنه الى وحدته وانغلاقه ، يسارع اليـــه مستنجدا ، مخبرا اياه بذهاب ايللى وعندما يخبره أبوه بأنه يعـــرف وأنه رآها وهى تغادر المنزل ويقول له " لماذا لم تمنعها ، لقد رأيــت زوجتى تذهب تحمل معها حفيدك وتتركها تذهب ؟ " .

وتكون اجابة الاب العميقة الدلالة " لقد رأيت ايللى ، رأيت امرأة

تذهب ، فتركتها ، وأرى أمامي ولدى على غير مايرام in the wrong "وأقول له اذهب وراءها " وهكذا فالاب يشخص حال ابنه فهو " على غير مايرام " أو على غير مايجب ان يكون عليه ويطلب منه أن يجد في اثرها ، وكان الاب يقول لولده عد الى مايجب ان تكون عليه ، عد الى جادة الصواب ، تعود اليك زوجتك فالتي ذهبت كانت امراة ، وليست زوجته بالمعنى الحقيقى والانسانى لما يجب ان تكون عليه رابطة الزواج .

ترى هل تفقد نمرود زوجته بفقدانه لأمه ؟ أو على الاقل تفقد فيها ذلك الجانب الذى تمثله الام حنانا ومحبة وعطاء هل هى مصادفة ان تذهب الام بـ ـرثها وان تذهب الزوجة فى نفس الفصل تاركة زوجها .

الفصــل العشــرون

انتهى الفصل السابق برحيل ايللى ، ويبدأ هذا الفصل بوصولها الى يورام ورينا فى تل أبيب • وعندما تدخل ايللى شقة الزوجين تبدو لثانيــة غريبــة ، " وتبدو فى عينيها المتورمتــين نظرة حزن عميقــــة" (صـــ ١٣٩) فقــد كانت تبكى طوال اليــوم • وكانت الدموع تغطــى خديها ورقبتها •• وكانت ترتعد •• وتمسك بمعدتها وبــدى وكــأن جسمها كله يقــول شيــئا مــا •

وعندمــا القت بنفسها على الكرسى الذى اشار لها يورام بالجلوس عليه قالت " أرجوك اطفى النور فأنا لاأستطيع احتمالـــه " •

وهكذا نتبين عمق الازمة ، أو المحنة التى عانتها ايللى منذ بــدأ بأختصار ميريام فموتها ، ثم غضبها و ... هجرها لمنزل زوجها •

ويطيب الزوجان خاطرها ويحاولا التخفيف عنها وتقول رينا " هــل تحبين ان يأتى طبيبى لزيارتك " وتجيب ايللى " لم أعد ابالى " وعندمــا يسألانها ماذا كانت تريــد ان يخبرا نمرود بحضورها اليهم ترد أنه كأنها فى حلم وتقول وكأنها تهذى " نمرود لا •• نمرود نائم ، لاتتحدثا اليه ابدا ، ربما تحدثت الليلــة الى ميريام ولكن ميريام قــد دفنت اليوم " (صـــ ١٣٩) •

اننا نحصرفى عالة الهديان تلك بمشاعرها نحو نمرود ، أو باحساسها بموقفه منها فهو نائم ، بعبارة أخرى غائب عن الوعى بما تريده وتحتاجه وتعانيه ، ان ميريام هى وحدها القادرة على فهمها " لكن ميريام قد دفنت " .

وعندما يعتذر الزوجان عن عدم مشاركتهما فى جنازة ميريام تقول لهما " نمرود هو الاخر لم يحضر " وتضحك وتضيف " .. لقد قتلها نمرود " وهكذا فالزوجة رغم ماتبدو عليه من هذيان وخلط تعبرفى حدس عميق عما فعله نمرود بأمه — بمعنى مافعله جيل السابرا فى كل ماتمثله الام من عواطف ، ومشاعر وقيم .

وعندما يشرع يورام فى اغلاق الباب الزجاجى المؤدى الى الشرفة تصرخ ايللى قائلة " افتح الباب، انني أختنق ، الجو هنا حار ، افتحوا القبور والابواب ، والارحام والاإختنقنا جميعا " (ص ٢٤٠) الاشارة هنا الى حرارة الجو الخانقة تعنى رمزيا المناخ الايديولوجى او الجو الاجتماعى ، لذلك تطلب فتح الابواب ، والاحام ، والقبور بعبارة تطالب بصورة رمزية مجانية بالتحرر والانطلاق من القيد الخانق والقبور هنا لاتشير الى المعنى الحرفى للقبور حيث تدعن جثث الموتى ، وانما يشير الى المعنى المجازى لكل مايحبس بداخله شيء انسانى حى من عواطف ومشاعر ، لكنها تتحول بداخله الى جثث وتنتاب ايللى نوبة من الهياج والخلط ، ضرب من ضروب الانهيار العصبى ، ولكننا نلاحظ اننا اذا كنا نعرف الجنون (الذهان) فى المجال الاكلينيكى بأنه فقدان القدرة

على اختبار الواقع ، الاجتماعي بالطبع واختلاف واقع بديل زائف فـأن الزيف هنا ينطوى جدليا عن ضرب من ضروب الحقيقة فهذا التزيف للواقع — فى الذهان — ينطلق من الواقع ذاته وقد صار فوق قدرة المريض على احتماله • ولكن الامر على خلاف ذلك فى الاعمال الادبية فالمجنون أو الدرويش ، أو الممسوس (أى من به مس) والبلهاء •• الخ هــؤلاء جميعا يؤدون فى الاعمال الفنية وظيفة مخالفة • فى الواقع الفعلى المرضى العقلى هروب من واقع قائم على زيف ، اما فى الفني بالمريض العقلى أو النوبة العقلية ••• الخ تنطوى على رفض الواقع الزائف ، وتخلص من ضرورات الانضياع له والالتزام بمعاييره واتخاذا موقف الرفض والفضح والادانة ، وقد استخدمت المؤلفة فى حدس جيد هذا الامر على وجه طيب ، فايللى زوجة نمرود ، تنهار على اثر موت ميريام ، وبخاصة بفعل موقف زوجها من هذا الموت ، وتسقط فى لحظة ضعف اقنعة الالتزام والتوافق والتراضى والانصياع ، لذلك نراها وهى تقيم فى ضيافة رينا ويرلام يفضح فيما يشبه الهذيان عن خلاص عميق بطبيعة زوجها الفردية النرجسية الانانية البالغة ، لذلك نراها تقول مثـلا " هل يمكن لصخرة ان يحب ، أو يبكى ، او يهتم ، أو أن يرغب فى اشياء ؟ " ومع ذلك تقول " اننى أحبه (ص ١٤٠) " لقد تزوجت حجرا " جـذع شجرة ماتت عند ميلادها •• واديا اجرد لاينمو به شىء " كما تعلق انها لاتريد طفلها وتكرر ذلك موجهة حديثها الى رينا وهكذا تصل ايللى الى فهم عميق لحقيقة زوجها صخرة جردت من كل اشكال الحياة وادى اجرد ، جذع شجرة ميتة ••• ولهذا لاتريد ان يكون لها منه ولد يأخـذ

منها نفس موقفه من أمه وفى هذه اللحظة يرتطم يدها بفنجان الشاى فيسقط محطما على الارض مما يعرب رمزيا عن رغبتها فى التخلص من جنينها ، فتحطيم الفنجان وسكب محتواه يرمز للرغبة فى الاجهاض، الفنجان الرحم وتحطيمه وانسكاب الشاى منه رمز لخروج الطفل محطما أى غير مكتمل .

وبعد ذلك نراها تكرر قولها انها لاتريد الطفل وانما يريد " اباها " وهكذا تحت وطأة هذا الاحباط فى ظل هذه العلاقة غير المشبعة تزيد — لبعض الوقت طبعا — ايللى الى طفلة او دميية تبحث عن ابيها .

هى لاتريد ان تكون اما لابن " صخرى " وانما تريد ان تعود طفلة بين احضان اب " يهودى " من طراز " لامخ " ان طلب الاب هنا لايعرب فقط عن مجرد رغبة أو دميية وانما يعبر ايضا عن رفض — الايديولوجية الصهيونية — الاسرائيلية ، ايديولوجية جيل السابرا ممثلة فى شخص نمرود ، وطلب الامن والحماية فى ظل اطار آخر للوجود اطار يهودى خالص وان كان ذلك غير ممكن بالطبع ولذلك نجد ايللى تستسلم مرة اخرى بالتدريج لنمرود ، ليجل السابرا ، فهى فى أعماقها مفتونة به ، بما يشكله من حماية لها من مخاطر الضعف اليهودى الاوربى فى مواجهة الخطر النازية ولعل هذا هو المأزق للشخصية اليهودية انها اذا جاز هذا التعبير بين نارين ، نار الاستسلام لخطر الدمار من الخارج ، ونار الاستسلام لدفاع اصطناع القناع

" الصخرى " وما ينطوى عليه من خطــر الدمار من الداخل، الخطر الاول يشكل دمار ماديا والخطــر الثانى يشكل دمار بشريا وروحيا ٠

وبعد اعلان ايللى عن عدم رغبتها فى الطفل ، وعن رغبتها بــد لا من ذلك فى ابيها نراها تطلب من الزوجين ان يتركاها بمفردها ٠ ويسأل بورام زوجته عن جلية الامر وتجيبه الزوجة بقولها " اننى افهم ذلك كله " فهى فى نهاية المطاف زميلة نمرود ورفيقة طفولته ولعبة ، وابنة نفس القرية انها تفهم ماتعنيه ايللى ، ولعلنا نذكر تلك المواجهة العادة بــــين المرأتين فى منزل جدعون عندما كانت رينا اقرب الى الصخور واكثـــــر حدة فى رفضها لانوثــة ايللى ، ولكنها استطاعت بفضل علاقتها بيــورام وانتقالها الى المدينة ان تخفف من حدة دفاعاتها وتصبح اكثر تقبـــــلا لاحتياجاتها الانسانيــة والانثويــة على السواء ٠

لذلك ايضا نراها وهى فى طريقها مع زوجها الى فراش الزوجيـــة تضمه اليها برقة وبامتنان واعتراف بالجميل لم يسبق لها ان عبرت عنــه على هذه الصورة كما تقول المؤلفة (صـــــــ) ان هذا الاعـتراف بالجميل مرجعه ان يورام قد خلصها مما كان يمكن ان تلقاه اذا هـــى تزوجت نمرود فى لعبة من القوة وبقيت فى قريــة بيت عون ٠

وعندمــا يتصلا (الزوجين) بنمرود بخصوص ايللى ويشرحا لـــه الموقف نجد ان أول مايقوله لهما هو " ولكن الطفل " وهكذا فنمــــرود لايهتم الا بنفسه وبصورته النرجسية ولده ، حتى وهو لايزال جنينا فـــى رحم أمه وفى علم الغيــــب ٠

ويلفت نظرنا سؤال نمرود ليورام عن سبب ترك ايللي للمنزل على هذه الصورة • انه لازال حتى بعد ذهابها عاجزا عن ادراك دوره في حدوث ما حدث • صحيح أنه يكشف عن قدر من الاستبصار المحدود ، عندما يقول ليورام "أعتقد انني حيوان ، ولكنني اعرف انها تحبني ، انني لا استطيع ان اغير شيئا على الاطلاق" نمرود اذن يدرك عجزه عن التواصل الانساني ، ويعرف ان زوجته تحبه ولكنه عاجز تماما ، اسير ذلك الدرع الذي يحاصره تماما يمكنه منه فكاكا •

ونجد في اجابة يورام على استفسار نمرود ايضا حدسا آخر اذ يقول "لقد هجرتك لان المرأة عندما تعتقد ان زوجها بلاقلب تتركه" ويقول له ايضا انها دائمة الحديث عن ابيها انها تطلب الحنان والعطاء — الانساني العميق والحب المتدفق • ان آخر كلمات يورام في حديثه الهاتف مع نمرود قوله له "انها وحيدة" وهكذا فالجميع يؤكدون لنمرود انه غائب •• غير موجود ، ليس هنا •• الخ ولاتتحسن حالة ايللي تبقى مجهدة ومنعزلة ،لاتنصت، ولاتجيب ، ولاتسأل وتظل تكرر نفس الكلمات القليلة •• لااريد الطفل أريد ابي ••• الخ وعندما يذكر اسم نمرود يتجمد وجهها (ص ١٤١) وتظهر عليه تعبير غريب يمتزج فيه الابتسام مع النفور وتلمس بصورة آلية بطنها •

هكذا اذن تعيش ايللي الصدمة ، وتخوض نضالا مريرا وصولا لمثاليتها وتناقض مشاعرها الوجدانية الثنائية نحو الطفل الذي اصبح امتداد نمرود بداخلها ، ويراها الطبيب ويقرر ان عقلها واعصابها ••

كما يقــول ايضا أنه يجب ان تعـــود الى منزلهـــا •

ولكن الغريب ان الطبيب يقول " ينبغى ان أرسل زوجها الــى طبيب " ان ثمة اعتراف باصطراب نمرود ذاته بحاجتــه الى علاج •

وتستمــر الحياة فى بيت عون ويقول القرويون " ان ايللى لم تعــد كما كانت — حرفيا لم تعد نفسها — بعد وفاة ميريام • وكان افــرى نادرا مايتحدث الى نمرود ••• وكان نمرود يخاطب يورام هاتفيــا من وقت لاخــر ليسأل متى تحضر ايللى ، ويظل يشغل نفسه بالحقل •• ويحاول نمرود ان يفهم لانه افتقــد ايللى ويذهب الى حيفا ذات يــوم ليختار اشياء للمــنزل وللطفل ، ويشترى محراثا لعبة اعتقــد انهــا أعجبيه ولكنها لم تعد تعجبه عندما وصل الى المنزل ، كما اشــترى بطانية جديدة لايللى كان يعلم انها تريدها اذ اشارت اليها عندمــا كانا فى حيفا معا •• المهم اننا نجد فى هذه الزيارة لحيفا مايتم عــن محاولــة من جانب نمرود لافقــط للغير وانما لتغيير نفسه ، فهو يشترى محراثا جديدا — نلاحظ دلالته الرمزية الذكرية بالاضافة الى وظيفتــه الموضوعيــة وقيميتــه العملية التي تدل على استمرار انشغاله واهتمامه بالحقل • على ان شراء للعبة يذكرنا ينمى الطفل وبالارنب الجلدى ، ولكنه ما أن يعود الى بيت عون حتى يسترد دفاعاته فيعود " صــخرة " مرة اخرى ، ومع ذلك يشــترى بطانية لزوجتــه ، بما ترمز بــه من دفء الحــــب •

وتقــول لنا المؤلفــة " حاول نمرود ولكنه لم يحقــق نجاحا كبيرا "

(ص ١٤١) لقد تبين كيف كان غياب ايللى قاسيا عليه ... وكان يبد و له دائما ان التعبير بكلمات عن حبه تزيدا لاداعى له .. وفكر لحيرته واضطرابه فى زيارة جدعون ، ومحاولة مناقشة الامور معه وهكذا يتجه نمرود الى جدعون وتقول لنا المؤلفة ان شيئا قد حدث لجدعون منذ ان رآه اخر مرة اثناء الجنازة ، وتقول ايضا انه بالنسبة لهؤلاء الذين يسهل خداعهم (ص ١٤٢) يبد و جدعون وكانه تحسن فقد بدا اكثر سمنة وصحة ، ولكن كان ثمة شئ جديد فى عينيه فى ابتسامته ، شئ ليس عاقلا ولا سويا تماما ... لذلك شعر نمرود بالاسف لذهابه اليه وهكذا نجد نفس الشئ ، فوفاة مريام قد اثرت فى ايللى ، كما اثرت فى جدعون ، صار اكثر جنونا ، واذا قلبنا الامر لقلنا صار اقدر على النفاذ خلال الزيف والاغتراب القائم فى مجتمعه .

وتذكر لنا المؤلفة ان اول مايلقابه جدعون نمرود قوله " لقد ذهبت ايللى لقد ذهبت ميريام ، لقد ذهب افرى، وسأذهب انا قريبا جدا . اما انت لم تكن هنا ابدا " ان هذه الكلمات تبدو ظاهريا ضربا من الهذاءات الذهانية بالمعنى الحرفى للمصطلح الا انها فى حقيقة الامر ضرب من الاستبصار العميق بحقيقة ماحدث " ذهابا " أو " غياب " أو " اختفاء " بالمعنى الوجودى الانسانى لقد خلال المجتمع من الجوانب الانسانية لدى مثليه هؤلاء جميعا ، ان موت ميريام يعبر عن موت كل ماهو طيب معطاء لدى جميع الاخرين ، لذلك عزم جدعون على الغياب الحقيقى بالموت . ولقد مات وجوديا بالفعل ولم يعد باقيا الا ان يموت جسديا هكذا نجد الام ، ثم ايللى ، ثم الاب،

ثم اخيرا جدعون يؤكدون جميعا لنمرود أنه ليس بينهم .

وعندما يسأل نمرود جدعونا عما يتحدث عنه يقول له " انه المناخ " (بالمعنى الانساني الاجتماعي الايديولوجي بالطبع) فهذه القرية الصغيرة على ضفاف البحيرة ، أنه ليس سهلا ان تترك وراءك كل شيء وتسمي نفسك جديدا ، ان الامر يحتاج الى عملية بطيئة بطيئة (يكررها) ولكننا جميعا موتى لاننا نسرع في الابتلاع قبل المضغ ، لذلك نختنق انفسنا " نقف عند هذه الفقرات لتوضح معناها ان جدعون في جنونه الظاهرى — اذا لايمكن ان يكون مثل هذا الاستبصار العميق مقبولا في مجتمعه ، بل لابد ان ينظر اليه بوصفه جنون — يفطن الى مجرد الانتقال من بلدان الشتات وترك كل تاريخ وتراث ، والام وأحزان ليس كافيا وحده ، ليجعل من هؤلاء المهاجرين نمطا جديدا ... ان جدعون هنا يؤكد حقيقة علمية موضوعية وهى استحالة خلق مجتمع مصنوع ان الامر لايتم على الوجه السليم الا عبر عمليات تاريخية بالغة الطول والتعقيد ان غرس الجديد ، شأنه شأن زرع الاعضاء فى جسم غريب عنها لايمكن الا ان يلقى مقاومة بالغة تنتهى برفض الجسم الاصلى للعنصر الغريب .. هذه هى بايجاز حقيقة جيل السابرا جيل الجسارة الخارقة المصنوعة الباهظة الثمن .

وبعد ذلك يؤكد جدعون لنمرود ان زوجته ستعود اليه فهى تحبه " الحمقاء " كما يقول هو ، لانها بالرغم من كل شيء يحب فيه الجديد المقزز ، والقوى و " الحجرى " والطريف ايضا قول جدعون لنمرود (ص ١٤٢

" هذه بلاد طيبة ، انها لا تأكل سكانها ، وانما نحن الذين تأكل بعضنا البعض الاخر وعندما ينتقل نمرود الى الحديث عن ابيه وعن رغبته فى مساعدته يجيب جدعون قائلا " لا أنك لن تفعل ، انك تظن أنه أحمق ، هل هو قلق ؟ انه الندم . انني اشعر نفس الشعور لقد اطعمناك الرمال والان وبعد ان تجمدت حياتك نتساءل لماذا تقذفنا بالحجارة بدلا من الفطائر .

وهكذا ايضا يعترف جدعون باثمه واثم افرى وندمهما معا لمسئوليتهما عن تكوين شخصية نمرود على هذه الصورة، لقد اطعمناه رملا ، لذلك يقذفهما بالحجارة .

وبعد ذلك مباشرة يطرح جدعون على نمرود سؤالا عن موعد ميلاد ولده . ويسأله اذا كان يريد الطفل وعندما يبدى نمرود دهشته لهذا السؤال فهو يريد الطفل بكل تأكيد يسأله جدعون ثانية " الاتخاف من انجاب ابن ؟ لماذا اذا اصبح مثلك ؟ والطريف ان نمرود يقول لجدعون ان اباه كان يريد ابنا مختلفا عنه ، أما الان فهو يريد ابنا شبيها به .

وبعد ان يطلب جدعون من نمرود ان يذهب من فوره الى

زوجتـه ليحضرها يطلب منه طلبه الغريب و المنطوى على استبصار ايضا ـ الا يحضر لزيارته بعد ذلك ابدا .

ان طلب جدعون هذا على غرابته الظاهرة ينطوى على معنى فهو وقد استسلم لليأس وأحس بعجزه عن تصحيح ما تورط فى افساده ـ فهو مشارك مع أخرى فى ذلك ولا يجد امامه مفرا من التنفيس عن غضبه الا ان يطلب من نمرود الا يراه بعد الان ابدا .

ويذهب نمرود الى تل ابيب ليعود بزوجته ، ويقبلها ويعاملها برقة وود ويعودان معا الى بيت عون ويخبر يورام بأن ثمة اشياء كثيرة تؤلم ايلى وانه ـ أى نمرود لا يعرف ولا يفهم هذه الاشياء وتبدو ايلى على قدر من الحماس والتشوق الى العودة ، ويطلب نمرود ان ابيه ان يأتى فى الصباح ليشاركهم طعام افطارهم فتضيف ايلى " وكل صباح " وعندما تلاحظ البطانية لاتستطيع ان تمنع دموعها وتسأل نفسها " لماذا لا يستطيع أن يكون كذلك دائما ؟ " ولكنها تعلم انه يتمنى ولكنه لا يستطيع وتكاد تستسلم لقدرها وتمتزج مشاعر الاشفاق مع مشاعر الحب نحوه . ويتبادل الزوجان التعبير عن عواطف المحبة وتخبر ايلى زوجها بما عرفته عن ابيها

فقد مات في اسرائيل منذ ست سنوات من جراء مرض اصابه في المعتقل .

ويتبادلا حديثا حول حركة الطفل في بطن ايلي و يعربان عن سعادتهما بذلك ثم يتطرق الحديث الى جدعون و شعره الذي يدور حول الزهور ، التي تموت والنباتات التي لابد ان تموت و تترك المكان لغيرها .

وتطرح ايلي على زوجها سؤالا : " هل تعتقد ان طفلي سيكون بجواري عندما اموت " ولا يجيب نمرود ، فهو لا يعرف قد يكونا معا هو والطفل يتسلقان جبلا ، أو يخوضا حربا ، وربما يكونا بجوارها .

الفصل الحادى والعشرين

هذا هو الفصل قبل النهائى فى الرواية. يدور حول الموت والحياة موت جدعون "الصخرة" السابقة ، وميلاد جدعون الصغير ولد نمرود .

هاهى ايللى تستعد للذهاب الى المستشفى ، وكل شىء معد لاستقبال الوليد ، حتى افرى صار يبتسم أكثر مما كان يبتسم فى أى وقت مضى ، رغم انه اعتاد زيارة قبر ميريام صباح كل سبت ، الا انه يبدو وكأنه قد اعتاد ان يعيش وحيدا . اما نمرود فكان أعظم الجميع سعادة .

وفى تل أبيب ولدت رنيا نتاة ولم يعد احد يتذكر ما مرت به ايللى من عناء وتعاسة بعد موت ميريام . وعندما يعود نمرود الى منزله بعد أن ودع زوجته التى أخذها الطبيب فى عربته ليذهب بها الى المستشفى يجد أباه فى انتظاره ممتقع الوجه مرتعشا ليسلمه رسالة له من جدعون ، ويقول انه مات ، ويخبره أن جدعون قد انتحر ، اذ اطلق على نفسه رصاصتين ، واحدة فى معدته والاخرى فى رأسه .

وهكذا نجد تلك المقابلة بين طفل على وشك استقبال الحياة ، وآخر يودعها بتلك الصورة الدرامية ولعلنا نتساءل ما معنى أن ينتحر جدعون ، وما معنى أن يطلق على نفسه رصاصتين ، واحدة في معدته (رمز الحب وتلقي الطعام) والاخرى على رأسه (رمز قضيبي ، بالاضافة الى دلالتها العقلانية) هل يشير ذلك الى استحالة الاستمرار وجدانيا وعقلانيا . هذا بالاضافة الى ما ينطوي عليه الانتحار بهذه الصورة الغريبة ، والتي ان لم تكن شبه مستحيلة فهي أمر لا يقدر عليه الاجبار ، الا صخرة فيفرض أن أطلق الاولى بالطبع على معدته ، واستمر على اصراره رغم الالام ليطلق الثانية على رأسه ، اننا أمام ما يشبه لعبة " من الاقوى " وكأن المؤلفة تقول لنا في حدس نافذ ان هذه هي نهاية من يضع قدمه على هذا الطريق .

وها هو قد وقع " كما يطلب افرى من ولده الا يخبر ايللى قبل أن تعود من المستشفى بصحبة طفلها اذ سيكون ذلك صدمة مريعة بالنسبة لها .

ويذهب نمرود الى منزل جدعون ، ليجد كما تقول المؤلفة كومة من البقايا أو بقايا البقايا من جدعون ويلفت النظر أن نمرود يجد كمية من الدماء مرافقة ما كان يعتقد أن من الممكن أن يحتوى

جسم جدعون على مثلها انها تعبير مجازى عن تدفق الحياة الداخلية عند جدعون رغم موتها الظاهرى ويحس نمرود كما تقول المؤلفة ايضا للمرة الاولى منذ سنوات طويلة بالرغبة فى البكاء ، ولكن لم يكن هناك انسان يشاركه البكاء ، بعبارة أخرى نتبين مكانة جدعون الحقيقية عند نمرود ، انه يستشعر فقدان حقيقيا لم يستشعره عندما ماتت أمه ، ان الرغبة فى البكاء تعبير عن احساس حقيقى بالفقدان ، بل أنها ايضا لدى شخصية لها هذا التكوين الدفاعى " الصخرى " تدل على تعلق وارتباط حقيقى من القوة بحيث يكاد ينجح فى اختراق حائط الدفاع الصخرى ولكن لعلنا نتساءل لماذا يحتل جدعون هذه المكانة فى قلب نمرود وفى قلب جيله ، وفى بناء الرواية ، هل لمجرد أنه كان صخرة فى مجتمع الصخور ، لقد ... نمرود صخرة له مكانة طاولت مكانة جدعون بل فاقتها . ان مكانة جدعون ودوره الحقيقى وعظمته تبدأ بعد أن صار بقايا " صخرة " بعد أن فقد ساقا وذراعا ، وصار قعيد الدار ، يقرض الشعر الساذج ، ويلقى بكلمات تدفع الآخرين الى اتهامه بالجنون ، بل ان اقدامه على الانتحار ، وهو فعل لا يمكن لمشتغل بالطب النفسى أو التحليل النفسى أو علم النفس ان يضع من يقدم عليه أو حتى يفكر فيه خارج نطاق الاضطراب

بل و المرض العقلي الحقيقي ... ومع ذلك فالقارئ الذي يتوفر له قدر من الحدس والاستبصار لا يمكن الا أن يفطن لمعاني انسانية عميقة تنطوي عليها شخصية جدعون وقد صار عاجزا فارتد قادرا ، ان اقدامه على الانتحار في سياق احداث هذا الفصل على وجه التحديد تنطوي على حكم صائب وحدس عميق ، انه كما ستعرف من خطابه لنمرود يفسح الطريق لجيل جديد غير جيل الصخور الذي اثبتت الاحداث عقمه واغلاقه . لذلك يكون شعور نمرود الغريب الذي لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ، شعوره بأن فقدان جدعون صار أكبر من الحياة ، انه بمعنى ما بعث آخر لحياة أفسح وأصدق وأبقى .

ويخرج نمرود من منزل جدعون ، ومعه رسالة وتقوده خطاه الى مكان الاجتماع القديم ، يمر بجوار المعبد ، فالحقول ، ثم الوادي الابيض الذي بدا له أكثر بياضا من أي وقت مضى ويفض الرسالة ، وكأنما نمرود يستعيد شريط حياته بدءا من مكان الاجتماعات السرية ولعبة من الاقوى فالمعبد ولاتخ ، وساحة القبور حيث ترقد أمه .

ويبدأ قراءة الخطاب ، الذي لابد لنا من ترجمته ترجمة واقعية لكثير من نصوصه لاهميتها البالغة فهو أشبه بوصية حكيم للاجيال القادمة :

يقول جدعون " عزيزي نمرود ، كنت أود أن أكتب لك مليون سطر

و لكن الكلمات لا تعني الكثير بالنسبة لك ، فلماذا اذن احدثها دون جدوى و مع ذلك اليك بعضها في صورة وداعية انني سأموت في اليوم الذي تذهب فيه ايللي الى المستشفى انني سأموت على أي حال ، فأنا ميت منذ سنوات كثيرة ، و ليس الامر أكثر من تغيير المكان ، ان اقداما قليلة فوق أو تحت أرضنا السمراء الثرية ليست بالشيء الكثير .

عندما جاءت الى زوجتك منذ شهور قليلة وقالت لي أن الطبيب أشار الى أنه قد يكون خطرا عليها أن تنجب طفلا ، عدت مرة أخرى " صخرة " عدت مرة أخرى الشيطان الذي سخر منك لشعرك المموج و لحركتك البطيئة و نصحتها الا تخبرك ، بل أكثر من ذلك ، فقد قلت لها ان تحتفظ بالطفل و تقبل المخاطرة ، هل تفهم جيدا ما يعنيه ذلك ؟ قلت لها أنها لن تشعر ابدا بالسعادة اذا لم تنجب لك أطفالا ، و قلت لها أن ذلك سيقتلك . كما قلت لها أنه مادامت الاحتمالات ٥٠٪ فعليها أن تحتفظ بالطفل . كما قلت لها الا تخبرك . أنها تعرف جيدا مدى معرفتي بك و هي تحبك أكثر مما تحب الحياة . و الحقيقة أنك لا تستحق و لا حتى ظل تضحية ، وأنك أحمق مجنون . الحقيقة أن هذا الشيء (الانتحار) كان يطاردني و يدفعني ، و أي كان ما سيحدث فأنا لا أستطيع مواجهته لذلك أختار هذا الامر كعذر للقيام بشيء أريد القيام به على أي حال لم أكن قادرا قبل ذلك عليه لانني جبان لقد كنت دائما أشعر بالاثم نحوك ، فأنا أعرف أنني قتلت ما هو طيب فيك . و هو الخوف لقد كنت بالنسبة لك الشلل

الخاطئ. لقد قتلتك لانني أنا نفس قد قتلت بنفس الطريقة قبلك ، وكان قتلك انتقاما سهلا وبعد ذلك كان الوقت متأخرا ولم تعد تتعست. لقد كانت حياتي تعسة فلم أكن أحس بالاشياء بعمق على الاطلاق ، ولم أكن أهتم باي شخص ابدا كما لم يحدث أن فهمت أي شخص ابدا . لقد كنت وحيدا في قوتي وفي زهوي البدني . وعندما ذهب هذا كله ، سعدت بروءيتك تطحنك نفس الآله. فتفقد وتكتسب نفس صفاتي. انني لازلت أحبك لانني متعفن ، قوي ومتعفن في البداية ثم بعد ذلك ضعيف ومتعفن. ان الاحساس بالخوف يتطلب الشجاعة ونحن لا نمتلك هذا النوع من الشجاعة. وها أنا أنتهي الان عنا ، كما أنك مقضي عليك أن تسير في نفس الطريق وعلى عاتقك تحمل ذلك الحب القبيح وغير الانساني من اللاخوف. وبهذا ستجعل كل ما حولك جافا . ميتا ، مدمرا ، والديك ، وزوجتك ، واطفالك وأهم من هذا كله ، نفسك. عندما تقترب من الموت وتنظر خلفك سترى انني كنت على صواب. ستندم على كل دمعة لم تستطيع أن تذرفها وعلى كل حنان لم تغدقه وعلى كل خوف لم تتح له الفرصه لتخبره.

وعلى كل الاشعار التي لم تعشها ، ان حياتك مقال وليست شعرا وعندما صارت حياتي شعرا كانت شعر رثاء للذات ، وكانت شيئا قبيحا مشوها .

لم أكن أستطيع مواجهة احتمال الحاق ايللى الاذى بنفسها بسببى أو كراهيتك عندما تكتشف ذلك . ولكن هذه كلها اعذار .

استمر ايها الصبى الصغير . تسلق الجبال واحرث الحقول وانجب اطفالا . ولكن دعهم يخافون دعهم يا نمرود يلعبون بالدمى . لا تدعهم يصبحون من النمط الجديد . لا تجعلهم صخورا ، فالصخور أكثر الجميع معاناة للوحدة . وربما كنت تفهمنى دائما وربما لن تفهمنى ابدا . أننى اترك هذا العالم الان ، وسأنضم الى الاخيار ، الى لامخ وميريام ، واذا كنت تعرف الاه ياولدى فصلى له كى يرحمك . جدعون .

وهكذا ينتهى خطاب جدعون الى نمرود . وقد أثبتنا أن نورد ه شبه كامل تقريبا لما له من أهمية بالغة ، اننا نعرف منه واحدة من أهم الحقائق وأعمقها مغزى وأخفلها معنى ، نعرف منه أن حمل ايللى كان يشكل خطرا على حياتها ، نعرف هذا الخطر من خطاب جدعون أول ما نعرفه كما نعرف ايضا أن ايللى توثر جدعون وحده بهذا السر ، فجدعون أول "الصخور" أو بعبارة سياسية أول " صقور " الايديولوجية الصهيونية ، كما أنه المثل الاعلى لنمرود ومن قبله أبيه أنوى ، ونعرف كذلك أن جدعون كان صاحب الفضل الاول — بفضل تضحيته لايللى — فى خروج الوليد الى الحياة ، بل ان هذا الوليد نفسه يحمل اسمه ، انه

جدعون الجديد ، ومع ذلك أيضاً يقرر جدعون أن يموت يوم أن تذهب ايللى الى المستشفى للولادة ، ويموت فعلا قبل أن يتلقى نمرود نبأ ميلاد ولده .

ولكن ما الدلالة الرمزية لهذا الخطر الذى ينطوى عليه حمل ايللى ؟ ان ايللى هى مريام الجديدة ، وهى أيضا بمعنى ما الامسخ أيضا ، انها تمثل جانب النقاء اليهودى فى مقابل النقيض الصهيونى وكأن المعنى اذا ان ميلاد ما هو صهيونى يشكل خطر على بقاء ما هو يهودى ، أو ما هو طيب فى اللب أو الجوهر اليهودى . وعلى اية حال فأن فكرة استحالة تعايش ما هو يهودى مع ما هو صهيونى شائع فى الايديولوجية الصهيونية ذاتها ومعترف به من جانب منظريها كما نجده واضحا ومؤكدا فى أعمال يائيل ديان نفسها كما فى " ولدان للموت" لقد وجدنا نمرود ولد ميريام يهجرها لحظة موتها ، وها نحن نجد جدعون الجديد ولد ايللى يشكل خطرا على حياتها حتى قبل ميلاده ، ميلاده ذاته يمثل هذا الخطر .

أن انتحار جدعون اذن يعكس شعوره بالاثم لمسئوليته عما لحق بنمرود من تشوية شخصى ، عما عرض له زوجته ايللى من خطر الموت ، الايديولوجية الصهيونية العدوانية اذن تشكل خطرا مزدوجا ، اولهما يمس الجذور أو التراث اليهودى وثانيهما يمس الشخصية او الهوية بما يعرضها له من تزييف وتشويه مدمر لجوهر وجودها الانسانى من حيث هو وجود يقوم على الانتماء والارتباط .

ويتأكد هذا الخطر أو الضرر مرة أخرى عندما نعلم بعد ذلك أن ايللى لم تعد قادرة على الحمل والانجاب بعد ذلك . وكأن انجاب مثل هذا النموذج " الصخرى " لابد وان يؤدى الى العقم بمعناه الانسانى الواسع ، لقد قتل نمرود أمه بالمعنى المجازى بالطبع - وها هو جدعون الجديد بمجرد ميلاده يقتل فى أمه القدرة على الانجاب من بعده . ولعلنا قد نتساءل عن جو العقم الشائع فى هذه الرواية - وغيرها من الاعمال الادبية - فنمرود طفل وحيد ، لماذا ؟ بل ان لامخ وجدعون بلا أبناء لعل العقم هنا تعبير عن عقم الوجود أو الاستمرار بالمعنى الانسانى العميق والشامل .

نعرف ايضا من هذا الخطاب تلك الصلة العميقة بين الاجيال جيل جدعون ، وجيل نمرود ، ان جيل جدعون يحمل مسئولية " قتل " ما هو طيب فى الجيل التالى عليه جيل نمرود ، وهكذا نجد استمرارية دفاعية انتقامية ، لذلك كان شعور جدعون حيال نمرود بالاثم .

ونجد فى كلمات جدعون اشعارا عميقا " بالخوف " من حيث هو قوة ايجابية فى حماية ما هو انسانى ، حماية العلاقة الانسانية بالاخرين ، فالخوف فى نهاية الامر نداء موجه الى الاخر ودعوه الى طلب للعون منه ، و من ثمة حرص على بقاء العلاقة بالاخر ، ان الانسان بما هو انسان لايكون كذلك الا بقدر ما يأنس الى الاخرين وبقدر مايأنس الاخرون اليه ، الانس والمؤانسة هنا هى النفس الديالكتيكى لخطر الوحدة والعزلة ، الانس والمؤانسة هى النفى الديالكتيكى الصحى

في مقابل اللاخوف من حيث هو الانكار المرضي للوحدة دون القدرة على تجاوزها في علاقة الاخرين . هكذا يصبح الانسان " صخرة " وحيدة وميتة ، زائفة القوة ، خادعة الصلابة وتكون آخر كلمات جدعون الى نمرود انه ذاهب للقاء الاخيار هؤلاء الذين " قتلناهم " ويذكرني صيغة الجمع اسمي لامخ وميريام ، هؤلاء هم الجانب الطيب من الوجود اليهودي ، الجانب الذي قتلته الايديولوجية الصهيونية ، ويطلب جدعون من نمرود ان يصلي للـه اذا كان يعرفه او اذا كان له اله ، وأن يطلب منه الرحمة .

وبعد قراءة الخطاب يهرع نمرود الى المستشفى ليتلقى نبأ ميلاد الطفل وتقول له الممرضة التي تدخل اليه الخبر أن زوجته شديدة الضعف وستحتاج الى راحة طويلة ، ويخرج نمرود من المستشفى وقد بدأ عجوزا محنيا ... ويعرف افري بخبر ميلاد الطفل ويسعد بذلك ويذهبا لزيارة ايللي ويدور حديث حول جدعون وتلح ايللي على نمرود أن يخبره لانه سيفرح فرحا شديدا ويجد كل من نمرود وافري صعوبة في ابلاغ ايللي بخبر موت جدعون ويحاول كل منهما ان يجعل الثاني هو الذي يخبرها بموته وعندما يسأل افري ولده ، عما كان بخطاب جدعون ويقول نمرود : " اشياء كثيرة ، بعضها له معنى وبعضها بلا معنى أنه لم يكن في تمام عقله ، لم يكن يعرف ماكان يفعل " فيجيب الاب بقوله " هل انت واثق من ذلك ؟ وهكذا فالاب في أعماقه يحس أن جدعون لم يكن مجنونا ، بل على العكس كان حكيما ، أو أنه ينطوي على ضرب من الحكمة أو الفطنة لايبلغها جيل نمرود بنظرته السطحية الى الاشياء

وخلال حديثهما ايضا يذكر افرى زوجته وكيف كان حنينهــــا الى تربيـــة الاحفـــاد ... الخ .

وتتعاقب الايام والسنوات وتشفى ايللى من صدمة موت جدعون ، كما شفيت من قبل من صدمه موت ميريام وتذكر لنا المؤلفـة أن نمـرود لم يتغير ولكن لانه كان يحب الطفل (ص١٥٢) فان بعض ملامح مـــن الشفقة والرقة كانت تتجلى فى شخصيته . اما افرى فقـد صارت حياتـه الان تتمركز حول الطفـــل .

ومع تقدم جيدى " جدعون الصغير " السن ينشب الخلاف بـين الزوجين حول كيفية تربيته ان ايللى تريد ان تتاح للطفل طفوله سويــة وان ينال نصيبا كافيا من التدليل والحنان والتلقائية بعبارة أخرى تريد ايللى الا يحرم ولدها من طفولته ، أما نمرود فيريــد أن يتولى هـــو بنفسه تنشئه الطفـل ليكون صورة منه هو نفسه وتستسلم الام . وهكـذا ينتصر الجانب الصهيونى العدوانى الدفاعى على الجانب اليهـــودى والانسانى السوى ، فمادامت ايللى تحب نمرود فان نمرود لا يفهـم الا ترغب ايللـى ان يكون الصغير صورة من أبيـــه .

وتقوم حرب ٥٦ ويشترك فيها نمرود ويسأل الصغير عن ابيه وتقول له أمه أنه فى رحلة ولكن نمرود يشرح له ويبين له معنى الحرب واصوات انفجارات القنابل فيفزع الطفل ويشرع فى البكاء ولكن أمه تسارع لتجد نسه وتأخذه بعيدا ، وعندما يسأل نمرود ولده عما يريده يطلب منه لعبـــة (ص١٥٤) فيقول له " لا توجد لعب فى الحرب سيوف ومدافع فقــط"

فيفزع الطفل مرة أخرى وتأخذه أمه غاضبة بعيدا عن والده . وهكذا نجد تكرار الاجيال ان نمرود يحرم ولده من الدمى واللعب كما كان أبوه يحرمه من الدمى ـ " الارنب الجلدى " وتنتهى الحرب ويعود نمرود يقصص البطولة واساطيرها ويصبح مرة أخرى " الصخرة " .

وعندما يبلغ الصبى الرابعة من عمره ينشب خلاف أليم بين نمرود وأبيه بخصوص الصبى . لقد اصبح افرى الان هو الذى يحكى للصبى الحكايات ، وذات مساء يمر نمرود بجوار نافذة ابيه ويسمع واحدة من هذه الحكايات ، لقد كانت عن "الربى " والد افرى نفسه وكيف اعتاد هذا الربى أن يضرب ولده ويحدثه عن نهر الفولجا الذى كان أوسع من نهر الاردن عشر مرات .... الخ كما كان يحدثه عن ميريام وعن قصص خرافية .... الخ ويذهب نمرود الى ابيه فى وقت متأخر من ذات الليلة وينشب الخلاف ويقول نمرود لابيه " لقد سمعت اليوم قصتك يا افرى ، يبدو أنك تغيرت ، لقد كنت تروى لى قصصا مختلفة " فيجيب الاب " لم تكن تنصت اليها انك لم تحب هذه القصص ابدا انى اتساءل الا زلت تذكر رجلا يدعى لامخ ؟ (ص١٥٤) ويخيم الصمت لحظة ويجيب نمرود قائلا " نعم اذكر لامخ ، لقد بترته من حياتى بترا ، قلت انه ضار ، وخطر وعلاوة على هذا كله أحمق " وتكون اجابة الاب : " لقد كان ذلك خطأ منى وانا احاول الا اكرر ذلك مع حفيدى ويرد عليه نمرود غاضبا ويقول : "خطأ ؟ هل تقصد ان تقول إن حياتك كانت خطأ ، وكذلك كانت ميريام وانا كذلك ؟ لقد كنت تقول لى أن الافضل ان ارى جدعون وليس لامخ " وعندما يقول افرى

لنمرود انهم لم يعودوا بحاجة الى هذا النمط من الحياة الان ، يسأله نمرود وكله مراره : " وهل كنا بحاجة اليه فى ذلك الوقت؟ " .

وهكذا نجد مرة أخرى عودة اخرى الى الاستبصار ، كما حدث مع جدعون ، ولكنها عودة متأخرة ، يرفضها الابن ويقاومها اننا هنا بازاء تلك العملية النفسية الدفاعية المعروفة ، التعيين الذاتى بالمعتدى ، لقد كان موقف اخرى وجدعون من نمرود فى طفولته ضرب من الاعتداء على حقه الانسانى فى أن يحيا حياته وعندما يفطنا الى خطئهما يكاد يكون الاوان قد فات لقد تراجع اخرى مهزوما مثلما تراجعت ميريام امامه من قبل ومثلما تراجع لامخ ، ومثلما تراجعت ايللى امام نمرود .

وهكذا يكاد هذا الفصل أن ينتهى يموت صخر توسيلاد مشروع صخرة جديدة ، فهل تظل الحلقة المفرغة فى دورانها دون توقف أو تحول ، هذا ما ستراه فى الفصل القادم الفصل الاخير .

الفصل الثانى والعشرون

هذا هو الفصل الاخير من الرواية وماأشده شبها بالفصل الاول منها - تمر السنوات ويكبر جدعون الصغير ويبلغ السادسة من عمره ويدخل المدرسة ويعود منها كما كان نمرود تماما يلقى بكتبه لكى يخرج وعندما تسأله أمه منادية اياه باسم التدليل " جيدى " يدخل أبوه ويقول لها لاتناديه " بجيدى " ولدى لم يعد يحتاج أسماء التدليل لقد صار صبيا (ص١٥٦) صورة طبق الاصل مما حدث عندما كان نمرود فى مثل سنه وكانت امه — ميريام — تدلله فتناديه بأسم " نيمى " فيعارضها ايفرى ٠٠٠٠

ويذهب ايضا جدعون الى مكان اللقاء السرى ليمارس مع بقية الاطفال نفس اللعبة القديمة والمستمرة " من القوى " وتذكر لنا المؤلفة أن جدعون قد قبل فى المجموعة رغم صغر سنه لما لابيه من مكانه بوصفه أشجع مقاتلى القرية ، بالاضافة الى اختباره — أعمالا شديدة الصعوبة ٠ وتبدأ طقوس اللعبة ويختار جدعون عملا لافتا ، أن يعبر النهر ذهابا وايابا ، والصبى يجيد السباحة لكن التيار كان جارفا شديد الاندفاع والقوة ، والزبد يتعالى على صفحة الماء وكان جدعون يفكر فى مدى استحسان نمرود لذلك العمل ٠

وعند ذلك يظهر نمرود الذى كان فى طريقه الى شاطئ البحيرة ولم يكن نمرود يستطيع أن يرى الا رأسا تظهر وتختفى وسط اندفاع التيار . وتقول المؤلفة " ولمدة ثانية واحدة ، بل جزء على عشرة من الثانية بدأ كأنه سنوات لم تظهر الرأس الصغيرة (ص١٥٧) .

ويحدث خطأ ما ، بل يصيب الخطأ كل شئ ، لقد ركب الفزع الصخرة ، نيمى ، نمرود ، المقاتل ، النموذج الجديد ، قد جعله الفزع يتجمد وكان الاحساس جديدا ، ولم يستطيع ان يفكر فى أى شئ الا الخوف وكان هذا الخوف طاغيا ، ينشر الشلل ، فلم يستطيع أن يتحرك ، أو أن يصرخ أو أن يفعل أى شئ (ص١٥٧) .

وتجمد فى موقعه ، وبدأ وكأن يديه وقدميه قد انفصلا عن جسمه وتوقف قلبه عن النبض وغرق فى عرقه لقد اندفعت الان كل ضروب الخوف التى كانت مختفية أو غارقة ، أو " مقتولة " ولتجتاح كل شئ فى سخرية " وهكذا ينهار سد الدفاع الذى بقى طوال هذه الاعوام يقاوم كل أمواج العواطف وفياضانات المشاعر وطوفانات الوجدانات ، أنه فى هذه اللحظة عندما وجد نمرود نفسه بازاء احتمال خطر حقيقى يمس جوهر وجوده ، وصميم كيانه النرجسى ، ولده جدعون الجديد الذى كان يريده أن يكون جدعونا لم تعرف اسرائيل جدعونا مثله . وتعرف من خلال السطور التالية كيف اندفع نمرود الى ولده والقى بنفسه وراءه فى النهر لينقذه ، ونعرف كيف تدفقت سيول مشاعره الحبيسة عبر هذه السنين ، وعندما يمسك بولده السابح عبر النهر يصيح به ولده ،

غاضبا ويقبل " أبى لقد أتلفت كل شئ " " أنك تعلم اننا نلعب "
ويؤخذ الصبى بمنظر ابيه وهو يراه على هذه الصورة من الخوف والرعدة
وتتدفق الدموع ، ويمتلئ الصبى خجلا ويسأل والده " هل أنت
مريض يا أبى " وجدير بالذكر أن نمرود يقول لولده ، وهو يمسك به
" سنذهب الان الى المنزل الى ماما " (ص١٥٨) هذه هى المرة
الاولى التى يفطن نمرود فى حدس صادق الى حاجة ولده ، تلك الحاجة
التى حرمه منها ، الحاجة الى الام . وتتدفق دموع نمرود التى طال
اعتقالها دون توقف ، عبر شوارع القرية ، ويراها القرويون ، ويصلا معا
الى المنزل وتقول المؤلفة " كان الصبى لازال خجلا ، أما نمرود فكان
يبكى ولم يستطيع أن يتحكم فى دموعه ، وكان الناس ينظرون ويتهامسون ،
ولكن نمرود كان سعيدا . لقد عرف كيف يبكى ويحب ويغنى ، لقد
كان خائفا ممتلئا بالمشاعر ، وبنوع جديد من الدفء لم يكن يعرفه ،
ولكنه كان دفئا انسانيا حنونا يكتسحه بطريقة لم يكن يعرفها من قبل
(ص١٥٨) .

وعندما يصلا الى المنزل يقبل شفتى زوجته ووجنتيها ورقبتها
وصدرها ويرفعها عاليا فى الهواء (ص١٥٨) حتى انها تصيح به
مأخوذة وتقول " نمرود !! ماذا جرى ؟ هل هناك خطأ ما ؟ ارجوك
اخبرنى ، توقف أن الطفل يراقبنا " وهكذا تتدفق مشاعره الحبيسة
الاسيرة حتى نحو زوجته بعد ان أدى هذا الموقف الى انهيار السدود
الداخلية ولكن الصدمة تأتى من ناحية الصبى فجدعون الصغير يقول

موجها الحديث الى أمه " أمى أن أبى جبان " ويسرع الطفل فى البكاء ويتجه الى حجرتـــه .

أما نمرود الذى أعادته الصدمة ، أو قل الموقف طفلا من جديـد أو أنها بعبارة أخرى قـــد حررت الطفل الحبيس بداخله فقد انصرف يبحث عن افرى ، عن ابيه ، والدموع لا زالت فى عينيه ، ليبكى على كتفـه ويفهم افرى كل شئ ويقول له أبكى يا ولدى أبكى يا طفلى " كما يقول له " لا يمكن أن يكون الوقت متأخرا " أذهب وتحدث مع ولدك " وقل لـــــه يا جيدى واروى له قصص لامخ ولتجعله يحبها يحبها كلها " ولتتألـــم من أجل ذلك ولتحب أيضـا ... أذهب يا ولدى وصلى لله وتحـدث مع ولـدك (ص١٥٩) .

وهكذا يمتثل نمرود لنصح والده ويذهب الى فراش الصبى الـذى لم يكن نائما ولكنه لا يتحرك عندما يدخل نمرود الحجرة وعندما يصـــل نمرود الى فراشه يبادره الصبى بقوله " اننى لا أريد أن أراك يا أبـــى ويتجاهل نمرود قوله ويقول له " لقد أحضرت لك شيئا يا ولدى ، وأريـد أن أتكلم معك " ويتحول اليه الصبى متسائلا " هدية ؟ " .... ويذهب نمرود مسرعا ليبحث عن الارنب الجلدى ويجده فى حالة من التمزق والبلى ويأتى به الى الصبى ويقول له فى لهفة أنه سيروى له قصة هذا الارنـــب ولكن الصبى يرده مرة أخرى فيقول : " اننى لم أعد رضيعا يا نمرود ، لا أريـد لعبة لقـد وعدتنى بمديـة جيب ، مثل مديـة ايجال ، أننـى نائم الان " .

ويسأل نمرود مرة أخرى ولده : " الا تريد أن تسمع قصة ؟ "
وتكون اجابة الصبى قاطعة : " لا ياأبى أننى لاأحب القصص كثيرا " .

وهكذا تحدثنا المؤلفة فى آخر صفحات الرواية فتقول بعد هذا الموقف مباشرة " لقد صار كل شئ مظلما ، اكثر اظلاما مما كان من قبل (ص ١٦٠) لقد كسر نمرود الدرع ولحقه الاذى ، وصار ضعيفا ضائعا ، أنه " يحب زوجته لكنها غريبة " (ص ١٦٠) أما افرى فهو مكتئب . وولده يريد مطواه . ويسير نمرود بمفرده مبطيئا فى البداية ثم تتزايد سرعته ، يمر بجوار المعبد ، ثم بالغابة ويصعد التل ثم يعبر البوابة الجديدة الى المقابر ، ليجد نفسه وحيدا ولم تكن وحدة القوى المتفوق ، بل كانت وحدة الضعيف العاجز . هاهنا لامخ يغنى أغنية بلحيته القذرة التى خطها الشيب .

وهاهنا أيضا ميريام أمه ، متهدله محنية وعجوز ومحبه ، كذلك أيضا جدعون المحارب : خارج السور ، بساقه الخشبية وكتاب أشعاره . هؤلاء موتى ، واذا كان هو الحى بين هؤلاء الموتى (ص ١٦٠) فقد مات اليوم ميتة مفاجئة وصار مقضيا عليه بالموت بين الاحياء .

وتقول المؤلفة فى آخر فقرات هذه الصفحة ، اخر صفحات الرواية " وفجأة أستطاع أن يسمع ضجيجا وأصواتا وأن يسمع القصص التى كان لامخ قد اعتاد أن يرويها له وأن يسمع أمه تناديه " نيمى " وصوت زكى الجريح وهو يصرخ قائلا " لاتتركنى وحدى " وصوت ايللى وهى تتأوه

وصوت جدعون وهو يعظه قائلا " ستقتل جميع من حولك، وأهم من ذلك كله ستقتل نفسك " استطاع كذلك أن يسمع صوت النهر والبحيرة والاشجار العالية ولم تكن تقول " أرى أنك قوى " وأنما كانت تقول " أننا نتصف بالجمال فلتحبنا والعالم يردد فلتحبنى " كذلك استطاع أن يرى القاع الذى عيلغه عندما تخطىء الاختبار كما قال له لامخ فيما مضى — فيؤخذ السلم .

ولم يكن هناك من يجيب ... وجلس على العشب مرتعدا متعبا كما كان الارنب يرقد فى حجر ولده وعلى سريره يحملق فى السقف بعينه وحيدا مهملا غير مطلوب ولكنه كان شامخا " (ص١٦٠) .

وهكذا تنتهى الرواية وآخر كلمات تشير الى الارنب الشامخ رغم " التشويه " فقد احدى عينيه — تماما مثلما فقد جدعون الكبير ساقا وذراعا ، والقى به بعيدا — فى المنفى أو الشتات هو الاخر — ومع ذلك بقى شامخا .

هل تريد منا يائيل ديان ، المرأة فى المقام الاول واليهودية التى تكتب بالانجليزية ، وليس بالعبرية ، فى المقام الثانى ، ثم الاسرائيلية ابنة الجنرال موشى ديان — بطل الحرب — " صخرة صخور اسرائيل " فى المقام الثالث، هى تريد أن تقول لنا — بلغة أوروبية مسيحية شديدة الشبه فى روحها بموعظة الجبل للمسيح ، هل تريد أن تقول لنا حقا طوبى للخائفين، فلهم وحدهم البقاء شامخا ففى ضعفهم قدرة على الحب والبقاء والنماء .

هل تريد يائيل — ابنة جنرال اسرائيل الاول — أن تكشف لنا حقيقة الصخور " الميتة " ، وأن تقول أن الامل معقود على استعادة القدرة على الخوف والبقاء بوصفهما صنعوا الحب والبقاء بقاءًا انسانيا صادقا وحقيقيا .

آخر مانراه في الرواية من رموز هو " الارنب " رمز لامسخ الربي الروسي .

ونحس في نهاية القصة بمفارقة غريبة ، فاذا كان اليهودي في أوربا ، يهودي الشتات منبوذا ليهوديته فالغريب أننا نجده أيضا — على الاقل في الصورة التي تقدمها يائيل ديان — في اسرائيل منبوذا كذلك ليهوديته ، أنه محاصر في الشتات ، محاصر على أرض " اسرائيل " وهكذا نجد مرة أخرى التعيين الذاتي بالمعتدي وكأن النازية والصهيونية صنوان في .. قتلهما — بالمعنى المجازي في الحالة الثانية بالطبع — لليهودية ويبقى لامخ وأرنبة الشامخ ، ولكن لعل يائيل ديان تبقي الامل قائما ، لكنها تجعله مشروطا بأن يظل " الارنب شامخا " أن يظل الجوهر الانساني حيا رغم بيات شتوي طويل ربما .

تأملات ختامية حول الشخصية الاسرائيلية

يجدربنا بعد أن انتهينا في عرضنا المفصل لهذه الرواية فصلا اثر فصل أن نعود مرة أخرى الى العمل في مجملة لنستخلص منه ما يلقيه من أضواء على الشخصية الاسرائيلية .

وهنا يجب علينا أن نحدد ما نعنيه بمصطلح " الشخصية " . يستمد هذا المصطلح من كلمة Persona وهي كلمة يونانية كانت تعني في الاصل القناع يرتديه الممثل عند ظهوره على خشبة المسرح للقيام بدوره أمام النظارة فالشخصية اذن تنطوى على ظهور أو حضور أمام الاخرين وفي حضرتهم ، وهو حضور ينطوى على فعالية أو أيجابية حضور بهدف القيام بدور أو بهدف اداء عمل ما . الشخصية اذن تقتضي الاخر وتفترضه ولا تكون بغير وجوده ، أنها بالمعنى الوجودى وجود في العالم ، وجود في حضرة الاخرين ، يفترض وجودهم ، بل ووجودهم على نحو ايجابي يتضمن ضربا من القصدية ، أعني قصد الحضور من جانبهم ، والانصات والاعتراف ولعل في تصفيق النظارة ما يؤكد أن الشخص لا يكون الا بآخرين يقبلون عليه ويعترفون به ويتأكد لنا بكل عمق عندما نعي المقولة التي تؤكد لنا : " أن الانا هو الاخر " .

وعلى هذا فنحن نقصد بالشخصية الوجود ـ في ـ العالم بشقيه المادى والبشرى ، وهو وجود دينامى جدلي يقوم على التفاعل والتبادل والتناقض لهذا فالوجود يقتضي العدم ، كما أن العدم

يقتضى الوجود ، وكذلك أيضا فالايجاب يقتضى السلب والسلب لايكون الا نقيضا للايجاب فالايجاب كامن فى السلب والسلب كامن فى الايجاب ولقد أوضح ذلك أعمق الايضاح الفيلسوف الالمانى فردريك هيجل فى كتابه الاشهر " فنومنولوجيا العقل " وخاصة فى ذلك الجزء الذى يتناول فيه جدل العبد والسيد . حيث تتمثل حرية السيد فى نفى حرية العبد ، كما أن أنهاء عبودية العبد رهن بانهائه هو نفسه لسيادة السيد . ولكن سيادة السيد هى ذاتها تنطوى على ضرب من العبودية الخفية للعبد . ان العبد بعمله وانتاجه وايجابيته يحمل كامنا فى ثناياه سيدا مكبلا مقهورا . كما أن السيد فى سلبيته وعزوفه عن العمل والانتاج لب الوجود الانسانى وجوهره هو فى أعمق اعماقه عبد مستتر وراء سيادة ظاهرية . الشخصية اذن هى وجود ديالكتيكى فى العالم بشقيه المادى والبشرى وتتمثل طبيعتها الديالكيتكية فى تلك العلاقة التى تجمع فى نسيجها كل مقولات الجدل السلب والايجاب ، الوحدة والصراع ، الحركة الدائمة والتحول المستمر ثم الانتقال من الكم الى الكيف واخيرا نفى النفى .

هذه المقولات جميعا رغم اصولها الفلسفية الا انها المقولات التى نرى انها تتيح لنا فهما أعمق وتفسيرا أشمل للشخصية ، ونرى بصفة خاصة انها المقولات التى تقوم عليها مبادىء التحليل النفسى والتى تمكننا بصفة خاصة من حسن استخدام التحليل النفسى فى فهم الاعمال الفنية والادبية من حيث هى تعبير عن شخصية صاحبها وكذلك قارئها — مادام يقبل عليها ويجد فيها صدى لما فى نفسه

فهو بمعنى ما شريك للمؤلف بالموافقة والاقبال ، وهما معا بمثابة الجزء في كل هذا الكل هو الوجود الاجتماعي والانتماء الاجتماعي لنفس المجتمع بتاريخه وتراثه وبنائه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

ونعود الى " طوبى للخائفين " انه عمل واحد من عدة أعمال لكاتبة واحدة من بين عديد من الكتاب الاسرائيليين . ولقد كان علينا أن نبدأ ، وهذه خطوة البداية - وان كانت هناك خطوة أخرى قد سبقتها لكنها أبعد عن التفصيل والشمول - نرى أنها يمكن ان تكون نموذجا لما يمكن أن يلي ذلك من أعمال تعتمد نفس المنهج ونفس الاطار .

ان هذا العمل هو وبقية أعمال نفس الكاتبة يعرض نفس النمط من المواقف والشخصيات ، انه شأن كل اعمالها تقريبا - تناول جيل السابرا أعني جيل اليهود الغربيين من سكان اسرائيل ممن ولدوا بها وعاشوا في مزارعها التعاونية - الكيبوتزات - وتعرضوا لظروف تربوية خاصة ، وتهدف اعدادهم ليكونوا جيل الرواد ، القدوة والمثل الاعلى في العطاء والبذل التحمل - أي الجيل الجديد - وبعبارة أخرى أيضا جيل الصقور . جيل الصلابة والقتال ، والحرب والقيادة والقضية التي تواجه هذا الجيل ، والتي تواجه الفكر الذي يحملونه وهو الفكر الصهيوني هي بايجاز وبساطة شديدة : نهاية الشعب اليهودي واقامة الشعب الاسرائيلي الصهيوني . بعبارة أخرى انهاء الوجود اليهودي معنويا بالطبع - في الشتات وتجميعه داخل أرض اسرائيل ، وانهاء ما اكتسبه هذا الوجود في هذا الشتات ، بسبب

ما تعرض له داخل هذا الشتات من اضطهاد وعزلة وهامشية ، من تكوين نفسى يتسم بالجبن والخوف والخور والاستسلام. بعبارة أخرى خلق اسطورة بطولة .

القضاء على الشخصية اليهودية واحلال الشخصية الاسرائيلية محلها هو الهدف الاول للايديولوجية الصهيونية فيما يتعلق بالجانب الشخصى والتربوى . " الجيل الجديد " وجيل السابرا ، أو جيل الصقور . ان أعمال ياثيل ديان تدور حول هذا الهدف ، أو حول تحقيق هذا الهدف ومبلغ ما يلقاه ذلك من فشل أو نجاح . ولقد سبق لنا أن تناولنا واحدا من هذه الاعمال وهو " ولدان للموت" (ندوة أكتوبر ١٩٧٧ — مركز بحوث الشرق الاوسط) . لقد أوضحت دراسة للاستاذ الدكتور مصطفى زيور عن الشخصية الاسرائيلية كيف كانت علية التعيين الذاتى بالمعتدى هى العملية السيكولوجية الاساسية التى تقوم عليها الشخصية الاسرائيلية أو شخصية القيادات الصهونية المحاربة . بعبارة هيجلية نرى أن جدل العبد والسيد الذى كان يحكم علاقة يهود الشتات فى أوروبا — وأوضح نماذجها اليهود فى المانيا النازية وروسيا القيصرية — قد تم نقله ليأخذ شكلا جديدا فى علاقة اسرائيل بالعرب ، وبخاصة عرب فلسطين . لم يحدث اذن تجاوز لهذه العلاقة المتخلفة — علاقة العبد بالسيد والتى كانت تحكم وجود يهود المعازل " الجيتو " فى أوروبا واقامة علاقة ند تقوم على الاعتراف المتبادل ، وانما الذى حدث كما بينت دراسة أ . د . : زيور هو تعيين ذاتى بين اليهودى الاوروبى

" العبد " بالسيد النازى الالمانى الارى المتفوق ، ونقل ذلك كله الى موقف جديد ، أو علاقة جديدة ، هى علاقة اليهودى الصهيونى بالفلسطينى العربى . يلعب الصهيونى دور السيد ويلعب العربى دور العبد . ولكن هذا التعيين اليهودى بالسيد الاوربى الارى من حيث هو جنس متفوق لا يعدو ان يكون تعييناً دفاعياً انكاريـــا ولما كان الانكار ينطوى فى صوره سالبة على ما ينكره ، كما ينطـوى الدفاع على ما يدفعه ، فان الصهيونى السيد فى صورته الاسرائيلية المتفوقة ــ شعب الله المختار ــ يدفع عن نفسه ما فى اعاقة ، بعبارة أخرى يدفع عن نفسه بعضاً من نفسه ذاتها ، ويكون ذلك بان يقوم بعملية " تعيين ذاتى اسقاطى Projective Identification بالمعنى الفنى الدقيق الذى تستخدمه ميلانى كلاين . ان العبـد الجديد ــ العربى الفلسطينى ــ ليس الا العبد القديم مرفوضـا ومنبوذاً وهكذا يصدق القول القائل ــ فى سيكولوجية القاتل ــ ان تضرب فانما نفسك تضرب . هذا هو ما يلقى الاضواء على طبيعـة العلاقة الاضطهادية أن موضوع الاضطهاد ــ العبد الجديد ــ ينطوى على ضرب من الاستحالة ، من حيث هو بعض من الذات مغترب عنهما كما أن ارهاب السيد الجديد وان كان يهدف الى مواجهة الخطـر لكنه يظل ارهاباً مصطنعاً . يحتاج الى تأكيد دوما ، بل والاسراف فى تأكيده ، وهذا الاسراف ذاته يكشف عن شك ، ويبرر الشك طبعـا ان هذا الارهاب الجديد مصنوع مجلوب عارى من الاصاله .

ان الحل الصهيونى يمثل ــ فى رأينا ــ نقيضاً للحل الـذى توصلت اليه الاقليات القومية أو الدينية ، أو ابناء شعوب العالـم

الثالث والمستعمرات ، وهو الحل الذى يقوم على تجاوز طرفى علاقة العبد والسيد بنوع من نفى النفى وتخطى هذا التناقض الى " جماع جديد للاطروحة synthèses ، يقوم على نفى طرفى التناقض وتجاوزهما والاتقاء بهما الى شكل جديد يتجاوز سلبيا تهما معا يحتفظ بايجابياتهما معا • هذا الشكل الجديد هو التساوى فى حقوق المواطنة فيما يتعلق بالافراد ، والسيادة والندية فيما يتعلق بالشعوب • فى هذا المجال لا يعود هنا سيدا ، ولا يعود هناك عبد ، وانما اعتراف متبادل بمشروعية وجود كل من الطرفين • هذا ما أخفق فى تحقيقه الفكر الصهيونى — تحت تأثير عوامل كثيرة تاريخية وموضوعية لسنا بصدد تناولها — ونقل اطروحة العبد والسيد الى نطاق بديل •

ان توقف الحركة الجدلية أو تعثرها ودورانها فى حلقة مفرغة بدلا من تقدمها فى لولب صاعد كما هو الشأن فى التطور السليم نجدها فى تبنى الموقف المعادى (المعادى لليهودية) والانصياع فى الادانة لليهودية وللجوانب الايجابية فيما هو يهودى ، ولما كانت هذه الجوانب الايجابية تشكل اللب والتراث التاريخى ليهود أوروبا وتمثل جوهرا لا يمكن بتره الا بثمن باهظ للغاية وهو الشعور الدائم — ظاهرا كان أو خفيا — بالاغتراب ، وبالهرب مما لا يمكن الهرب منه • أوضح الامثلة على ذلك هذا النمط الغريب والفريد من الالحاد أو الاعراض عن الدين واقرار عدم جدواه • ان بعض ابطال هذه الرواية — الاب افرى ، وجدعون ثم ولده نمرود ، بل والام ميريام ذاتها ، يدفعون بالصبى بعيدا عن المعبد وعن لاهج الرب وعن

الله ويؤكدون للصبى انهم لم يعودوا فى حاجة الى اله ، وانما هم فى حاجة الى المطروان التراب هو الههم . والغريب أن هذا الالحاد أو الاعراض عن الدين لا يرجع كما يحدث فى حالات الالحاد والرفض للدين الى مبررات علمية أو ايديولوجية ، وانما ببساطة لان التمسك بالدين وممارسه الشعائر كان يعرضهم فى أوطانهم الاولى الى السخرية والغريب ان اليهودى بعد أن صار له وطنا وبعد ان صار بمنأى عن السخرية والتشفى لا يريد طقوسا تذكره بما كان يتعرض له من سخرية ومهانة ، ان انكار الدين هنا فى حالة أسرائيل دون بقية دول العالم يفوض بالضرورة مبررات قيام الدولة ، كيف يمكن ان ينتمى ملحد أو لا دينى الى دولة يثوقراطية . الا يؤكد لنا ذلك أنه فى اعماقه لم يتخلص بعد من انتمائه القديم ومن مخلفات هذا الموقف القديم ، انه لا يزال داخل اسرائيل يخشى دخول المعبد خوفا من تندر الصبية الروس المسيحيين به بل أنه أكثر منه ، أنه فى أعماقه لا يزال ينظر الى اليهودية بنفس منظارهم . ولذا يرغب فى التخلص من يهوديته ، ولكن ذلك ليس أمرا هينا ، ففى أوقات الشدة اليأس كما هو فى حالة حدعون بعد العجز والنشوية — يشعر الفرد بحاجة الى اله لم يعد يعرف السبيل اليه ، اننا لسنا بازاء الحاد بمعنى تخلى عن الدين وانصراف كامل عنه ولكننا بازاء انكار هروبى ينطوى على احتفاظ بالدين فى شكل منفى . ان المبالغة فى النفى تأكيد لوجود المنفى . كما أوضح فرويد فى مقاله الشهير " عن النفى On negation نستطيع ان تخلص فى كل ما سبق الى نتيجة خطيرة وهى ان اليهودى ، أو ما هو يهودى لازال فى " الشتات Diasbora

- فى أوروبا كان فى الشتات اسيرا خلف جدران المعازل أو الجيتو وفى اسرائيل فرض عليه الاسر خلف قناع " الصهيونية " ، القائم على التوحد بالمعتدى وبناء شخصية مصنوعة تقوم على القوة والتفوق على نمط نازى آرى كان يضع نفسه فوق الجميع ، جميع دول العالم ودول أوروبا وفى اسرائيل يضع نفسه فوق العرب والفلسطينيين . ولكن لما كان الانسان لا يغير لون جلده بطلاء على السطح ، فانه بالمثل لا يغير تراثه وتاريخه بعمليات دفاعية يقيم عليها صرح شخصية لا يمكن أن تستوى سليمة صحيحة .

ان يائيل ديان ذاتها تفطن بحدس عميق ونفاذ الى هذه الحقيقة الى ضرورة وجود الحرب والعدو للحفاظ على التوازن النفسى الداخلى أو بعبارة أخرى لاستمرار عملية التعيين الذاتى بالمعتدى حفاظا على الشعور بالسيادة والتفوق ، كيلا يعود الشعور القديم بالدونية والنقص .

جيل القادة والرواد والامل ، صقور الفكر الصهيونى الاسرائيلى جيل ينطوى على هذا التناقض الذى لا مهرب ولا فكاك منه تناقض المظهر مع المخبر ، والجوهر مع السطح ، وهذا ما أوضحه د . قدرى حفنى فى دراسته عن جيل السابرا ، وما اقترب منه اقترابا شديدا فى دراسته الرائدة عن " تجسيد الوهم " وكذلك ايضا فى دراسة للشخصية الاسرائيلية " الاشكنازيم " .

أوضحت دراسات د . قدرى حفنى ، ودراسة د . زيور مما تنطوى عليه الشخصية الاسرائيلية — أو قياداتها الصهيونية الاشكنازية

من جيل السابرا على وجه الدقة — من تجسيد لوهم لا حقيقة لــه أو بناء لزيف يستهدف انكار واقع قائم — عن طريق التعيين الذاتــى بالمعتدى بالايديولوجية النازية العنصرية — وهم القوة انكارا لواقــع الخوف أو زيف التفوق ردا على اتهام بالدونية — من قبل الايديولوجية النازية • ولكن هذا الوهم أو الزيف لا ينطوى على مواجهة واعيــة فاهمة لمشاكل الماضى واخزانه — فى الشتات الاوروبى — وانما علــى انكار لها وهروب منها باسقاطها على كبش فداء يقوم بدور بديل ولكنه بديل وفى نفس الان صورة مرآوية للذات • وعلى هذا فيقدر ما يكون البديل وسيلة للهروب بالاسقاط ، بقدر ما يكون فى نفس الان ذات — أخرى أو ذات متخارجة عن الذات تحمل صورتها وتؤكد استحالة الفــرار فهو هروب من الذات والى الذات •

ومن هنا يصبح مثل هذا السلوك بكل تناقضاته المحتومة أقرب الى ما نعرفه جيدا فى التحليل النفسى : اجبار تكرار لا فكاك منــه ولا توقف عنه •

نحن اذا فى دراساتنا للشخصية الاسرائيلية نتصدى لها من حيث هى " تجسيد للوهم " كما أوضح قدرى حفنى ، أو تكريــس " للزيف " كما بين مصطفى زيور • أو من حيث هى كما نرى نحــن " اغتراب " للب أو الجوهر اليهودى بين اسوار معازل أوروبــا واغتراب مماثل على أرض اسرائيل بين براثن الايديولوجية الصهيونيــة ولكنه فى الحالة الاخيرة ينطوى على جوانب مرضية أكثر امعانــا فى مرضيتها من الحالة السابقة لما يتسم به الاغتراب من صراع داخلــى

يبلغ حد التمزق ، حيث تصبح أجزاء من الانا لا انا .

ونعود الى " طوبى للخائفين " لنقف منها موقف المتأمل نستجمع ما سبق قوله لنرى ما يمكننا أن نستخلصه منه أو نضيفه اليه لنخرج بصورة للشخصية الاسرائيلية فى معالمها الرئيسية وخطوطها الاساسية ، عبر فصولها المتتالية .

ان عنوان القصة كما سبق أن ذكرنا هو حرفيا " احسد الخائفين " فمن يخاف يمتلك ما يستوجب الحسد ، يمتلك خاصية لا وجود لها لدى هؤلاء الذين يليق بهم أن يحسدوته . ولنتذكر قول افلاطون أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وأن الشجاعة — كما قال — وسط بين الجبن والتهور والجبن وليس الخوف ، الجبن هو العجز والاحجام التقاعس . الجبن تقاعس عن مواجهة الخطر تحت تأثير خوف ساحق كما أن التهور اقتحام لخطر لا قبل للانسان بمواجهته ، خطر يقتضى الحفاظ على الحياة تحاشية وتجنبه . الجبن والتهور اذن يشكلان خطرا يتهدد الوجود ، والفضيلة فى أن يعرف الانسان الموقع الامثل بينهما حفاظا على حياته وابقاء عليها وحماية لها . والشجاعة فى جوهرها توظيف صحى للخوف ، الخوف هو " الترمومتر " الذى يقيس به الانسان " الفاضل " بلغة افلاطون موقعه من معطيات العالم من حيث صلتها ببقائه والحفاظ على حياته ، انه — الخوف — الترمومتر الذى يحتكم اليه الانسان ليحدد ماذا كان الاجدى التصدى والاقتحام أو التحاشى والابتعاد ، انه ترمومتر الكر والفر والسوى الشجاع يهتدى بخوفه ، ويحتكم اليه ، ويروضه ويغالبه ، ويكون

وسيلته فى ذلك عقله وخبرته وحسن وعيه بحقائق الاشياء وحسن تقديره لها . واذا كانت القدرة العقلية تتمثل فى القياس والتحليل والمقارنة وادراك الصلات فان الجانب الوجدانى يمثل المقابل الكيفى ، يمثل القوة الدافعة والمحركة للجانب العقلى ، فلا نشاط للعقل الا فيما له صلة ببقاء الانسان ، ما يتصل بالحفاظ على حياته . ان الوجدان هو الوقود أو الطاقة المحركة للعقل . ان أول ما نلقنه لطلاب علم النفس لا تعلم دون دافع . وبالمثل لا نشاط عقلى دون قوى وجدانية موجهة . هذه القوى الوجدانية طرفيها اللذة والالم ، الحب والاقبال والاقدام ، أو بعبارة أخرى الطاقات الليبيدية ، والخوف والكرة والاحجام والهروب والتدمير ، أو الطاقات العدوانية ، أنهما المقابل النفسى العملية الحيوية الرئيسية الهدم والبناء ان استبعاد أحد طرفى الوجود ، أو الوجدان يعطل الوحدة الجدلية ويقوض حركة النقيضيين فلا حب دون كراهية تستهدف استبعاد كل ما يعطل الحب ولا كراهية دون حب توظف الكراهية فى حمايته واستبعاد معوقاته . ان غياب الخوف ، وخاصة على الصورة التى نجده عليها فى هذه القصة غياب لقوى الدفاع والحماية لمقومات الوجود البقاء . ان غياب الخوف غياب للحرص على الحياة لقد كان اول اشكال تعطيل الخوف فى هذه القصة الخوف من السقوط من عل ، من فوق شاهق أو مرتفع ، أو شجرة عاليه ، ولا يخفى ما ينطوي عليه مثل هذا الخطر من تهديد الحياة لقد وجدنا الاطفال فى الفصل الثالث من هذه الرواية يجربون حرق الجسم ، أى تدمير الوجود فى كليته ويعطلون ما يصحبه هذا الدمار من خوف هو بالضرورة لابد منه والا غاب الحرص

على الحياة ذاتها • لذلك وجدنا بطل الرواية — نمرود — ينتهي به الامر مع اكتمال " اعتقال " الخوف الى اعتقال مماثل للحرص على جوانب الحياة الاخرى ، الحرص على الحب والتواصل ، نعرف أن أول اشكال الحب واعمقها جذورا وابقاها على مر الحياة ، هو الحب النرجسي للذات وللجسم ، فالجسم هو أول موضوعات الشبقية ، أعني الشبقية الذاتية التي تفتح الطريق الى عشق للذات من حيث هي صورة كلية ، أعني النرجسية بوصفها المرحلة التالية للشبقية الذاتية ثم بعد ذلك يتفتح الطريق الطويل والشاق أمام الحب الحق — حب الموضوع ، هذا الحب هو مالم يستطع بطل روايتنا أن يبلغه ، ولنا عودة الى ذلك •

تبدأ الرواية بجموع اطفال بيت عون — كرمز لاسرائيل ولجيل السابرا — في موقع اجتماعهم السرى حيث يلعبون لعبتهم المفضلة " في القرى " وجوهر هذه اللعبة السرية كما تقول المؤلفة نفسها " ان تفعل مالم تكن تعتقد أنت نفسك انك قادر على فعلته " وهكذا فالذات تريف نفسها بنفسها ، تقتطع من نفسها اجزاء ، انها عملية " التمزيق أو الشطر Splitting ، كما وصفتها ميلاني كلاين بوصفها عملية دفاعية اولى ، تميز أولى مراحل النمو النفسي الجنسي وهي " الوضع البارانوى شبه الفصامي Paranoid schizoid position حيث يتم فصل الموضوع الخطر ولفظه بعيدا ، ولكن هذا الموضوع هنا جزء من الوجود ذاته ، مشاعر الخوف على الوجود مما يتهدده من خطر من قبل العالم وان ما يستبعد بالشطر والتمزيق هنا هو مشاعر وجدانية ، الخوف ، ومعطيات العالم المادى والفطنة اليها وادراكها

بوصفها خطر يتهدد هذا الوجود بالدمار مما يقتضى تجنبه والابتعـاد عنه ، وهكذا يكون التمزيق والشطر مزدوجا وجدانيا وموضوعيا واقعيـا ، المشاعر الداخلية والحكم السديد على الواقع الخارجي — النار المدمرة للجسم البشرى كما فى الفصل الثالث عشـر — يواجه نمرود فى أول فصول القصة التحدى والخوف بالاخفاء اخفاء مشاعره وقد راودتـــه واحسها وتعرف عليها ، ثم بعد ذلك الامتناع عن اعلانها للاخرين . أنه يؤكـد لامه أنه لم يخف . ولكنه بعد ذلك يفقد بالفعل وعلى مستـوى الوعى هذه المشاعر ويصبح عاجزا عن الشعور بها . ونجد أن الاب — الحقيقى — افرى — يلعب دورا فى تدعيم هذا التزيف . أن الاب فـى حالة النمو السوى الصحى يلعب دور المرآة تعكس للطفل فى امانة مشاعره الحقيقـة فى اعتراف ومحبه تتيح للطفـل قبولها ثم السيطرة عليها والتحكم فيهـا . أن الاب هنا متواطئ فى عملية التزيف . أنه يدفع ولده الـى طريـق التزيف هذا مدفوعا هو الاخر بازمته الشخصية ، والتى تتمثـل فى رغبتـه فى الهروب من مهانتـه وهوانه السابق فى وطنه الاول ، روسيـا . الاب يعلن للام صراحة أنه لا يريـد أن يكون ولده مثله ، لا يريده أن يشب خائفـا رعديدا مفزوعـا كما كان طفلا فى قريته على ضفاف الفولجا . أن الطفل يتعرض فى عمليـة تزيف وعيه لحصار لاقبـل له به ، حصار من جانـب مجموعـة الاقران ، ثم حصار من جانب الاب ، ثم حصار ثالث عن جانب اب آخر ، أب رمزى يمثل القدوة والمثل الاعلى جدعون الصخرة . ولا يقــف فى صف الصبى مساندا لذاته الاصليـة الا اثنين الام التى لاحول لهـا ولا قـوة ، مهزومـة مسلوبة الارادة امام سلطة الاب " لامخ " العجـوز

رمز الحكمة واليهودية فى صورتها الطيبة المسالمة النبيلة الحكيمة •
ولكن الام المهزوزة ولامخ المعزول المنبوذ الوحيد لايقدرا على التصدى
للقوى المناوئة •

أن نمرود منذ السطور الاولى واقع فى براثن الزيف خاضع له ممتثل
لارادته • أن الفصل الاول أن جاز لنا أن تلخصه فى كلمة لقلنا أنه
فصل السقوط فى فخ الزيف والاغتراب •

ويقودنا الفصل الثانى الى جوانب أخرى من الصورة الى الصراع بين
صورتين من صور الاب ، الاب الفعلى افرى فى رغبته فى أن يشب ولده
على غير صورته عندما كان طفلا ، أى أنه يتخذ ولده مطية لعملية دفاع
نرجسى مزدوج ، فهو أولا يرفض جانبا من نفسه ، الجانب الطفلى الضعيف،
ويطارد هذا الجانب ويلاحقه بالرفض والادانه والخوف أيضا من ظهوره ،
لدى ولده ، ويزيد من مطاردة الوالد لهذا الجانب وجود الاب الاخر
لامخ العجوز الذى يحاول تقويض، أو أصلاح ، مايفسده الاب • أن الاب
يواصل الادانة المزدوجة للجانب الطيب ، أو المسالم التلقائى والطبيعى
والقادر على الحب والخوف واللعب فى نفس ولده ولدى لامخ الذى
يحبه الصبى ويسعى اليه مستمتعا بما يرويه له من قصص وما يغرسه فى
نفسه من قيم دينية يهودية فاضلة تقوم على الحب والسماحة • وترى
فى هذا الفصل كيف يقدم الاب لولده بديلا للامخ هو جدعون الصخرة ،
فى هذا الفصل نرى بداية أفول لامخ وانكماشه وتراجعه ، ارهاصا بافول
وتراجع مايمثله فى المجتمع فالاسرائيلى ولجيل السابرا ممثلا فى الصبى
نمرود بطل روايتنا •

أما فى الفصل الثالث فنتقدم لنتعرف على جدعون فى تلك الرحلة العجيبة التى تكاد تكون تكرار اللعبة من القوى حيث يتسلق نمرود الجبل مع الاب وجدعون وتكاد تكون هذه الرحلة اشبه بطقس تد شين بدائى يبلى فيه صبى التاسعة - بل دونها - بلاء دونهما - بلاء الرجال ويحظى بأعتراف صخرة الصخور جدعون - به صخرة تحت التكوين والانشاء اذا جاز هذا الاصطلاح ، ان قيمة هذا الفصل انه يكشف لنا عن مايمكن اعتباره تحالفا ، أو انصياعا بين نمرود وجبل الصخور وانتمائه اليهم وسيره فى ركابهم بعيدا عن لامخ ومايمثله ، اننا فيه نلتقى بميلاد نمرود صخرة المستقبل .

وفى الفصل التالى عليه - الرابع يعود نمرود الى رحاب لامخ ومايمثله اذا يدخل معه المعبد ، ولكنه يراقفه - كما رافق جدعون فى رحلة الجبل - وقد تحدد موقفه وانصاع الى جانب جدعون وانتمى الى الالة الجديد اله صهيونى وانصرف عن الالة القديم اله ابراهيم . أنه فصل انحياز نمرود الى معسكر الصخور .

أما فى الفصل الخامس فاننا نلتقى بلامخ مرة أخرى ، ولكنه لقاء يكاد يكون فيه لامخ أشبه بيوحنا المعمدان ، ناصحا ومذكرا ومحذرا وتاركا خلفه رسالته ورمزه - الارنب الجلدى - يتركها مهزوما مطرودا وسط سخرية الاب والاطفال ، انها شبه بزيارة وداع . هذا فصل هزيمة لامخ حيث لانراه بعد ذلك الا اسطورة بلا تأثير حقيقى فى مجريات الاحداث . لقد توارى ارنب لامخ امام سكين افرى .

أما فى الفصل السادس فنكاد نلتقى بنمرود وحيدا ، يقف فى مفترق

الطرق بين نموذجين ، نموذج جدعون الصخرى، ونموذج لامخ الطيب الوديع • كان قد بلغ العاشرة ، وكانت الحرب العالمية الثانية قد قامت • وفى مناخ الحرب والعد وان نرى بدايات انه ثار ماهو طيب، ونرى تراجع نمرود ليصير صبيا عصابيا ، يتحدث الى ارنبه الساعات الطوال، ومع ذلك عندما يزور لامخ يقول له أنه يستطيع ان يسرق الارنب بسكينه ، يتمارض ليسترد اهتمام والديه ،ويتردى فى سرقات صغيرة من نوع Cleptomania "جنون السرقة" وتتضح عليه مظاهر " عصاب الخلق Characterneurosis على أن اهم ما يبرزه هذا الفصل مايصاحب التحولات التى تظهر على نمرود من تحولات مماثلة مكملة لدى لامخ ، فهاهما يتباعدان حتى ان نمرود يتصرف من عند لامخ دون ان يحدد للامخ موعدا لزيارته القادمة •

كاد اذن ان ينجح افرى (الاب) وجدعون (الصخرة ــ الاب المثالى) وسياق الحياة والجيل فى أن يعزلوا اجميعا نمرود عن ينابيع الوجود والحب والانتماء والبناء وعن التراث الخير الطيب لليهودية •

ويكاد الفصل السابع يكون امتداد لسابقة ، يتجلى لنا معناه وتتكشف لنا دلالته على ضوئه فبعد الصراع العصابى الذى خاضه الصبى وبعد القطيعة مع لامخ وبعد ان اوشك الاغتراب أن يحيط بوجود الصبى ، حصار فى الخارج وفساد فى الداخل، حصار من الاب ــ وجدعون وتدمير من جانبيهما معا للمغزى الايجابى للامخ ، وفساد فى الداخل بعد نبذ لامخ ورمزه ــ الارنب وبعد الاعلان فى صلف

وخيلاء أنه قادر على تمزيق الارنب، بعد ذلك مباشرة نرى نمرود يذهب سفيرا - خارج القرية الى حيفا ، ليفرض على الاطفال لعبة القوة حتى كاد يعرض صبيا للقتل تحت عجلات سيارة . هذا ماصار اليه نمرود عقب انفصاله عن لامخ ، فها هو يستبدل بالارنب الذي يرمز صبيا حقيقيا حيا يكاد يسلمه الى موت محقق ارضاء لجنون القوة والعظمة في حيفا نتعرف على صورة نمرود الحقيقية بعيدا عن لامخ ، لذلك لاينتهي الفصل الا بعودة نمرود مرة أخرى الى احضان لامخ الذي يتلقاه في حدس بالغ العمق حتى ليكاد يمارس معه في لقائهما مايشبه العلاج النفسي هل تريد المؤلفة ان تجعلنا نعتقد ان العودة الى لامخ هي العلاج والشفاء وان البعد عنه بكل مايمثله وبكل مايرمز اليه هو السقوط في براثن القتل والتدمير لعلنا - بهذا الفصل - نكاد نحس أن لامخ في منفاه وعزلته - في الجيتو والشتات المفروض عليه داخل اسرائيل - يظل الامل ، ويبقى طوق النجاة للغرقى .

أما في الفصل الثامن فنلتقي بواحدة من أهم وقائع القصة واخطرها معزى ، عودة جدعون حطاما ، ونجد ايضا نمرود على اول مشارف الرجولة ، نلتقي به وقد وصل سن البلوغ واستولى عليه الانشغال بجسده ، وشرع في ممارسة العادة السرية أن المقابلة بين دمار جسم جدعون وفوران جسم نمرود أمر حافل بالدلالة . ونجد في هذا الفصل بداية تبادل الادوار ، نمرود يتأهب لاخذ مكان جدعون ، كما نجد جدعون وهو يتحول ليأخذ دور لامخ .

ولعل الفصل التاسع يستوجب منا النظر اليه في صلته بالفصل الثامن ففي هذا الفصل يموت لامخ ، الحكيم الطيب ، يموت بما يمثله

من فكره يموت مهزوما بما فرض عليه من عزلة وحصار ولعل علينا أن ننظر الى نمرود وهو يستقبل بشائر رجولته المقبلة وقد صار بين جدعون الحطام ولامخ الميت . أنه يقبل على الحياة وقد تكسر جناحاه ، تكسر جدعون بحمقه وعشقه لجنون القوة مجردا من العقل والقلب، وتوارى خلف اسوار الحياة لامخ مهزوما منبوذا . وعندما يدفن لامخ يبكيه جدعون ويبكيه نمرود . يبكيانه ، فهو جد ورها وجوهر ما هو طيب صالح للبقاء فيهما . ويبكيانه أيضا ندما واحساسا بالاثم لد ورهما في موته . لقد كتب عليهما ان يواجها الحياة بدونه ، وبخاصة نمرود ، لقد صار وحيدا امام حطام نمرود وقصور افرى ، ابيه،

وفي الفصل العاشر نرى مراسم دفن لامخ ، تعبيرا عما يعنيه وجوده ، ويعنيه مماته ودفنه من دلالات عميقة — ومع دفن لامخ يدفن عند نمرود كل ما هو طيب وخير ايجابي ، تدفن القدرة على الخوف وعلى الحب ، على الحرص على الاخرين والسعى اليهم والتواصل معهم يدفن لامخ ويعلن قيام الدولة وتشتعل الحرب (ص٤٨) ان نمرود يتحول في طريق معاكس للطريق الذى يتحول اليه جدعون نمرود وقد فقد الخوف والحب اصبح جسدا فحسب ، وجدعون وقد فقد الجسد ، عادت انفاس الحياة تنبض في قلبه وصار يقرض الشعر .

وبعد ذلك (فصل ١١) نلتقى ببطلنا وقد بلغ مبلغ الرجال ، وصار في السابعة عشرة من عمره يحلق لحيته ويتأهب للتجنيد . ومع هذه الصورة الوردية للرجولة والقوة والشباب نلتقى بشيء مغاير ، بقلب الام — اذا جاز هذا التعبير — التى ظلت على هامش —

الاحداث والحياة في هذه الرواية — ويبدو أن هذا هو مكان المرأة والام في جيل السابرا ، التي يفزعها عجز ولدها عن اقامة علاقات وروابط انسانية حقة ومع هذا الادراك بكل ما فيه من غمق وحدس نجد بطلنا يتلقى بقناته . نمرود الصخرة النرجسي يلتقي بايللي المهاجرة المجرية التي تأخذ دور المبادرة في لفت نظره اليها ، انها تكبره بثلاث اعوام ومع ذلك فصغر حجمها يجعلها تبدو كفتاة في الرابعة عشرة . ان مشاعر الام التي ورد ذكرها في كلمات قصيرة عابرة ، تكاد تكون بمثابة انذار أو تحذير لما سيحدث بعد ذلك ان نمرود صار صخرة بالمعنى السيكولوجي الدقيق تكون له مايطلق عليه اصطلاح " درع الشخصية Character aemour وصار بناء هذا الدرع سميكا ثقيلا يحول دون الاحساس الوجداني العميق بمايدور حوله بالمثل دون خروج المشاعر والاحاسيس العميقة الى العالم الخارجي ، لقد صار صبيا — أو سابرا كما في العبرية — أن نزع الام انذار بمقتبل حياته العاطفية والجنسية .

ولذلك نجد الفصل الثاني عشر يدور حول علاقة نمرود بايللي . وهي علاقة جسدية ، قبل أن تكون علاقة جنسية وهي علاقة قهر وتغلب مثلما يقهر الجبل ويتسلقه حتى القمة ، قبل ان تكون حتى علاقة اغتصاب جنسي . ان علاقة نمرود بايللي في طورها الاول عندما كان البعد الانساني في الصدارة كانت المبادرة فيها بيد الفتاة ، وعندما تحولت الى علاقة جسدية ، تحولت المبادرة الى الفتى . ولايمكن ان يكون الامر صدفة او بلا مغزى ان تكون

اول ممارسة جنسيــة على قمة جبل حيث ولع نمرود بالصعود والارتفاع والتسلــق وبلوغ القمــة .

أن نمرود ينقل الى الحياة الجنسيــة قواعد لعبته المفضلــــة " من القوى " وهكذا نجد ذلك التوازى الكامل بين الحياة الجنسيــة والعلاقــة الجنسية الغيريــة والعلاقــة بالاخرين ، ذكورا ، وبالعالم المادى . لقــد صارت ايللى جبلا للتسلق ، أو شجرة للصعود والهبوط صارت موضوعــا بالمعنى الوجودى وليست ذاتا ، صارت وجودا فــــى ذاته وليست لذاتــــه Pour-soi لم يعد لها كيان مستقــل قائم بذاته . لقــد صار نمرود وحيدا اذ لم يعد الاخرين بالنسبـــة له كيانات بشريــة حقــه . كذلك نرى نمرود بعد مضاجعتــه لايللـــى يحدثها عن صديقــــه جدعون الذى لم يعــد قادرا على امتـــلاك امراة وعن لابخ الذى يعتقــد أنه لم " يمتلك فى حياته أى امراة . انــه يشهدها على تفوقــــه على الاخريــــن .

وهكذا نجد نمرود ابتداء من النصف الثانى من الروايــة يبدأ رحلــة العذاب ، رحلة الوحدة والاغتراب وفقدان الذات وراء اسوار الجيتـــو الجديــد ، اسوار الايديولوجية الصخرية الايديولوجية القائمة علـــى اعتقال الخوف من حيث هو ترمومـــتر الحرص على الوجود والابقاء عليــــه والاقبال عليــــه .

فى أول فصول النصف الثانى (الفصل الثانى عشر) كانت مضاجعة نمرود لايللـــى ، وكانت اغتصابا وليست جنسا يقوم على التواصل والعطاء

كان برهان رجوله . و فى الفصل الثالث عشر نرى ايللى وقد شهدت الاطفال يلعبون لعبة " من القوى " يدفعون بايديهم الى النار ليروا ايهم اقدر على ابقائها الوقت الاطول ، وتتدافع كل ذكريات ايللى الحزينة القديمة .. النار والحريق ومعسكرات الاعتقال والابادة والافران والغاز ... كل أشباح النازية تهب من مراقدها هى تلتقى برمز نمرود بطفولته ، وتتشرف طفولة ابنائها منه . وتحمل ايللى احزانها الى جدعون لتجد عنده " رينا " رفيقة و زميلة طفولته وصباه . وقد ربحت انوثتها وشوهت تلتقى اذ ايللى المراة اليهودية الاوربية برموز العذاب والزيف التى تنتظرها فى موطنها الجديد ... وتعرف على مصير الانوثة والامومة بين جيل " الصقور " أو الصخور " .

ان سلوك الاطفال فى تحريقهم لايديهم - وسلوك رينا يكملا صورة المجتمع الجديد . تزييف الطفولة وتزييف الانوثة متوازيان .

وبعد ذلك يجىء الفصل الرابع عشر ، فصل الرحلة الى تل أبيب حيث نرى صورة أخرى لمدينة اسرائيلية لمجتمع مخالف لمجتمع الصابرا ونتعرف على صلف الصابرا فى مواجهة ابناء المدينة فى مواجهة المجتمع الاسرائيلى ، فها هو نمرود يتملكه الغضب لان شابا من ابناء العاصمة لايعرف مكان قريته من اسرائيل ، ولعل اهم مزايا هذا الفصل انه يكشف لنا عن زيف المدينة بالقياس الى نقاء القرية ، كما يكشف لنا ايضا عن انفتاح المدينة ، فكريا وحضاريا وأنغلاق القرية أو بعبارة أخرى انغلاق ماتمثله بيت عون من حيث

رمز لجيل الصابرا وللايد يولوجية الصهيونية وللمقور • أن هذا الجيل هو ايد يولوجية بمعزل عما يد ور في العالم وعن نبض هذا العالم وايقاعه • لكننا نلمس فيه امرا شديد الاهمية نلمس فيه انبهار فتاة بيت عون — رينا — بالمدينة واقبالها عليها وسرعة تحولها عن قريتها وقيمها ••• انها تنفض عن كاهلها اقنعة الزيف والاغتراب وتتحول بالتدريج الى قبول انوثتها • واذا ماربطنا بين هذه الرحلة الاولى الى حيفا لوجدنا نمرود ، صبيا وشابا مبقيا على نفوره ورفضه للمدينة وعجزه عن تقبلها والتأقلم لها •

واذا كان هذا التفضل يكشف عن تحول من جانب رينا الى اقتراب من السواء والاعتدال ونخلص من الاغتراب والزيف فأن الفصل التالى (الخامس عشر) يكشف عن تحول مناقض من جانب ايللى فاذا كان يوارم الحضرى الثرى قد استطاع ان يجذب اليه فتاة بيت عون — رينا ويخلصها من صلفها وزيفها بالتدريج ويجذبها الى حياة المدينة الصاخبة ، فأن ايللى عندما يحاول نمرود ان يعرض عليها الارنب الدمية — رمز لامح الطيب ونمرود الطفل القادر على الحب الحريص على العطاء — الصادق — هدية ، نراها ترفضه فى تشكك وريبة معربة عن تفضيلها لشى نافع ، مقص للزهور مثلا • ان ايللى اليهودية المجرية المهاجرة استسلم لضغط الحياة الجديدة الساحقة التى وجدت نفسها مضطرة للعيش فيها ، انها تحت وطأة اعجابها لنمرود وحبها له ورغبتها فى الزواج منه تتمثل رغما عنها بعض من القيم " الصخرية " وتقع تحت وطأة قدر ما من الاغتراب هى الاخرى •

لذلك نجد نمرود فى الفصل التالى عليه مباشرة (الفصل السادس عشر) وقد اعرضت ايللى عن قبولها لارنبه — أى قبولها للجانب الطفلى الوديع — نجده يقوم بمباراه جديدة — بمفرده هذه المرة — من مباريات من القوى فيعبر الحدود السورية ويتسلق قمه جبل حرمون المكسوة بالثلوج ان هذا الفعل " مضاد — الرهابى Counter phopic يكاد يكون رد فعل من نوع التكوين العكسى لرغبته السابقة فى ان يقدم الجانب — الارنبى — (الوديع) من ذاته لايللى ٠

ولقد تناولنا بالتفصيل الدلالات الرمزية والمعانى اللاشعورية لمذكرات نمرود عن صعوده الجبل وعودته ، اننا هنا بازاء تعبير عن رغبة طفلية نرجسية باستعادة الوحدة الاقيانوسية بالام من حيث هى رمز الوجود كله — وامتلاكها بمفرده والانصهار فى بوتقها وهكذا نجد وحدة النقيضين ، الطفل الرضيع ، والبطل الموسوى الاسطورى وكأنه يخاطب ربه من فوق قمة الجبل ٠

وبعد وأن هذا البرهان كان شرطا ضروريا لامفر منه كى يستطيع نمرود ان يتزوج بالفعل من ايللى ففى الفصل التالى (السابع عشر) يتم الزفاف وتتكشف لنا من خلال وقائعه مشاعر التنافس والرغبة الحقيقية لدى نمرود — وهى رغبة اضطهادية — فى تأكيد تفوقه — من خلال قناع من الاشفاق نحو نمرود الذى ينفذ اليه فى حدس عميق ناقد ٠

أننا نتأكد دائما كيف أن صارت علاقة نمرود بالخوف علاقـــة فريدة فهو في خوف من الخوف حتى اصبح في حاجة الى ان يقيم الدليل دون توقف او انقطاع على ان لم يعـد يخاف . أنه باظهـاره الاشفـــاق الزائـد على جدعون واعلانه عن رغبتـه في أن يكون الاحتفال بزفافـــه في ساحة منزل جدعون حتى يتسنى لجدعون المشاركة في الزفاف — بدلا من أن يتم في ساحة منزلـه حيث الوالـدين انه بحرصـه هذا الزائـــد انما يؤكـد شماتته في جدعون الذى صار بعيدا يحطم ويكشف عـــن ضرب من مشاعـــر الاثم الخفيـــة ، وايضا الخوف من أن يلقى مثـل هذا المصـــير .

وبعـد هذا الفصل مباشرة الفصـل الثامن عشر نجد نمـــرود يشارك في عمليـة عسكريـــة عـبر الحدود السوريـــة وزوجته في بدايـــة حملها ، ويقع زكى اليمنى جريحا ويتم اسره اما جدعون فيصاب بجـــرح لا خطـــر منـــه .

أن الحاجة الى اثبات البطولـة الذات ولذات قبل الزواج — يتسلق الجبـل — وعقبـه مباشـرة — بالمشاركة في العمليـة العسكرية يؤكـد لنا مرة اخرى شغل نمرود الشاغل باثبات جسارتـه وقوتـه . هـــذا الشغل الشاغل ذاته بما فيـه من مبالغة تفوق الحد ، لهو دليل علـــى شعور نمرود العميـق ويعكس ذلك ، بالحاجة الطفليـة الى الحـــب ، تلك الحاجة التى حاصرها اغترابه والقى بها في غياهب اللاشعور ——— فلا تعبر عن نفسهـــا الا بتوكيد نقيضها .

على أن المقابلة الطريفة بين تفتح بذور الحيـاة ، ممثلا فـــى حمل ايللـى والاقبال في شغف ونشوة على نقضيها ، الحرب والقتـــل والموت والدمار لدليل على وحدة النقيضين التى لا تقبل انفصاما فـــى أعماق نفس نمرود ولكن الا يستوجب التأمل أن يكون الموت والقتل والحرب في حياة نمرود سابقـا على الابوة . أنه يقتـل قبل أن ينسحـــــب ويصبح أبـــا .

يبقى بعد ذلك الفصول الاربعة الاخيرة ، وهى جميعها وفـــى مجمعها تغلب فيها السلبية على الايجابية من الناحية الانسانية ، ورغم جمالها وتفوقها الفنى ، انها أقرب الى السقوط والانحدار ، وان كـان من الممكن ان ننظـر الى هذا السقوط والانحدار من زاوية اخرى ، فنرى فيـه سقوط الزيـف وامل استرداد الوعى واصلاح الامـــر .

يفاجئنا أول هذه الفصول الاربعة (الفصل التاسع عشر) بالمعنى الحرفى لكلمة المفاجأة بموت مريـام (أم نمـرود) وهو موت ليس لـــه مـبرر موضوعـى من شيخوخة أو حتى مرض محدد المعالم معـروف ، أنـــه موت اقـــرب ان يكون موتا وجوديـا انسانيا ، انــــه الوجود وتراجعه عن مسرح الحياة وعن التأثـير في مجرياتها ، وتنقـل المؤلفـة لنـــا هذه الفكرة ببراعـة مؤثرة ومتقطعة النظـير ..... أنه التراجـــع والذبول والانكماش ، ان الاطباء عاجزون عن تشخيص مرضها ، وعـــن علاجها ..... لقـد رفضت الحياة ، أو بعبارة أصدق وأدق لقـد رفضتها الحياة ، أو قل نبذتها نبذ النواة الحياة فى المجتمع الجديد ،

حياة ابناء الجيل الجديد ـ جيل الصابرا ـ صقور اسرائيل ، ونعيش في هذا الفصل بكل العمق والتأثر احتضار ميريام (وميريام هي مريم ، ومريم هي أم المسيح ، فهل كانت يائيل ديان التى تكتب بالانجليزية بدلا من العبرية وتنشر في عاصمة الانجليز بدلا من عاصمة اسرائيل وتكشف عن ثقافة اوربية يغلب عليها الطابع المسيحى اكثر مايغلب عليها الطابع اليهودى الصهيونى الاسرائيلى ، وتكشف كذلك عن سلبيات هذا الجانب من حياة اسرائيل ، ترى هل كانت تقصد ، شعوريا أو لاشعوريا أن تختار الاسم عن عمد ، لتقدم لنا مسيحا هو في حقيقة الامر مسيحا ، فاذا كان المسيح رمز الحب والبر ، فان المسيح الجديد ، مسيح الصابرا هو رمز العجز الفاضح عن الحب والعجز الفاضح عن البر بأمه رغم أنه وحيدها . المهم في هذا الفصل تموت ميريام ووحيدها دون غيره ابعد الناس عن فراشها ، وتكشف الام عن حدس عميق ونفاذ عندما تقول ان ولدها لم يكن " هنا " ابدا وتستخدم ضمير الغائب اذ تقول لقد قتل (he) نيمى ونمرود قد هرب هذا (الهو) الذى قتل صغيرها نيمى ، ان مناخ الصابرا والصقور أو " الصخور " هذا هو القاتل الذى قتل صغيرها وماتخلف بعد قتله ، أى نمرود صار في هرب دائم ، في شتات أو دياسبور diaspora جديد داخل اسرائيل نفسها .

أن موت الام في هذا الموقع من الرواية ، قبل ميلاد الحفيد يعبر بصورة رمزية عن " انقطاع " الجذور اليهودية ، واستقبال الابوة بلا جذور . ومع ذلك ففى هذا الفصل نرى نيمى كما نرى نمرود

هاربا من نيمى القابع فى داخله اشد مايكون حبا للام وتمسكا بهـــا .
بل والتصاقا بهـــا . أن موت الام ايضا انذار لايللـى وتحذير لها مما يمكن
أن يكون مصيرها فى مثل هذا المجتمع " الصخرى " وتموت الام فيجـد
افـرى — الاب — نفســه وحيدا كسـيرا .

وتموت الام وتهرب ايللـى (فى الفصل العشرين) تهرب بنفسها
من زوج " صخرى " لاقلب له . تهرب الى تل ابيب الى يورام ورينــــا
وتنتابها حالة من الانهيار الكامل تستغرق فيها فى نوبات من الهـلاوس
وتعبير عن الرغبــة فى الارتداد الى الاب ، ومادام بديله — الزوج
— صار صخرة لاقلــب لــه . بل ان الزوجة تعلن فى نوباتها الهلوسية
عن رفضها للطفـل وعدم رغبتها فيــه . ان انهيار الزوجة لايأتى بعد
موت الام مصادفة وينتهى هذا الفصل بحدوث قطيعة بين نمــــرود
وجدعون الجديــد العاجز ، الذى اتاح له عجزه أن يستعيـــد
استبصاره بكل ماغاب عنــه عندمـا كان صخرة لاقلب له . أى أنـــه
يغالب ماكان يعانيه من اغتراب ولكن الجراح تندمل وتعود ايللى مــع
زوجها الى القريــة وتتأهب لميلاد طفلها . وفى هذا الفصل نجــد
نمـرود وقـد واجه نفسـه ولفـترة وجيزة — وحقق قدرا من الاستبصار
بعجزه ، لكنه يعجز عن ان يحدث بنفسه تغييرا حقيقيـــا .

وبعد ذلك يأتى الفصل قبل الاخير . موت جدعون منتحرا ولعل
هذا الفصل يطاول فى قيمته الفنيــة وفيما يكشف عنه من معانى ودلالات
فصل موت الام . جدعون يقتل نفسه اذ عجز عن مواجهة مأساة وجوده

وخذ يعتبه لنفسه • ويترك جدعون لنمرود خطاب وداع تعرف منه أن ايللى كانت تواجه بسبب الحمل خطر الموت وأن جدعون هو الذى نصحها بالاحتفاظ بالطفل وقبول المخاطرة ولكنه عندما دخلت ايللى المستشفى للولادة لم يجد فى نفسه الشجاعة للانتظار لما قد تسفر عنه نصيحته ، أعنى أن تموت ايللى ، ويولد جدعون الصغير " جيدى " عقب موت جدعون الكبير • ونتبين مدى حب الجميع لجدعون بعد موته ، نمرود وافرى وايللى • ولكن لعل فى عجز ايللى عن انجاب مرة أخرى مايؤكد لنا مرة اخرى بصورة رمزية بارعة خطر الصقور على اسرائيل أو الهوية اليهودية فالمرأة هى كما نعرف أساس الانتماء اليهودى •

أن الفصول الثلاثة الاخيرة تحشد من جو المأساة مايكاد يكون تمهيدا للفصل الاخير ، أن موت الام (ميريام) ثم هروب ايللى (وهو بمعنى ما ضرب من ضروب الموت الرمزى من حيث هو غياب) ثم موت جدعون ثم خطر الموت الذى كادت تذهب ايللى ضحيته ، وعقمها الا عن طفل وحيد •••• هذا المناخ مناخ الحياة بين الصخور أو الصقور ••• مناخ الموت والفشل والاحباط تحتشد كل مقوماته عند ميلاد " جدعون الصغير " أو " جيدى " ولد نمرود ابن افرى وميريام لتعرب عن شئ ما ، عن فشل حياة الصقور ، أو الصخور ، وعن جدب حياتهم الانسانية ، وعن تفريغها من كل ما هو انسانى عميق واصيل • أن تتابع الاحداث فى هذه الفصول الثلاثة حيث الموت والهرب والعقم والميلاد ••• يمهد لدورة حياة جديدة • فما هو

جدعون ابو جيدى الصغير يخطو اولى خطواته على درب الحياة . نفس خطوات ابيه وكما يقال ما شبه الليلة بالبارحة فجماعات الأطفال السرية لازالت تنعقد ، والعاب القوة لازالت قائمة ، ونمرود ياخذ من ولده نفس الموقف الذى كان الجد " افرى " ياخذه من الأب . ان نمرود لايريد من ايللى ان تدلل الصبى ولا أن تناديه باسم التدليل تماما كان يفعل ابوه مع امة عندما كان هو فى سن ولده . وذلك تجد نمرود يقصى الأم بعيدا عن ابنها ويغتصب هو نفسه دورها فيما يتعلق بتربية الأبن .

لكن الجديد ان الجد " افرى " ياخذ مع حفيده الدور الذى كان ياخذه لامسخ من نمرود ، انه يروى له قصص الأطفال ، قصص لامسخ ، لكن الأبن يتشاجر من اجل ذلك مع الأب (مع افرى) مذكرا اياه انه هو نفسه قد كان ينهاه عن لامسخ وقصصه ويعترف افرى فى شجاعة انه كان مخطئا . لقد عاد الاستبصار - فى نهايه الأمر الى افرى فهل فات الوقت .... وتكون آخر وقائع هذا الفصل ، ووقائع الرواية كلها مخاطره الصبى جدعون الصغير ولد نمرود وحفيد افرى فى لعبة من القوى بالسباحة فى نهر الأردن وكان التيار سريعا وجارفا والصبى لم يتجاوز السادسة ، ويراه ابوه صدفه اثناء مروره ويكون الانهيار الكامل والتام لكل قلاع الماضى وسدوده ودفاعاته ضرب من اختلال Tion الانية depersonalization . ويظهر نمرود الطفل ، جنى الأساطير الحبيس فى القمقم . ويكون ما يكون من الصبى من انكسار لوالده ودفعه له الجبن ، وتكون لحظة الحقيقة ... نمرود وحيدا بلا زيف ، فى عالم الزيف ، فهل يقدر على الصحوة ، تقول المؤلفة :

أنه " قد جلس على العشب مرتعدا ، كما كان حال الأرنب

، يرقد في حجرة ولده ، وعلى سريره يحملق في السقف بعين واحدة ، مهملا غير مطلوب ، لكنه كان شامخا " (ص ١٦٠)

لقد بقى الأرنب - ارنب لا مسخ الدمية - والأرنب البشرى في اعماق نمرود ، شامخا رغم ما فعله به الزمن ، او قل حياة الصخور ومجتمعهم ، بقى ان صار بعين واحدة ، او كما يقال في اللغة الانجليزية حرفيا " نصف اعمى " بقى الحب نصف اعمى لكنه بقى .

آخر سطور القصة تلوح لنا على استحياء بامل ، امل في ان يعود نمرود مرة اخرى " صانع سلام ومحبة " ان يظل ، كما ظل رمزه الأرنب - شامخا باقيا ، وان صار نصف اعمى ، وان خاصره النبذ والاعراض .

واقعة سباحة جدعون الصغير في نهر الأردن ، نهر التعميد ، نهر يوحنا المعمدان الذى دفع راسه ثمنا لنزوة ملك مشحونة بدلالات رمزية كثيرة وعديدة ، اسطورية ودينية وصوفية وتاريخية وتحليلية .... الخ اول دلالاتها الرمزية ، تلك الدلالات الدينية اليهودية ولنتذكر أن موسى نبى بنى اسرائيل قد القى به في اليم وليدا والتقط منه حيا ، فالخروج من الماء ميلاد ، وخروج موسى من اليم هو انقاذ له من الغرق ميلاد جديد ولنتذكر ايضا ان موسى خاض البحر بقومه ضاربا اياه بعصاه فانشق فكانت نجاته وقومه وكان غرق عدوه . موسى اذن يخرج من الماء مغالبا خطر الغرق مرتين . وللماء وما يتصل به من تعميد دلالته الرمزية المسيحية - الميلاد الجديد والتطهر من الوثنية والخطيئة الاولى . وواضح التقابل بين

اليهوديةوالمسيحية ففى اليهودية عنف وعدوان ، فها هو موسى ينتصر بمعجزه ويهلك عدوه ، اما رمزية الماء والتعميد فى المسيحية فهى تأكيد للوادعة والحب والسلام • ولعل عنوان القصه ذاتها " طوبى للخائفين " يستدعى الى الأذهان مباشرة موعظه المسيح على الجبل (انجيل متى الأصحاح الخامس) " طوبى للمساكين ••• طوبى للحزانى ••• طوبى للودعاء ••• طوبى للجياع والعطاش •••• " •

فالخروج من الماء فى الرمزية اليهودية اقرب الى ميلاد الأقوياء القادرين المنتصرين على اعدائهم ، اما رمزية الماء فى التعميد المسيحى فترمز الى ميلاد روحى جديد يقوم على نبذ القوة وتمجيد السلام والمحبة والضعف •

ونعود الى جدعون الجديد ، الذى خرج معمدا بماء نهر الأردن بين يدى والده ، مما انقذ نمرود ولده • انه لم ينقذه من غرق فعلى ، فالصبى قادر على السباحه ،لقد انقذ نمرود ولده ـ اونفسه مثلا فى امتداده ـ وانقذ صخره الصخور جدعون الاول فتجسدا فى جدعون الجديد ، وربما يكون قد انقذ جيلا باسره ، جيل الصقور من غرق معنوى ، غرق فى بحار الصلف والادعاء الواهم والزائف لقوة لاجدوى منها الا حرمانهم من ينابيع انسانيتهم الحقة •

وعندما ينقذ نمرود ولده ، او ينقذ روحه ـ بالمعنى المسيحى ـ يكون أول مايقوله له انهما ذاهبان الى امه • لقد اندفع جدعون الصغير اول الفصل الى الخروج من المنزل والابتعاد عن امه ليلعب لعبة من القوى ، وها هو نمرود يعود به بعد التطهير والتعميد الى مكانه الحقيقى

الى احضان الأم ورعايتها بدلا من سباحة يغرق فيها ما تبقى له من قدره على الخوف والحب ٠

لعلنا نستطيع بعد هذا كله ان نوجز القصة باسرها وان نستخلص دلالتها ومغزاها بان نقارن بين مشهدين : اول المشاهد واخرها ٠
اول المشاهد نمرود صبيا يتسلق الشجرة ويهبط من فوقها وينكر مخاوفه وتبدا رحلة الزيف والاغتراب ويبدا حصار الانسان اليهودى الطيب فى طفولته وبراءته داخل جيتو من نوع فريد ٠ جيتو الجيل الجديد صخور اسرائيل جيل الصابرا ، وتستمر المسيرة ،عبر صراعات ومحاولات لاتنتهى لرد الزيف آنا ، وتدعيمه آنا آخر ، وتتتابع الاحداث وتكون الغلبة الزيف والاغتراب ، الذى يبلغ اقصاه عند منتصف الرواية ، ويتجلى عبر تتابع الفصول وتوالى الاحداث ثمن الزيف والاغتراب ،ممثلا فيما يسببه من دمار لجوانب طيبه من الشخصية ولرموز هذه الجوانب مثل لامسخ والأرنب الجلدى ٠٠٠٠ الخ ـ الى ان يفقد الشكل الزائف كل قدره على الحب والتواصل والاستمرار كما فى موت الأم ودمار جدعون ثم انتحاره وعقم ايللى الجزئى ويصبح الزيف الذى كان فى البداية دفاعا يستهدف الحماية والبقاء ،يصبح مع تفاقمه وتضخمه خطرا على البقاء ذاته ـ خطر على ولد نمرود ـ فيكون سقوط الزيف وامل استرداد الاستبصار ممثلا فى ميلاد جديد لجدعون القديم متجسدا فى جدعون الجديد وتعيده بماء الحب والتسامح حيث " طوبى للخائفين ٠٠٠٠٠والساكين ٠٠٠ والحزانى ٠٠٠ والودعاء " ٠

ولكن هل تذهب يائيل ديان الاسرائيلية اليهودية ابنه جنزال اسرائيل الاشهر الى تحول بهذا الحجم ، تعبر عنه وتسعى اليه تحول يكاد يكون

انقلابا من النقيض الى النقيض ... هذا سؤال مطروح للاجتهاد هل تدعوا الى تحول عن " الروح الاسرائيلى الصهيونى فى جوهره اليهود السامى الشرقى الى " روح " غربى مسيحى آرى امى (الاميين هم الجوييم ٤او الاغيار أى ما ليسوا يهودا فى مقابل اليهود) .

الاجابه لم لا ، نعم لم لا فاذا كان الحل الصهيونى للاضطهاد الاوربى تمثل فى العصر الحديث فى عمليه توحد بالمعتدى أى بالنقيض النازى الآرى الاوربى ، وهو حل مرضى بالضرورة فلم لايطرح حل علمانى آخر هو شئ شبيه بالتوحد ، اعنى تمثل الآخر ، (الجوييم الاميين والاغيار) والانفتاح على فكرهم وحضارتهم وتسامحهم تمثلا بهم وتحايلا على التعايش معهم .

يكاد يجمح بى الخيال فيدفعنى الى تحبيذ هذا الرأى لاعتبارات اوردها بايجاز :ــ

أولا : ان الطابع الغالب على الهوية اليهودية طابع بطرياركى (ابوى) تاريخيا اودينيا وعقائديا ، فالرجل اليهودى يصلى فى الصباح لالهه لانه خلقة رجلا ولم يخلقة امراة .

ثانيا : كان الحل الايديولوجى الصهيونى لمأزق المعزلة والاضطهاد حلا يقوم على التعيين الذاتى بالمعتدى والمعتدى هنا هو النازى بتاريخه الالمانى البروسى والاقطاعى المتميز بطابع الذكرى البطرياكى .

ومن ثم التقت البطرياركية التاريخية اليهودية بالبطرياركية النازيه المعاصرة .

ثالثــا : كان لظروف اسرائيل وحروبها وتكوين جيشها ما يقتضى اذكاء الروح الذكرية البطرياركية ، وكان للجيش دور بارز فى هذا الصدد .
وتشير هنا اشارة عابرة نتناولها بالتفصيل فى دراسة تالية مستفيضة تتناول سيكولوجية المراة الاسرائيلية (فى اعمال نفس المؤلفــة يائيل ديـــان) ، تشير الى قصة يائيل ديان الاولى : " وجه جديد فى المرأة حيث توضح لنا كيف يتم تشكيل هوية انثويــة جديدة ، تقوم على تجريد الانثى من انوثتها وحبها من قالـــب ذكرى مغاير لتراثها ولهويتها الاصلية . ان وضع المرأة الاسرائيلية وضع غريب متناقض ، فهو ينطوى على دينــة يهودية تقليديــة وعلى اقامة هوية انثوية اسرائيلية جديدة ذات طابع ذكرى عدوانــى ايجابى ، والتناقض بين هاتين الهويتين يلعب دورا فى الصــراع النفسى العميق والممزق للمرأة الاسرائيلية .

عامل آخر لابد من الفطنه اليه وهو الاقامة الطويلة لليهود فى " الشتات" فى اوربا ، ومعايشتهم لما حققته اوربا الغربية فى انطلاقها المسيحى ثــم الصناعى العلمى فى الثورة الصناعيه ثم نمو حركة الاستعمار ، هذا العامـــل لابد وان يترك بصماته على الهوية اليهودية ، يحرك ضربين متناقضين بيــن المشاعر ، مشاعر الدونيه ازاء تقدم الحضارة الغربية الاوربية المسيحية (وهى حضارة الاغيار او الاميين) ويحرك كرد فعل دفاعى له مشاعر التمايـــز (شعب الله المختار) .

ان هذه الاقامة الاوربية الجبرية لابد وان تكون قد حركت ديالكتيـــك الانــا الاخــر ، الانا اليهودى والاخــر الغربى المسيحى ولابد ان يكـــون تاثير الاخــر ـ بوصفه الاقوى ـ على الانا واضحا واذا مــا نظرنــا الى الامــر

فى ضوء هذه الاعتبارات لامكننا ان نرى فى التعيين الذاتى بالمعتدى (النازى) الدفاع الذكرى الصهيونى ضد الشعور بالاضطهاد والعجز والدونية . وان نذهب الى أن شيئا ماثلا ، ضرب من ضروب التعيين الذاتى بالاغيار (اوربا الغربية المسيحية) فى مناخها الحضارى الديمقراطى العلمانى المتسامح (الذى يدأ فى اوربا مع بدايه الثورة الفرنسية) قد تسرب الى البناء النفسى للقطاعات والجماعات اليهودية الأوربية الواسعة خصوصا تلك الجماعات التى سمح مناخ الليبرالية الأوربية فى مجالات المهن الفنية (طب ، هندسة ،صيدلة) ومجالات التجارة والصناعة والفكر بمكانه افضل مما سبق ، وبقدر من المساواة لابأس بها . ولعل فى اسهام كثير من المفكرين الأوربين اليهود فى تطوير الحياة والحضارة والفكر (فرويد ـ ماركس ـ انشتين) ما يؤكد فضل "الاغيار" فى اوربا الحديثه على يهود "الشتات" بل ان اقامة اسرائيل لم تكن ممكنه الا بفضل الاغيار (انجلترا ، امريكا ، فرنسا . الخ) .

وترى ان للاغيار (اغيار اوربا الغربية المسيحية) نقطة جذب خاصه بالنسبة للمرأة اليهودية فاذا كان جوهر الهوية الهيودية بطرياركى ذكرى يعلى مكانه الرجل على مكانه المرأة إعلاء بالغا ، فان المرأة اليهودية فى شتاتها الأوربى ، خصوصا بعد الثورة الصناعيه ، وبالتاكيد ما بين الحربين وما بعدهما قد صدمتها مكانه المرأة الأوربية وتزايد تساويها مع الرجل فى مجال الحريات السياسية والقانونيـة والفردية كما ان الثورة الصناعيه والتحولات الأوربية الهائلة فى مجالات العلمانية اوالليبرالية لاشك قد حركت فى نفوس يهود الشتات ضرب من المقارنه بين القبضة الخالقة للعقيدة والايديولوجية والقيم اليهودية وانغلاقها من جانب وموجة التحرير الغربى جـانب آخر لذلك لابد وان ينظر يهود الشتات الى ماهو

مسيحي اوربي نظره اكبار تنطوي على قدر من التمني والرغبة في المحاكاه .

لذلك كله نرى ان جذب ماهو مسيحي وان كان عاما بالنسبة لليهود في شتاتهم ، فان هذا الجذب يصبح اقوى واشد بالنسبة للمرأة اليهودية التي ترى الفرق بينها وبين قرينتها الأوربية واضحا باهرا .

وعلى هذا تتسرب رموز الأغيار وعقادهم لتستقر في اللاشعور وتحركة في نفس الأنا فتكون أداة للتغيير الرمزي والادبي شعوريا او لا شعوريا .

ولذلك فاننا نميل الى ان نرى في مشاهد الفصل الاخير من الرواية ، انقاذ نمرود لولده جدعون والعودة به الى احضان الأم ضربا من الانقاذ المسيحي ، ضربا من التعميد في ماء نهر الأردن ، تعميد جدعون الجديد تعميدا مسيحيا ،كيلا يلقى مصير جدعون القديم ،وها هو يعود به الأم امه امتداد مريم (ام المسيح) وقد تقدم من الصلب — وفي التاريخ المسيحي ان اليهود قد اسلموا المسيح لصالبيه . اذا كانت مريم القديمه (ام نمرود) قد قتل ولدها فان مريم الجديدة ايللي ، تسترد ولدها بفضل عوده جدعون الى وداعه وسلام مسيحي .

وفي النهاية طوبى للخائفين .... " طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات " (انجيل متى الأصحاح الخامس) .

هذه العودة الطهرانية هي وحدها المخرج من المأزق اليهودي الصهيوني ، مأزق المرأة بخاصة والذي يسلمها الى الزيف والعقم ... وليس مصادفة ان يكون نمرود طفلا وحيدا انجبته ام ثم استسلمت للعقم وان يكون ولده جدعون

الجديد طفلا وحيدا انجبته ابلسى وسط مخاطر الموت ثم طوقها العقم بقبضته وليس مصادفة ايضا ان يكون لامخ اليهودى الحكيم عاقرا بلا ولد وان يكون جدعون الصخرة بلا زوج ولا ولد ولا امراة على الاطلاق .

ان كون المؤلفة امراة ذات تكوين مزاج غربى وان كانت ابنة اشهر محاربى اسرائيل ، هو فى راينا الذى اتاح لها من خلال ضرب من التمييز الذاتى بالغير " الجوييم الغربى المسيحى " هو فى تقديرنا الذى اتاح لها هذا الاستبصار بالأزق اليهودى الصهيونى مأزق القوة ، او كما يخطر لى أن اسمية المأزق الشمشونى " نسبة الى شمشون الجبار فى الأيدولوجيا اليهودية العبرانية صاحب شعار " على وعلى اعدائى " هذا المأزق دبر شمشون اسرائيل " ؟جدعون القديم . والمخرج المسيحى . ان شمشون آخر جدعون جديد يعمد بمياه نهر الأردن ويعود الى مريم الجديدة تام ، حيا غير مصلوب وهكذا يتم من خلال الرمز الاسطورى بعث اليهودى حيا ، وديعا مسالما ، مسيحا جديدا محبا خائفا ، يقوم من على الصليب ويعود الى حضن امه مريم .

وما كان الامر كذلك ، اذا ما نظرنا الى القصة فى اعمق اعماقها اللاشعورية حيث هى صفو الحلم طريقا الى اللاشعور ، وحيث تحقيق الرغبة ، الرغبة فى البقاء والصفاء ورأب الصدع .

